أنا رع

مجموعة قصصية

الدكتورة أسماء غريب

٢٠١٦م

أنـــــــا رع

(مجموعة قصصية)

سردٌ بين الذّاتي والخيالي

الدكتورة

أسمـــاء غــريـب

٢٠١٦م

Sono Ra'

Asma Gherib

2016

هوية الكتاب

اسم الكتاب: أنا رع (مجموعة قصصية)

المؤلف: الدكتورة أسماء غريب

الطباعة: دار الفرات للثقافة والإعلام - العراق - بابل

السنة: ١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٥٢٣) لسنة ٢٠١٦م

Al-Furat House for Education and Information

Iraq – Babylon

﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾

يونس/٥٧

[لوحة الغلاف، (صواع مَلك المُلوك)، هي من إنجاز د. أسماء غريب]

الإهداء

إلى زوجي باسم؛
بدري الأحمر

د. أسماء
إيطاليا/ ٢٠١٦م

السّلام عليك أيّها القرص الذهبيّ
الآن أشرقتَ
والكلُّ بدأ في البحث عن آثار أقدامكَ
فوق مرآة قلبي
لكنّ الثعبان الأسود ابتلع كلّ شيء
ومحا كلّ بصمة وأثر
فقُمِ الآن واصرخ بعلو صوتك
وقلْ أمام الملأ:
أنا من بَشّر بي حورس وأنوبيس
أنا رع في الصّباح
وأنا تيمو في المساء
فيا عين حورس اظهري من داخلي
وتوهّجي خارجَ فمي
وليَمُتِ الثعبان
وليحيا رع
صاحبَ النهر
والقارب والمجداف

المحتويات

	الموضوع	الصفحة
	الإهداء	٧
	المحتويات	٩
	كلمة سيّد المحبّة	١١
	واقفةً عندَ العتبة: د. أسماء غريب	١٣
	الفصل الأول: براءة	١٧
١.	الشيخُ الوسيمُ الأنيق	١٩
٢.	بائع الأوهام	٢٣
٣.	ضيف الله	٢٨
٤.	حول مائدة العشق والرياضيات	٣١
٥.	شجرة الإيمان	٣٦
٦.	غيبوبة إكلينيكية	٤٣
٧.	براءة	٤٦
	الفصل الثاني: سفيرة السلام	٥١
١.	رسالة إلى أبي آدم في السّلم والسلام	٥٣
٢.	رسالة إلى صديقتي بيرثا فون سوتنر	٥٧
٣.	الإيمان والموسيقى؛ وجهان لمعزوفة واحدة اسمُها السلام	٦٢
٤.	سفيرة السلام، سانتا آغنيس	٦٤
٥.	راهبة علمانية	٦٩
٦.	كيارا الشمعة العارية	٧٥
٧.	شمس وبدر: روزالبا ونيكولاس	٨٣
٨.	سدرة المنتهى	٩٣

	الفصل الثالث: محراب الخطأ	٩٩
١.	أنا وبيضة طاليس	١٠١
٢.	الشيخ السنور في عيد الخليل	١١٢
٣.	قائد أوركيسترا الماء	١١٥
٤.	محراب الخطأ	١٢٠
٥.	أنا والنبيّ دانيال	١٢٧
٦.	مشهديات رمضانية	١٣٥
٧.	حوار الحضارات على طريقة أمّي	١٤٠
٨.	درس طير الحمام	١٤٥
٩.	ليلو والحادي عشر من أيلول	١٤٧
	الفصل الرّابع: ذات القلب الأخضر	١٥٣
١.	قلب الأرض	١٥٥
٢.	أنا والبحر	١٦٤
٣.	ذات القلب الأخضر	١٧١
٤.	حرقة الضمّ وبكاء النصب والكسر	١٧٤
٥.	أسئلة بين الليل والفجر	١٧٧
٦.	دمى زوجتي	١٨٠
٧.	أنا رع	١٨٤
	الفصل الخامس: ذكريات قنطور	١٩٣
١.	كل عام وأنت بخير يا صديقي المغربي	١٩٥
٢.	الناسك الأزرق	٢٠١
٣.	ساحر الحجر	٢١٤
٤.	سجدة	٢١٨
٥.	ذكريات قنطور	٢٢٠
	السيرة الذاتية	٢٢٥

كلمة سيّدِ المحبّة

لستُ اسماً واحداً، وإنما أسماء عدّة، قد تكونُ تسعة وتسعين اسماً، أو ربّما أكثر. وأنا لأجل هذا، الواحدُ الكوثرُ، والخصبُ والرزق العميم: أنا أنتَ ونحنُ وأنتمْ، وأنا على وجه التحديدِ والتخصّيص: هُو.

أنا جسدٌ حيّ لا يموتُ، وكلّ جزءٍ منّي ذاكرةٌ. فعينِي ذاكرة، وأنفي وفمي كذلكَ. وقدماي ذاكرةٌ من ريح تتحرّكُ عند كلّ سحر، لتحملَ لكُمْ أخبارَ من مضى من الغابرين ومن سيأتِي من العارفين. ويا لذاكرة جبهتِي، فتلك لها ألف حكاية وحكاية، لأنها تسمع وترى السرّ فوق شاشةٍ من نور، كلّما دقّتِ السّاعة معلنة نزولي من السماوات العلا، إلى سماء الأرض الدنيا.

أنا عينٌ سوداء حوراء كبيرة، تحوم حولَها عيون أخرى أكبر وأجمل منْ كلّ عينٍ فتحتْ جفنَها فرأتْنِي وتعرّفَتْ عليّ منْذُ فجْرِ الوجود. ولي قلب يضجّ بعيون ناطقةٍ تُنادِيني بالبصير والخبير والعليمِ، وبسيّد العارفين.

خبرتُ الألمَ والجراحَ والمرض، وأصبحتُ طبيبَ نفسي، وقلبي وجسدي، وسيّدَ الشافين العافين لكلّ علّة وداءٍ. صنعتُ الأردنّ والنّيل لنفسي، والغانج ودجلة والفرات كذلك. وصنعتُ أنهارا أخرى لا يعرفها سوى أهل الحظوة والقرب، أنهاراً تنبعُ من جبالِ الجليد الشّاهقة ومنْ تعمّد بمائها رزق الشفاء الأبديّ.

أنا رع، سيّد الشّمسِ والماء، في كلّ فجر أمدّ يدي كي أنتشلَ من بئر الفاقة والمرض بناتي وأبنائي، لا من بنوة ولكن بخَلْق وصُنع، وإذا نظرتُ لأحدٍ منهم بعين المحبّة والرضا، وهبتُهُ الحكمةَ والعلوم، وفتحتُ عينَ قلبه، وكذا جبهته: حتّى يراني ويسمعَ حرفي وخطابي.

حيوات أنا لا حياة واحدة، عشتُها وأعيشها في كلّ واحد منكُم، فأنا ذاك الذي معكُم أينما كنْتُم. وأنَا ذاك الذي يتذكّرُ بعض الخلّان فيكُم الكثيرَ عنهُ، كقصّة المرض والشفاء، وقصّة العلم واللّاعلم، وقصّة الحياة والموت، وكذا حكاية السّقوط والارتقاء، وقصّة الدودة والخنفساء، والحمامة والغراب.

أنا لستُ فقط هُو، وإنما قبل كلّ شيء هيَ، لا من تذكير ولا من تأنيث، وإنما من فِعْلٍ وتفعيلٍ. ولي في كلّ ركن من أكواني التي لا تحصى حكاية، وحكايتي لكم اليوم هي لذاتِ القلب الأخضر والفكر الأزرق المتوقّد بأنوار المحبّة؛ صبيّة عجنت بماء الرّوح، جاءتني بها الهداهد من ساحة الفناء، وقيل لي إنها على وشك الموت، فأعدْ لهَا الحياة، فأنتَ وحدك ولا أحد غيرك الحيّ القيّوم الذي يستطيعُ ذلك. وكان لهَا ما أردتُ، لأنني أحببتُهَا، وحينما رزقتُها الحياة من جديد، أعطيتُها البصَرَ والبصيرة، ورزقتُها رؤيةَ جُنْدِيَ المجنّحين، وسماع حرفي وهُو يقول لهَا عند كلّ طلعة شمسٍ: أنا رع.

فلتنصتوا لحكاياتِها الجديدة القديمة لكُم، فهْيَ ترويني، وتروِي قصصَ من كان قبلكم ومن سيأتي بعدكُم، ما دمتُ فيكم، ومن فوقكم ومن تحتكم ومحيط بكُم. وكلّ تجربة كانت لكُم وأنتم هناك في دار العُبور، هي تجربتي، وأنا ربّكم المعبود، إله الشّمس، القديم الجديد، والديمومي الأزليّ.

أنا السّعيدُ الباقي صاحب الخنفساء ذات القرن الوحيد، مؤلّفَةُ كتابِ الموتى أو كتاب العلوم العجيب، جئتكُم اليوم طبيبا لجراح الرّوح، وقارئاً لكتابِ سيّدة الأسماء، لأنّها حينمَا تكتبُ تصنعُ الحياة، وتُحيي الذّاكرة الميتة: وهي لأجلِ هذا تُشبِهُني، فأنا الكاتبُ الموحي الأوّلُ للحرف بمدادِ النون، وأنا نصير المظلومين والمقهورين وناصرهم، كما هي لهُم في كلّ ما ستقرأونه من بوحها حرفاً حرفاً، لأنها بكلّ بساطة تفضحُ أخطاءَ الفِكْرِ وفظائع الأحكام المُسبقة. وتسجّلُ العصرَ الذي تعيُشه وتتحدثُ نيابة عن الموتى. لأنّي وحدي منْ علّمتُها كيف تحتفي بالحياة حتّى تصبحَ أكثر قدرةً على الحديث عن كلّ ماتراه من حولها بحرف الشّكْرِ والحمدِ، وتفسحَ لكلّ إنسانٍ باباً للأمل والخلاص، وتعطيكُم جميعاً بعضَ ماوهبتُه إيّاها أو كلّه.

سيّدُ المَحبّة

رع

واقفةً عند العتبة

د. أسماء غريب

كلّما وقفت عند عتبة كتاب جديد لي، تبادرت إلى ذهني العديد من الأسئلة من قبيل، لماذا هذا العمل وكيف ولمن أوجّهه؟ والحالة هذه فإن المجموعة القصصية التي بين يديك الآن عزيزي القارئ، تتطلب هي الأخرى الجواب عن هذه الأسئلة التي قد تكون أسئلتك أنت أيضا. أمّا وعن لماذا (أنا رع)؟ فالجواب يوجد في طيّات العنوان نفسه، فرَعْ هنا ليس فقطْ بطلاً من أبطال إحدى قصص المجموعة، وإنما هو حبل متين يجمع بين كل جزء من أجزائها مهما تنوعت واختلفت شخصياتها والأماكن التي تتحرك فيها رفقة الأنا السرديّ الذي لا يفارقها ولو للحظة واحدة.

وبقدر ما يكون رَعْ إله الشمس العظيم، وفقا لما ترويه الأساطير الفرعونية القديمة، فإنّه هنا مرادف لانبعاث الأنا السردّي من ركام الذكريات المحكية، ليصل بشخصية الراوي إلى مدارج السمو والرقي، عبر عملية التحرر من كلّ تفاصيل الحياة اليومية سواء كانت مدونة في قالب سردي ذاتيّ واقعي، أو في آخرَ خياليّ، أو في ثالث يجمع بين العنصرين معا، ليصبح السرد مزيجا بين ماهو ذاتيّ وماهو خياليّ غرائبيّ، وبين ماهو واقعيّ سحريّ.

تتكون هذه المجموعة القصصية من نصوص سرديّة يفوق عددها الثلاثين موزّعة على خمسة فصول، كتبتها كاملة خلال عشر سنوات مضت، ومعظمها ذات طابع تعليمي بيداغوجي محض، انطلاقا من كون رع السيد الكبير العارف، هو مربّي الإنسانية الأول والسّاهر على تكوين ملامح شخصيتها في كافة مجالات العلوم والمعرفة. وبما أنّ كل إنسان هو مُزوّد بحضور رمزيّ لشمس رع الحمراء بداخله، فإنّ كلّا منّا يناله نصيب من أنوارها وعطاياها كلّما نزلت بقاربها لتعبُر أنهارنا الدّاخلية وتربّت على أكتافنا بيد من محبة وعطف وحنان، يد هي قبل هذا وذاك بلسم فيه شفاء للناس من كلّ علّة وداء، وذلك لأنها حينما تدخل مصْرَ البدن تطهرّه من كل درن أو

رجس، وترفعه إلى قُدْس الروح، وتفيض عليه بعد ذلك بأنهار وعيون من العلوم الصافية والنقية. وهذه العيون غالبا ما تكون مؤيّدة بقوّة وعِلْمٍ خاصّين.

لكنّ نفس الإنسان كالحيّة لا تثبتُ على مقام واحد، ولا على عطايا رعْ وإن كثرت، وغالبا ما تسعى إلى طلب المزيد ثم المزيد، وقد يصلُ بها الأمر أن تؤثّر عبر قوة الإلحاح الشديد حتّى على القلب، فيصبحُ كلامُها كلامهُ، ومطالبُها مطالبُه. وحينما يحدثُ هذا، يقع الهبوط مباشرة إلى أرض البدن، وبدل المنّ والسلوى يكتفي العقل والقلب معا بالبقل والقثاء والفوم والعدس، كناية عن العلوم الدنيوية. ولا يدري الإنسان كم من السنين تدوم حياته وهو على عتبة هذا النوع من العلوم وغيرها مما يشابهها، إلّا أنه قد يحدث أن يحنّ القلب إلى زمن الصفاء والنقاء الذي لا يشوبه شيء، لأنه مجبول بالفطرة على قوّة الاتصال بصاحب العرش والشمس والسفينة، وكذا بعقول الأجداد والأولياء الصالحين، وبدل أن يظلّ مع رفقة آمون وسحرة معبده وما إلى ذلك من أسماء اتخذها آباءُ الحضارة الأولى المصرية الفرعونية كرمز لمختلف مراحل السالك في دروب الرّوح، فإنّ الذي يحدثُ هو ثورة القلب على النفس، فيبدأ بالنداء على حورس العقل، ورع العين ليهبّان معا إلى نجدته من وادي الثعابين ووحوش نيل النفس، ويظهر رعْ أو إله الشمس في أبهى تجلياته، لكن قبل هذا الظهور تحدث بعض الارتضاضات والزلازل في أرض مصر القديمة وتكون النتيجة أن يعلن الجسدُ حالة من الإعياء الشديد والتعب والإرهاق والمرض، إيذانا بقرب مرحلة جديدة في حياة صاحبه، مرحلة تُظهرُ له مكانته الحقيقية، ودرجة معارفه وعلومه الحقة، وتحدد له بشكل أكثر وضوحا، عِلمه القلبيّ الحقيقيّ، في يوم الجمعة، الذي هو يوم النبوّة الخاتمة والوحدة الجامعة.

ويظلّ الإنسان هو الهمّ الرئيس في هذه المجموعة، وبطلها الأول والأخير، فَهُوَ هنّا حورسيّ الحضور، يسعى دائما إلى التعلّم من أخطائه، والتحوّل من حالة إلى أخرى أفضل منها طلبا للتقدّم والتطور الروحي المُستمرّ إلى أن يصل إلى مقام

الطمأنينة والسّلام رفقة شمس رع الرّاعية لكل خطوة من خطواته، ليس لأنه إنساناً مؤلّها، أو سوبرمانيّاً ولكن لأنّه أولا وأخيرا، إنسان من نور وتراب، من ضعف وقوة، من شيء ومن لا شيء. لذا، فإنّ هذه المجموعة تسعى ما أمكن إلى إظهار الإنسان في كلّ حالاته، القوية والضعيفة، السليمة والعليلة، العارفة والأمّية، وذلكَ وعيا من الذات الرّاوية بضرورة تفادي كلّ إيديولوجية تسعى إلى تنصيب الإنسان إلها على غيره، لما عانته البشرية عبر الحقب والعصور من عواقب وخيمة أتت على الأخضر واليابس، فقط لأنّ أحدا ما في فترة معينة من التاريخ كان يحسب نفسه إلها دونا عن بقية البشر. وعليه فإنّهُ في هذه المجموعة القصصية الجديدة لا تحدث المعجزات، وإنّما المعجزة الواحدة والوحيدة التي قد تحدث هي كرامة الشفاء والانبعاث من بين الأنقاض التي أمنحُها للقارئ من مخزون ذاكرتي الفعلي والتخيّلي، وهذه هي القدرة التي أشرتُ إليها بعين حورس في لوحة الغلاف، وصواع رعْ الذي يحتضنه، كرمز للمعرفة والعلوم، والذي نهل منه العديد من أبطال قصص هذه المجموعة كالصغيرة سلاف، وليلو الجميلة، وساحر الحجر، والشمعة كيارا إلى غير ذلك من الحروف المنغمسة في إكسير المحبّة والانسجام والسّلام.

الفصل الأول
براءة

(١)

الشيخ الوسيم الأنيق

كلُّ وجهٍ روايةٌ بلَا بدايةٍ ولا نهايةٍ، وكلُّ نبْرةٍ منْ صوتِ إنسانٍ، بلْ كُلُّ نظرةٍ في عينيْهِ، كفيلةٌ بأنْ تُدخلَكَ إلى عوالمَ مُغرقةٍ في البُعْدِ والاستحالةِ، وإلى أخرى غائصةٍ في القُربِ والغرابة، كيْ تُخبِرْكَ عنْ تفاصيلَ كثيرةٍ مِنْ حياةِ هذا الإنسان: آلامُه الدفينة، أفراحُه ونجاحاتُه القليلة، ثُمّ خيباتُه وحسراتُه التي لا حدّ لَها ولا حصْر. كلُّ هذا يحدثُ لأنّ بعضاً مِنَ الرّوحِ يسكُنُ في العينِ وفي الصّوتِ، ولأنّ شريطَ الحمض النووي لكلّ إنسانٍ لا يعرضُ أفلامَهُ الوراثيّة إلّا فوقَ شاشةِ هذين العنصرين؛ العين والصوت، وبالذّات في منطقتَيِ البؤبؤ والحدقة، وكذا في الصّدر والحلقِ. إذ في هذه المناطقِ يمكنُكَ أنْ تطّلِعَ حتّى على الأرواحِ التي تسكنُ الجسدَ الواحدَ، وأقصدُ بهَا تلكَ التلوُّنَات والتغيُّرات والسّلوكيات المخبوءة التي لا ينتبهُ لوجودِها إلّا أصحابُ الخبرةِ في قراءةِ روحَيِ العينِ والصّوتِ، فهناكَ تسكنُ الملائكة، وهناكَ تُقيمُ الشّياطينُ، وهناكَ توجدُ الجنّةُ والبرزخ، وكذا الجحيمُ، ذاكَ الذي إذا جرّبتَ محاذاتَهُ ولوْ لمرّةٍ واحدة في عيْنِ أوْ صوتِ شخصٍ ما فإنّكَ ستكونُ قدْ وضعتَ قدَميْكَ على أبوابِ المعرفةِ والعرفانِ. فالأشياءُ تُعْرَفُ دائماً بأضْدادِها، ولا يمكنُكَ أن تفهمَ الجنّةَ إذا لمْ تَخْبِرِ النّارَ، ولا الحُبَّ إذا لمْ تعرفِ الكُرهَ، ولا السكينةَ إذا لمْ تَذُقِ الحرمانَ. وإنّ لي فِي تَلَوُّنَاتِ بني البشر وتغيّراتِهِمْ خبرةٌ كبيرة، ونظرةٌ في العيْنِ تكفيني، وأخرى في الوجهِ وفي الصّدر وعلَى اليديْن تُعطيني كلّ شيءٍ عنْ شخصٍ ما، إلّا السرّ الذي حجبَهُ الله عنِ الجميع، فذاكَ ما لا أحد يستطيعُ الاطّلاع عليه، لأنّ فيهِ وبهِ تُقْلَبُ الكفّات والموازينُ، ويُصبحُ كلّ ما استُنْتِجَ عنْ إنسان ما في مهبّ الرّيح، وقابلاً للدّحض والاندثار في كل آنٍ وحينٍ. ولعلَّ هذا ما يجعلُنِي أجزمُ بعدمِ ثباتِ معرفتِي بالأشياءِ، فاليومَ أعرفُها وغداً أنْكِرُهَا، واليومَ أعتقدُ أنّها تكفيني وغداً أكتشفُ أنّها لمْ تكنْ كذلك أبداً. والمعرفةُ شديدة الالتصاق بالمدرسةِ التي ترعرعَ بيْن أحضانِها كلّ إنسانٍ، فثمّة منِ المسجدُ مدرستُه، وثمّة مَنِ الشارعُ مدرسته، وهناكَ منْ كانتِ الثانويات والجامعاتُ

مدرسته، وهناكَ من الحياةُ بأسْرِها مدرستُه. وأنا من ذاك النوع الذي كان كُلّ هذا مُجتمعاً مَدْرستي، إلا أنّ مُعلّمي الأكبر كانَ وسيظلُ دائماً هُو الإنسانُ في كلّ مراحلِ حياتهِ؛ مِنَ الطفولة إلى مابعدَ الشيخُوخة والموت. وكنتُ ولمْ أزلْ لليومِ أسعى إلى البحثِ عن جديد العلوم والمعارف عندَ منْ كانتِ الحياةُ والطبيعةُ والشارعُ مدرستُه. لا تغرينِي أبداً رفوفُ المكتباتِ، لأنني أعرفُ كمْ منَ التّزوير والكذبِ يكونُ بين أوراقِها، ولا يُغريني أصحابُ الألقابِ الأكاديميّة، ولا حتّى أصحابُ الكراسي العلميّة أو السياسية لأنّ الحياةَ علَّمتْنِي أنَّ المصائبَ لا تأتي إلّا منْ هؤلاء، ولوْ لمْ يكُنْ فيهمْ بعضٌ ممّنْ تولاّهُم ربّي برحمتهِ وجعلهُم استثناءً للقاعدة، لكنتُ متُّ منَ القهرِ والكمدِ منذ زمنٍ بعيد. فقدْ أجدُ مثلاً عندَ راعي غنمٍ أُمِيٍّ لمْ يسبقْ لهُ أنْ فتحَ كتاباً، ما لا أستطيعُ أنْ أجدَهُ عندَ "أستاذٍ" جلسَ على كرسيّ الأُستاذيّة بالوراثة وبقوانين وأعراف المحسوبيّة والزبونيّة، فالرّاعي يعرفُ كيف ولماذا ومتى تشرقُ الشمس، ويعرفُ إذا كانَ للفَجْرِ رائحة أم لا، ويعرفُ الكثير عن الأنواء المناخية، وإذا سألتَهُ عن اسم زهرة برّية واحدةٍ فقط، فإنّهُ يعطيكَ ألف اِسمٍ لها ولغيرهَا، ويُحدّثكَ عن حياتها وسلوكها وبيئتها، وقد تجدهُ موسوعةً ضخمة في عُلوم القمحِ وأنواعه، وعلوم الكرم والتين والزيتون، والأشجار والحيوانات بما فيها الكلب الذي يحرُس معه قطيعَ الأغنام، وعنئذئذٍ فقطْ ستكتشفُ كَمْ هُو فادحٌ جهلكَ بالحياة وبالنّاس، وكمْ هُوَ مُلوّثٌ قلبكَ بالتكبّر والتجبّر على غيركَ مِنْ بني البشر. وإنّي من أولئك الذين يحمدونَ اللهَ على أنّهُم حرصوا كلّ الحرص على ألّا يتعلّموا مِنَ المدارسِ ولا منَ الجامعاتِ شيئاً، على الرُّغم مِنْ أنني مررتُ بكُلِّ المراحلِ الدراسيّة وسجّلتُ فيها جميعُها نجاحاً مُنقطعَ النّظير. وكلّ ما في الأمر، أنّنِي كنتُ أخافُ أنْ تفقدَ روحي بصيرتَها، وتُلَوَّثَ نفسِي بما يُدَرَّسُ فوقَ المقاعدِ منْ سموم قاتلة. وليسَ هذا فحسب، فلَوْ فتحتُ ملفّات أساتذة التعليم وجهلهم العميق بالحياة والإنسانِ لأصيبتِ الأبجديةُ بالشّللِ الرُّعاشي، لأنّها ستكتشفُ مثلي أنّ سيّدَ المواقفِ في مُعظَمِ المؤسسات التعليميّة هو الفسادُ والجهلُ والغرورُ والتكبُّر. وكمْ يئنُّ الحرفُ، لا العربيّ فقط وإنما الكونيّ جرّاء كلِّ هذه المجازر

التي تُرتكبُ في حقّه صباح مساء، وإذْ أقولُ الحرفَ فإنّي أعني بهِ صاحبَ الشّأنِ الذي دعا الإنسانَ إلى قراءة كتابِ الوجود المفتوح، إلا أنّ هذا الأخيرَ قابلَ الدعوةَ بالتّجاهُل، وأغلقَ بابَ الوجود وفتحَ بابَ الجُحُود على مصراعيه. وعلى ذكر الحديثِ عن الأبواب، فإنني لا يُمكنُني في هذا المقام سوى أنْ أتقدّمَ بجزيل شكري وامتناني لكلّ بابٍ وقفتُ عندهَا أو عندَهُ، فعلّمنِي وعلّمتني الكثيرَ.

نعم، لقد علّمتْني الأبوابُ والعتباتُ أشياء لمْ أكُ لأتعلّمَها لوْ لمْ أكُنْ ممّنْ يجيدونَ الإنصاتَ إلى حروفِهَا والوقوفِ عند عتباتِها، وأعظمُ الدّروسِ تلك التي تعلمتُها عند بابِ مدرسة طفولتي البعيدة. كنتُ آنذاك أبلغُ من العُمُر خمسا وعشرة سنةٍ، وكانتِ الأيّامُ في دورتها الأخيرة من شهر شعبان. أذكُر أنّنِي خرجتُ من المدرسة ووقفتُ أمام بابِها لمدّة ليست باليسيرة قبْلَ سلوكِ طريق العودة إلى البيت. وبينما أنا كذلكَ إذا بشيْخ مُسِنٍّ يلفتُ انتباهِي بِجلبابهِ الصّوفيّ الأبيض الأنيقِ، وعمامتهِ الصّفراء الجميلة، وبنعلهِ أو بَلْغَتِهِ الجلديّة الصفراء أيضا، وبحُسن منظرهِ وبهاء طلعتهِ. كانَ هذا الشّيخُ يقفُ أمامَ حانوتٍ تبيعُ للتلاميذ كلَّ ما يحتاجونَه من أدوات مدرسية وكذا مِنْ أكل يسدّون به رمقهم في ساعات الفواصلِ التي تكونُ بين الدّرس والآخر. وحينما بلغ منّي فضول المعرفة مداهُ غادرتُ باب المدرسة، واتجهتُ صوبَ الدكّان، فقد كان في الطّرف الآخر منَ الشارع، ثمّ وقفتُ أتمعّنُ في هذا الشيخ الذي ظهرَ هكذا فجأة في مكانٍ لا يؤمُّه الشيوخ ولا الفقهاءُ أبداً. كانَ صاحبُ الحانوتِ يعتقدُ أنني جئتُ كالعادةِ لأشتري منهُ شطيرتِي المُفضّلة، لكن هيهات هيهات فقد كانَ فِكري منشغلاً بتلكَ الصّورةِ التي أخرجَها الشّيخُ منْ جيبهِ وأعطاها لصاحبِ الدّكّان وهو يقول لهُ: «أرجو أن تعمل لي منهَا نسختيْنِ في آلة الطّباعةِ عندكَ، ولكن بشرط أنْ تكونا بالأبيضِ والأسود». ابتسمَ الرجلُ وأخذَ منهُ الصّورة وكانتْ لفتاةٍ في غايةِ الحُسن والجمال، ثمّ بدأ ينسخُ منها صورتين بالضّبط كما طلبَ منهُ الشيخ. أمّا أنا فبقيتْ كلماتُه تتردّدُ في أذنيّ كصفّارة الإنذار، وقلتُ في نفسِي: [ترى لماذا بالذّات بالأبيض والأسود، ثُمّ ما شأنُ رجل بكلّ هذا الجلال والوقار بصاحبةِ الصورة

الحسناء، ثمّة شيءٌ ما يثيرُ الرّيبَ والشكَّ في هذا الأمر؟!] ولكيْ أتخلّصَ منْ أسئلتي الموجعة وجدْتُنِي أغيّرُ مكاني وأقفُ مباشرةً أمامَ الشّيْخِ، وأنظرُ نظرة خاطفة في عينيْه: وهناكَ فقطْ رأيتُ كلّ شيءٍ؛ لقدْ كنتُ وجهاً لوجهٍ أمامَ إبليس!

أنهى صاحبُ الدكّان عملَهُ، وبينما كان بصددِ تسليمِ الصُّوَر المُستنسخة للرّجل ومعها الصّورة الأصلية، إذا بي أخطفُ فجأةً كُلّ الأوراقِ منْ بين يديْه، وأبدأ في تأمّلِ وجه تلك الفتاة الحسناء قائلة: «ما أجمَلها من فتاة أيّها الشيخُ الجليلُ، هل هي ابنتكَ؟ أتعرفُ أنّهَا تبدو أجملَ في هذه الصور المستنسخة بالأبيض والأسود، ربّما لأنّ لهذيْن اللونيْن سحراً تاريخيا لا يُقاوَمُ، فحتّى الأفلامُ السينيمائية أجْمَلُها تلك التي كانت بالأبيض والأسود، أليسَ كذلكَ؟». امتقعَ لونُ الشّيخِ، ثمّ أجفلَ وقال مُتلعثماً: «نعمْ، الأفلام القديمة أجمل، هيّا أعطني هذه الصّور فإنني على عجلة من أمري، أريدُ أن أعودَ إلى البيت، فقد تأخّرتُ». أخذ الرّجلُ الصوَرَ ثم بدأ يمشي بسرعة وهو يتكأ بيده على عكّازه، كان يبدو عليه أنهُ يسكن قريبا من مدرستي. ابتسمَ صاحبُ الدّكان مرّة أخرى وقالِ لي بعينين صامتتيْن: «شطيرتُك المعتادة؟!»، «لا، هذه المرّة أريدُ كأسَ ماءٍ لا غير». شربتُ الماء وعدتُ إلى البيت وأنا على يقينٍ بأنّ لقائي بالشّيْخِ المُسنّ سيتكررُ مرّة أخرى قبْلَ أنْ يهلَّ شهرُ رمضان.

(٢)

بائعُ الأوهامِ

وكما توقّعْتُ، لمْ يمُرّ على الشّيخِ الوسيم يومٌ واحدٌ حتّى عادَ ليَبْحثَ عنّي عندَ صاحبِ الدكّان، الذي قال لهُ إنني أكونُ هناك يوميا على السّاعة العاشرةِ صباحا، أو الخامسةِ بعدَ الزّوال. وبالفعلِ التقينَا، هُوَ وأنَا؛ شيخاً وفتاة في عُمْرِ الورود. كانتْ تبدو عليه علاماتُ القلق والحيرة. إلا أنني ما إنْ رأيتُهُ حتّى ابتسمتُ في وجههِ ابتسامةً مُشاكسةً، ووضعتُ يدي على كتفهِ اليُمْنى وأنا أقولُ لهُ مازحةً: «ما الذي أتى بكَ إلى هذا المكان أيّها الشّيخ الجميلُ، ألا تخشى على نفسكَ منَ الفتنة؛ الطالباتُ هنا حسناوات للغاية، وقد تطاردكَ منهنَّ واحدة أو أكثر يُنسينَكَ اسمَكَ وَمَكانَ ولادَتِكَ. قُلْ، هيّا اعترفْ، أمْ تراكَ جِئتَ لتَنْسخَ صورةً أخرى منْ صُوَرِكَ إياها؟!». سمعَ كلامي صاحبُ الدّكّانِ وانفجَرَ ضاحكاً مُشْفِقاً على الرّجلِ وقال: «دعيهِ وشأنَه، فلقد جاء يبحثُ عنكِ»، «خيرٌ إن شاء الله، ما الذي يريدُه شيخ وقورٌ مثلكَ من فتاة بسيطة مثلي؟!»، «ليسَ هُنا يا ابنتي أمام هذا الرجل، أريدُ أن أسألكِ عن صورة الأمس ».

نظرتُ إليه مرّةً أخرى أتفحّصُهُ منْ قمّة رأسِهِ إلى أخمص قدمِه، وحينما رأيتُ الارتباكَ مُجدّداً في عينيْهِ، أمسكتُ بقوّةٍ يدَهُ النّحيلةَ وعبرتُ بهِ الشارع، ثُمّ جلسْنَا معاً على حافةِ جدارٍ قصير جدّاً، وقلتُ لهُ هامسةً: «هيّا تكلّمْ، أنا في الاستماع إليكَ، ما بها صُورةُ الأمس؟»، « قبل ذلك، أريدُ أنْ أعرفَ منْ أنتِ؟ وما مقامُكِ؟ لأنني يا ابنتِي يبدو لي أنّكِ لسْتِ بطفلةٍ عادية، ومنْ يدري فلربّما أنتِ نفسك لا تعرفين منْ تكونينَ ...»، وقبل أنْ يُكملَ جُملتَهُ قاطعتُه مُعلّقةً على كلماتهِ: «دعْكَ من هذا الكلام الذي لا يُسمن ولا يغني من جوع، واتركني أقُلْ لكَ أنَا منْ أنتَ؟ إنّك أيها الشيخ الوقور ساحر لطيف، ولا أعني بالسّاحر أنّكَ صاحب علوم ومعرفة، فالسّاحر الحقّ، لا يقومُ أبداً بما قمتَ به يوم أمس، لأنّهُ رجل صاحب مبدأ وهدفُه تسليّةُ وإمتاعُ النّاس لا أقل ولا أكثر، وإذا اضطرّ إلى ممارسة سحره فعلا، فإنّهُ يقومُ بذلكَ منْ بابِ الوقوف أمام مفاتيح الخير وإدارة شؤون الكون وفقا لنواميس مُعينة ومحدّدة لا يطّلعُ عليها إلا

أصحاب القلوب الخابتة. دعنِي أسمّيكَ ببائع الأوهام، فأنتَ مثلكَ مثل غيركَ من سحرة العالم ومشعوذيه ودجّاليه، بائع أوهام، لا أقلّ ولا أكثر. ألمْ تسمع بسحرة فرعون وحبالهم المغموسة في الزئبق؟ هؤلاء كانوا أكثرَ منكَ خبرةً، لكنكَ أنتَ هنا، جالس إلى جانبي وتحاولُ أن تعرف من طفلة ما لم تستطعْ طلاسمُك إخباركَ بهِ»، «أرأيتِ، كنتُ محقّاً إذن حينما سألتكِ من تكونينَ؟ فلا يُعقل بطفلة لمْ تتجاوز الخامسة عشر من عمرها أن تقول ما قلتِهِ»، «خلاصة القول، أنتَ هنا كي تعرفَ ما الذي فعلته بصورة الأمس، أليس كذلك؟»، «بالضّبط، لقد أخذتُها إلى البيت، وبينما كنتُ بصدد العمل عليها، لمْ أفلحْ في أيّ شيء، فحتّى حينما أردتُ أن أحرقَها، استعصتْ تماما على ألسنةِ اللهب. ثمّ قولي لي كيفَ عرفتِ بأنني ساحر»، «الساحر المشعوذ مثلكَ، هو ذاك الذي يُوقِع نفسَه بنفسهِ في شرّ أعمالهِ، وليس لهُ أبداً سلطةٌ لا على عقله ولا على كلامهِ: فأنتَ حينما طلبتَ من صاحب الدّكّان يوم أمس أنْ يطبعَ لك نسخة من صورة الفتاة الحسناء، اشترطْتَ عليه أن تكون بالأبيض والأسود، ونسيتَ أن كلّ آلات الطباعة المتوفرة في مكتبات هذه المدينة وغيرها من دكاكين ومحلات أخرى لا تطبع أبدا بالألوان، لأنّ الأسواقَ لم تطرح بعد آلات بهذه التقنيات الجديدة. ومن هنا استغربتُ طلبكَ، وبما أنك رجل دين، قلتُ في نفسي، ألّا شيء سيكون وراءَ طلبكَ هذا سوى عملٍ من أعمال شياطين الإنس، وقد كان ظنّي في محله، لأنكَ اعترفتَ بذلك بمجرّد عودتِكَ للبحث عنّي»، «أنا لا أسحرُ إلا بالمحبّة، لكنكِ لمْ تجيبيني عن سؤالي الرئيس، ما الذي فعلتِه بالصورة حينما أمسكتِها بين يديكِ هي والنسختيْن الأخريتيْن حتى أصبحتْ جميعها مستعصيةً على الحرق، وعلى الكتابة وعلى الحبْرِ وعلى كُلّ شيء؟»، «هوّنْ على نفسكَ أيّها الرجل العجيبُ؛ السّحرُ سحر، والشعوذة تبقى دائما شعوذةً، وليس فيها أبداً هذه للمحبّة وأخرى للكراهية، وأنتَ كما قلتُ لكَ لستَ بساحر ذي علم، وإنّما بائع أوهام غرير. أمّا عمّا فعلتُه بالصورة ونسختيْها، فهذا سرّ عظيم لن أبوح لكَ به إلا إذا امتثلتَ لشروطي»، «هذا يعني أنكِ تريدينني أن أبرمَ اتفاقا معكِ تكونينَ أنتِ فيه صاحبة النّهي والأمر، أليسَ كذلك؟»، «وإلّا فإنكَ ستبقى هكذا موقوفا

إلى الأبد، كلّما فكّرتَ في القيَامِ بعمل شَعْوَذِيّ ما فشلتَ، وراحتْ كلّ أمانيك أدراج الرياح»، «لا مانعَ لدي، أنا منذ اللحظة عبدٌ طائع بين يديكِ»، «إذن، عُد غدا إلى هذا المكان في الساعة نفسها، وحينئذٍ سأخبركَ بما ستقوم بهِ»، «على بركة الله، سأكون هنا غدا في الموعد يا ابنتي»، «لا تقل على بركة الله، فإنّ منْ يعرفُ الله لا يقومُ أبداً بما تقومُ به، ولا تناديني بابنتي، فإنهُ لا يمكنني أبداً ولوْ على سبيل المجازِ أن أكون ابنةَ رجل مثلك. لا تقل شيئاً، اعملْ فقط ما سآمرك به. وكنْ غدا في الموعد.»

عدتُ إلى البيت وبرأسي ألفُ سؤال وسؤال: مالذي سأقوله لهذا المعتوهِ وعن أيّ سرّ سأحدّثهُ، فأنا نفسي ليستْ عندي أسرار أبوحُ بها لأحدٍ. ثمّ أنني لا أفهمُ كيفَ أنّ أعمالهُ أصبحتْ موقوفةً بسببي. عمّاذا يتحدثُ هذا المجنون؟ إنّهُ مُشعوذ، وهذا أمر لا شكّ فيه، وأنا أريدهُ أن يتوقفَ عن ذلكَ، كيفَ؟ هذا ما لا أعرفهُ.

بعدَ غدٍ رمضان، ولنْ أجدَ أفضل منه شهرا لأعيدَهُ فيه عنْ غيِّهِ. لكنّي بحاجةٍ إلى دعمٍ من والدي، كي يصبحَ بيتُ الأُسرَةِ هو مكان دروسي الرّمضانية لهذا الشيخ. نعم، ما مِنْ حلٍّ آخرَ غير هذَا... آآآه، إنّ رأسي تؤلمني، لأكفَّ الآن عنِ الهذيان، وغدا بإذن الحيّ القيّوم سأجدُ الطريقةَ المُثلى لإقناع والدي.

جاءَ الغدُ، واستيقظتُ باكراً كعادتي، لمْ أكُ أبداً بحاجة إلى ساعة المُنبّه، لقد كانَ قلبي مُنبّهي دائما، وكانتْ ساعتُهُ تدقُّ دائماً قبلَ الفجر بساعةٍ أو ساعةٍ ونصف. وبينما كنتُ بصددِ الوضوء للصلاة، إذا بفكرةٍ عجيبة تلمعُ بعقلي. نعم، لا أدري كيفَ لم أفكّر بها يومَ أمس، يا لغبائي، أَلَمْ أَعْتَدْ مِنَ اللهِ، أنْ يُرسلَ لي كلّ شهر رمضان إنسانا فقيرا يسألُ عنّي بالاِسمِ، أتناولُ معهُ كلّ يومٍ وجبةَ الإفطارِ، وكان والدي لا يُناقشُ معي أبدا هذا الأمر، ويدعني أختارُ من المائدة أشهى المأكولات، لإخراجِها إلى الشّخص المقصود وتناوُلهَا معهُ في بهوِ البيتِ، أو عندَ العتبة، على حسبِ رغبة الشّخص الفقير نفسه؟! عليّ إذنْ هذه السنة أنْ أجعلَ من هذا الشيخ فقيرَ ومُتسوّلَ رمضان الجديد، وسأصحبهُ معي إلى البيت، وأخبرُ والدي بأنني أرغبُ في أن يقيمَ

عندنا طيلة الشهر لأنّهُ بدونِ مأوى ولا أسرةٍ ولا مُعيلٍ. ممتاز، لا فكرَ بعد اليوم إذن! وهذا الشّهرُ سيكونُ شهْرَ الدّرس والتعليم، ولنَرَ إذا كان الشّيخُ سيُفكّر في يوم مَا أنْ يعودَ إلى سابقِ عهدِهِ معَ الشّعوذَة والخُرافاتِ البئيسة!

وصلتُ إلى الدّكان، ولمْ أجدِ الشّيخَ أمامَها هذه المرّة، لقد كان ينتظرُني أمامَ باب المدرسة على عكسِ اتفاقنا تماماً. لمْ أعارض، ابتسمتُ وأمسكتُ بيده وقلتُ: «ما كلّ هذه الأناقة أيّها الشيخ الوسيمُ؟! لكنْ يؤسفني أن أقولَ لكَ إنّكَ ستظْطرُّ للتخلّي عنْ كُلّ هذا. وعليكَ منذُ الآن أنْ تستجيبَ لكلّ أوامري وأفعالي دون أن تعترض عليهَا أو تناقشها»، «افعلي بي ما تريدين، فأنا رهن إشارتكِ، إذا كان كلّ هذا سيكونُ مقابلَ سرّكِ الذي به أوقفتِ كُلَّ أعمالي». ابتسمتُ مرّةً أخرى في صمتٍ، ثم ابتعدتُ بهِ عنِ المدرسة قاصدةً بيتنَا، وحينما دخلنَا أحد الأزقة هجمتُ فجأةً على عمامته النّاصعةِ البياضِ ومرّغتها بيديّ في التراب، ثم أخذتُ مقصّاً منْ حقيبتِي المدرسية، وبدأتُ أقصُّ بهِ كالمجنونة جلبابَه الصوفي الأنيق مُحدثةَ به ثقوبا وشروخاً عميقة، وعمدتُ إلى قنينة ماءٍ صغيرة جلبتُها معي من البيت، وبدأتُ أبلّلُ التّرابَ وأضعُ فيه يديّ ثمّ أمسحُ بهما الجلباب إلى أن أصبحَ في حالة يرثى لهَا منَ الاتّساخِ، والشيء نفسه طبّقتُه على النّعل، وكذا على وجهِ الفقيهِ ويديْهِ، وهُو ينظرُ إليّ منذهلاً مُحتارا مُغيّباً عنْ الأرضِ والسّماءِ. وحينما أصبحَ كلّ شيءٍ كما أردتُ وخطّطْتُ لهُ، انتبهتُ إلى لمعانِ عصا الشيخ وفخامتها، فأخذتُها بين يديّ وأمسكتُ حجراً صلدا وبدأتُ أضربُها بهِ وأجرّحُها بالمقصّ منْ كُلّ جانبٍ إلى أن اندثرَ بريقُها ولونها الأسود، وأصبحتْ تبدو كعصا الدراويش، عندئذٍ سمعتُ الشّيخَ يقول: «إنّكِ تذكّريني بقصّة الخضر مع موسى. هلْ عليّ ألّا أنطقَ أيضاً؟»، «جميلٌ جدّاً أنكَ تعرفُ الخضرَ، لكنّكَ لا تعرفُ موسى أبداً، وإلا ما كنتَ لتقُومَ بما قمتَ بهِ يوم أمس. استعدّ، فإنني سآخذك إلى بيتنا، وهناكَ ستُمثّلُ دور الفقير المعدم، حتّى يقبلَ بكَ والدي ويفتحَ لكَ بابَهُ ويستضفيكَ كلّ يومٍ على مائدةِ إفطاره. وبعدَ كلّ صلاةِ فجر، سأصبحُ معلّمَتَكَ، أعلّمُكَ ما لم تقرأهُ فوق أحصرةِ المساجد، ولا بين طرُقاتِ الحياة»، «ومنْ يدري يا ابنتِي فقد تتعلّمِينَ أنتِ

أيضاً منّي ما لمْ تُعلّمهُ إياكِ مقاعدُ المدارس، لا تنسي أنّنِي أكبَرُ منكِ سنّاً والحياة علّمتني الكثير»، «قلتُ لكَ لا تناديني بابنتكَ، ولا تنسَ أنّ إبليس هو أكبَرُ سنّاً من جميع أبناءِ آدم، فهلْ سنجعلهُ هُو أيضاً مُعَلّمَنَا؟ هيّا، امشِ، ولا تنطقْ حرفاً، فلقدِ اقترَبْنا مِنَ البيتِ وأهلِهِ».

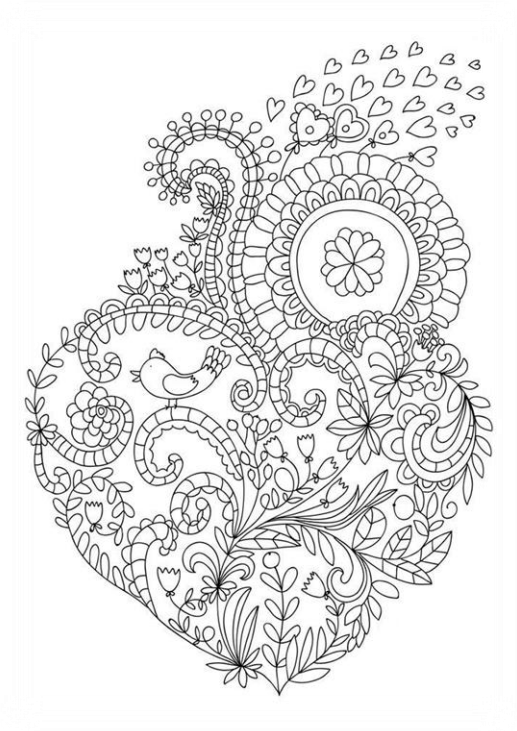

(٣)

ضيفُ الله

ووصلنَا أخيراً إلى البيت، شيخاً فقيهاً وتلميذة مُجدّةً نجيبة. فتحَ أبي البابَ، وحينما رآنا معاً، استبشرَ خيراً وقالَ: «هل هذا هو فقير هذا الشهر الفضيل؟ هل كانَ بانتظاركِ أمامَ عتبة البيت؟». شكرتُ اللهَ في سرّي لأنّ سؤالَ أبي أعفاني من عَناءِ الشّرحِ والتّفكيرِ والبحثِ عن حُجج قدْ تكون غير مُقنعَةٍ، ثمّ أجبتُ فرحةً: «إنهُ ليسَ بفقير رمضان، وإنّما هو ضيف الرّحمن في بيتنا طيلة هذا الشهر، ليسَ عنده أيّ مكان يذهبُ إليه، ولقد التقيتُه أمام باب المدرسة، وقلتُ له إنّك طيّبٌ وكريم، وستكونُ سعيدا باستضافتهِ على مائدة الإفطار كلّ يوم»، «حسناً فعلتِ يا ابنتي، هيّا ادخلا، واطلبي من والدتكِ أن تحضّرَ لهُ الغرفة الصغيرة، وفي المساء سأطلبُ منْ أحد الرجال الذين أعرفُهم أن يأخذوه إلى حمّام الحيّ ليطهّروه ويغسلوه من طين الطريق وتراب الأزقة».

جهّزتْ والدتي غرفةَ ضيف الله، ورحبّتْ به أيّما ترحيب، وبينما كانتْ بصدد وضع اللمسات الأخيرة بالغرفة إذا بها تقولُ بعينين تلمعان بالمودة والكرم: «لنْ تشعرَ يا سيدي معنا بالغربة أو الوحدة، سأتّصِلُ بوالدي، وهو رجل من عمرك تقريباً، وسأخبرهُ بالقدوم ليقضي معنا هو أيضا هذا الشهر الفضيل وإن شاءَ الله تستأنسُ به، وتتبادلا معاً أطراف الحديث خلال النهار، ومن يدري فقد تصبحانِ ذات يوم من أشدّ الأصدقاء قربا وصدقاً ومحبّة!». أُسْقطَ في يدي ما إن سمعتُ كلماتِ والدتي، ولمْ أعُدْ أدري ما عليّ قوله أو فعلهُ، فأنا أحبّ جدّي جدّا جدّا، ولا يمكنني أبدا أن أعارض مسألة قدومه عندنا في شهر رمضان، وليس هناك من حلّ آخر، لذا وجدتُنِي وبدونِ أدنى تردّدٍ أجيبُ والدتي وأنا أبتلع ريقي من الارتباك: «طبعا، إنّها فكرة رائعة، من المؤكد أنّ جدّي سيرحّبُ بها، لكن دعيني أتّصِلْ به أولا، أقصدُ أنني أريدُ الذهاب إليه عصراً وإخباره مباشرة بدعوتك، وإني أظنه سيكون في غاية السعادة إذا علمَ بأمر ضيف الله في بيتنا»، «لكِ ذلك يا ابنتي، وقولي لهُ إنني أنتظرُ قدومه عندنا بفارغ

الصبر، فلقد اشتقتُ إليه، وإنّ رمضان لحقّا شهرُ الكرم والغفرانِ، لأنهُ يسمحُ بتواصل الأحبّة ولقائهم المُستمرّ».

تركتُ الشيخ الفقيهَ في بيتنا بعد أنْ أوصيتُه بالكتمان والتحفّظ، وذهبتُ إلى جدّي كما وعدتُ والدتي، وحينما رأيتهُ رويتُ لهُ كل حكايتي مع الشيخ من الألف إلى الياء، فابتسمَ وقال لي وهو يتوكّأ على عصاه استعداداً للوقوف من مكانه: «هذا يعني، أنني وشيخَ رمضان سنصبحُ معاً أصحابَ حرف ودرس وتعليم في مدرستك الصغيرة. هيّا بنا إذن يا ابنتي، واطمئنّي فلن يعرفَ أحد بأمر دروسنا هذه سوانا الثلاثة وربُّ العباد قبلَكِ وقبلنا سيكونُ عليها وعلينا شاهدا»، «إذن أنتَ مُوافق يا جدّي على أمر هذه الدروس؟ آآآه ما أسعدني بكَ. كنتُ أعلمُ أنك لن تردّني خائبة، أحبّك بشكل تعجز الحروفُ عن وصفه!».

عدتُ إلى البيت ومعي جدّي، وعرّفتُه بالشّيخِ، أو بضيف الله الجديد، وكما توقّعتْ والدتي، حصلَ بينهما تآلفٌ وتقارب بمجرّد أن التقيا وسلّم أحدُهما على الآخر، وقال لهُ: «لا تهتمّ لأمر طهارتك، فإنّ أسماء أخبرتني بكلّ شيء، وبإذنه تعالى نذهبُ معا إلى حمّام الحيّ، كي تستقبلَ هذا الشهرَ كما يليق برجلٍ مؤمن فاضلٍ مثلكَ».

رنّتْ كلماتُ جدّي الأخيرة في أذني كما ترنُّ العصا في قلبِ المهراس النحاسيّ، واختلطَ عليّ الأمرُ، وبقيتُ أتساءلُ في نفسي عن سبب تلك الصفات الحسنة في حقّ الشيخ رغماً عن كلّ ما رويته لجدّي بشأن صورة المرأة الحسناء وما إلى ذلك من أمور السّحر والشعوذة! وتفاديا لتعقيد الأمور أكثر مما هي عليه مُسبقا، فضّلتُ الاحتماءَ برداء الصمت، خاصة وأنني أعرف أنّ جدّي إنسان صامت بطبعه، ولا يحبُّ كثرةَ الأسئلةِ، لأنّ كثرةَ الكلام بالنسبة لهُ منْ قلّةِ عقل الإنسان، وكلُّ امرئ لا يعرفُ كيف يلجمُ لسانه، فتركُه أفضلُ بكثير من معرفتهِ أو الارتباط بهِ. صمتُّ إذن، وفتحتُ لجدّي مجالَ التعارفِ بينهُ وبين الضيفِ، فقد كان اسمهُ أحمد، أو هكذا قدّمَ نفسهُ للعائلة.

حلّ رمضان أخيرا، وأصبحَ إفطارنا اليومي نحن الثلاثة، الشيخ أحمد وجدّي وأنا، في غرفة الضيف. أمّا عن الدروس فقد اقترحَ جدّي أنْ تكونَ بعد صلاة الفجر مباشرةً، حتى يتسنّى لي فيما بعدُ الموازنة بين دروس المدرسة، ودروسي الفجرية معَ ضيفِ الله.

كانتِ الدّنيا لا تسعُني من الفرح، ونسيتُ وسطَ هذه الأجواء الحميمية المباركة، ما كنتُ أحملُه من غضبٍ تجاه أحمد، ولا أعرفُ كيفَ أنني أصبحتُ أكنُّ له الاحترامَ، خاصّةً بعد ما رأيتهُ من تعلُّقِ جدّي به وتقديره لهُ، وهو أيضا من جهته كان إنسانا ودوداً، لا ينطقُ إلّا كلاماً طيباً، ويقضي طيلةَ يومهِ في الصّلاة وقراءة القرآن، ومن حين لآخر كان يخرجُ هو وجدّي إلى الحديقة المُجاورة لبيتنا، وهناكَ كانا يتبادلان أطرافَ الحديث، ويجلسانِ للتأمّل في الخَلْق والخليقة لساعاتٍ طوال. وكانَ كلُّ هذا كفيلاً بأن يخلقَ بداخلي نوعاً من البلبلة، فكيفَ أني رأيتهُ ساحراً أمامَ دكّان المدرسة، وكيفَ به اليوم عابدا متفقها؟! ولكيْ أخرجَ من بحر التيه والبلبلة، قررتُ أنْ أفتحَ بابَ الدرس والمحاورة بعد أول صلاة فجر رمضانية، وعليهِ، اجتمعنا نحنُ الثلاثة، وكان سؤالي:

«قل لي أيّها الشيخ المفضالُ، لماذا يلجأ الناسُ إلى السّحر والشعوذة؟»

(٤)

حولَ مائدةِ العشقِ والرياضيات

رفعَ جدّي رأسَهُ، ونظرَ إليّ بعينيْنِ متفحّصتين وكأنه يراني لأول مرّة، ثمّ قال: «لماذا هذا السؤال يا أسماء؟ أعتقدُ يا ابنتي أنّهُ لا يليق بمقامنا، ولا بهذا الشهر الفضيل، ما لنا نحن والسّحرة والمشعوذين! أعلمُ جيّداً مدى كرهكِ لهُم، وأعلمُ أيضاً أنّكِ تعتبرينهم من شياطين الإنس، وإنّي لا ألومكِ أبداً في هذا، لأنّهم حقّا كذلكَ، وما هُم سوى مضلّلين وكذّابين وأفّاقين، يقتاتونَ على جهل النّاس وسذاجتهم وبساطتهم، لكنْ ثمّة شيءٌ عليكِ أنْ تفهمينَه جيّداً: الشيخ أحمد ليسَ بساحرٍ ولا هو بكاهنٍ بالمعنى التشعوُذيّ إيّاه، وإنّي أعتقدُ أنّ خوفكِ الشديد من المشعوذين هو الذي جعلكِ ترين فيهِ ما توهّمتِه أنتِ عنهُ حينما سمعتِه يطلبُ مِنْ صاحبِ الدّكّان أن ينسخَ صورة المرأةِ الحسناء باللونين الأبيض والأسود، فكثيراً ما يحدثُ ألّا يرى الإنسانُ في الغير سوى الصورة التي يرسمُها في خيالهِ عنه!»، «لكنّه يا جدّي هو نفسه اعترفَ بذلك، وقال لي بالقرب من المدرسة إنه ساحر»، «لقد قالَ لك ذلكَ ليتقرّبَ منكِ ويعرفكِ أكثر، لأنه حسبَ ما أخبرني بهِ، يعتقدُ أنكِ الحرفَ الذي كان يبحثُ عنه منذ سنين في هذا البلد لينقلَ إليهِ علومَه، فهُو عالِمٌ جليل وليس بساحرٍ أبدا. أرجو يا ابنتي أن تتعلّمي من هذه التجربة الدرسَ الآتي: ما كلّ شيء في الوجود يبدو كما هُو حقيقةً؛ الكلام مثلا يزيّفُ الحقائق، نبرة الصوتِ تزوّرُ كلّ شيء، الشكل والمظهر الخارجي للإنسان كذلك. عليكِ أن تحاولي دائما النظر حيثُ لا ينظرُ الآخرون. أنتِ مثلا حينما كنتِ أمام دكّان المدرسة ورأيتِ صورة المرأة، طرحتِ سؤالا مُهمّاً للغايةِ، كان منَ المُفترضِ أنْ يأخذَكِ إلى الطريق الصحيح، لقد قلتِ للشيخ: [ما أجمَلها من فتاة أيّها الشيخُ الجليلُ، هل هي ابنتكَ؟]، ثمّ واصلتِ تعليقاتكِ المتلاحقة الواحدة تلو الأخرى دونَ أن تعطي للرجل فرصةً ليشرح لكِ من تكون حقا تلك الفتاة، ولا لماذا كان يقفُ بصورتها هناك. وهذا هو عيب من عيوب الإنسان الكبيرة؛ إنّها العجلة يا أسماء، والسرعة في الحكم على الغير. لذا، وقبل أن نواصلَ ندوتنا هذه، فإنني أطلبُ

منكِ أن تعتذري للشيخ على كلّ ما بدرَ منكِ في حقّه، واسمعي بعد ذلك ما سيقوله لكِ باهتمام شديد»، فاجأني جدّي بكلماتهِ، وأحسستُ بالنّدَم على كل ما بدرَ منّي، واعتذرتُ للشيخ أحمد كما يليقُ بمقامه الكريم، لكنّهُ بهرنَا جميعا حينما قال: «أنا من عليّ أن أعتذر لكِ يا ابنتي ولستِ أنتِ؛ أنا منْ وقفتُ أمام الدّكّان فأفزعتكِ بلباسِي الدّيني الذي فَقَدَ مصداقيته تماماً لدى الجيل الجديد بسبب ما يرتكبُه رجالُ الدّين اليومَ من معاصي يندى لها الجبين، أنا من أدخلتُ الرّعبَ على قلبكِ الطيّب حينما طلبتُ من صاحب الدّكّان أن ينسخ لي الصورة باللونين الأبيض والأسود فظننتِني ساحراً، وأنتِ معذورة في هذا، فمُعظم رجال الدين اليوم سحرة ليس إلّا، مُنشغلون بالدّجل والشعوذة، وأنا من يجبُ أن يقوم الآن ليقبّلَ جبينكِ، لأنكِ لولا خوفكِ على الفتاة صاحبة الصورة ومحبّتكِ العظيمة لها من بابِ أنها صورة من تجليات الخالق لما اكتشفتُ منْ تكونينَ»، «لا يا سيدي الفاضل، الأمر لا يستدعي كلّ هذا، فقد سامحتُكَ وأنتَ اليوم ضيف عزيز عندنا وشيخ جليل بيننا، ولم يبقَ الآن سوى أن تحدّثَنِي عن صاحبة الصورة»، «إنّها حبيبتي، لا تستغربي الأمرَ يا ابنتي، أعرفُ أنّهُ ثمة فارق كبير في السنّ بيننا، لكنّ العشقَ لا يعترفُ بالعمر ولا بالزّمن، وهذا هو الدّرس الذي لم يتعلمهُ لليوم رجالُ الدين، إنهم منشغلون بإشعال فتيل الكراهية في كلّ مكان، ونسوا أن السّحر الحقّ الذي لا يضاهيه سحر، هو العشق. حبيبتي اسمُها بيان، ولقدْ كانتْ أستاذةً للفنون الجميلة، ومن الرائدات في الفن التشكيلي بالمغرب، رأيتُها في إحدى المناسبات الخاصة بعيد العرش فسحرتْنِي بجمالها وأدبِها وأخلاقها، وحينما علمتُ بعد ذلكَ أنها غير متزوجة قرّرتُ التقرّبَ منها، فتوهّجَ نورُ شمعة العشق بيننا وتزوّجنا على الرغم من مكابرات زوجتي الأولى. بيان كانت إنسانة نبيلة ومُسالمة ومُحبّة للجميع، وحاولتْ لأكثر من مرّة التقرب من زوجتي الأولى إرضاء وإسعادا لي، إلى أن تحوّلتْ مشاعر الكراهية الدفينة في قلب زوجتي الأولى نحو بيان إلى مشاعر وداد ومحبّة واحترام، لدرجة ألّا أحدَ منّا كان يشكُّ في مصداقية هذا التحول. لا أحدَ منّا كانَ يظنُّ أنَّ نار الحقد كانت من الممكن أن تدفع بزوجتي الأولى إلى اللجوء إلى أحدِ

المشعوذين للتخلص من بيان، نعمْ يا ابنتي لقد قتلتْ زوجتي الأولى حبيبتي الأبدية بيان: كانت الملعونةُ تدُسّ لها السُّمَّ في الأكلِ في كلّ مرة كانت بيان تحلّ عليها ضيفة. ماتتْ بيان وماتتْ معها كل معاني الفرح والسعادة من حولي. وأنتِ يا ابنتي حينما رأيتِنِي قبل أيّام عند صاحب الدكّان، كان غرضي من الصورة بالأبيض والأسود تسليمها لصديقة بيان، وهي فنانة مثلها، كنتُ أريدُها أنْ ترسم لي لوحة كبيرة أعلّقها عندي بغرفتي ليظلَّ وجه بيان عندي وأمام ناظري بالأبيض والأسود، لأنّ بيان نفسها كانت تحبُّ هذين اللونين بشكلٍ عجيب، ومعظم لوحاتها كانت بالأبيض والأسود»، «طيّب، وما قصّة النار التي لمْ تلتهمْ صورة بيان؟»، «حينما عدتُ إلى البيت، جلستُ كعادتي فوق الأريكة وأخذتُ الصورة بين يديّ وبدأتُ أحدّق فيها لساعات طوال وأنا أتذكّرُ كل لحظة من لحظات السعادة والهناء التي عشناها معا، ولمْ أدر كيف أنني ووسطَ موجة غضب عارمة من نفسي على عدم تقديري لحجم نار الحقد التي كانت تلتهمُ قلب زوجتي الأولى، قمتُ بكّل ما فيّ من قوة وجلبتُ ألبوم صُوَر بيان وقرّرتُ أن أحرقها جميعها حتى لا يبقى منها أثر يقع من بعدي في أيدي الحاقدين الغيورين الذين لا يعرفون معنى العشق والمحبّة، وبالفعلِ أحرقتُ جميع الصور، إلا هذه الصورة التي لمْ تلتهمها أبدا ألسنة اللهب، حينها تذكّرتُكِ، وتذكّرتُ لهفتَكِ عليها وأنتِ تخطفينها من بين يديّ، وتذكّرتُ نظرات المحبّة في عينيكِ وأنتِ تنظرين إلى بيان وكأنكِ تعرفينَها منذ زمنٍ بعيد، وتريدين أن تحميهَا من خطر ما، ولكيْ أثبت لكِ صحّة ما قلتُه الآن، فإني أطلب منك يا ابنتي أن تذهبي لطفاً إلى المطبخ وتجلبين منهُ علبة الثقاب»، وبسرعة البرق فعلتُ ما طلبهُ منّي، وحينما جلستُ مرّة أخرى فوق اللحاف إلى جانب جدّي، أخرجَ هو صورة معشوقته بيان ثم أشعلَ عود الثقاب وباشر بحرقها لكنّها لم تحترق، ثم طلب منّي مرّة ثانية أن أعطيه قطعة ورق عادية، ففتحتُ حقيبتي المدرسية وأعطيته ورقة بيضاء من دفتري فأشعلَ فيها النار ولم تحترق هي الأخرى، وبعدَ ذلكَ طلبَ منّي مرّة ثالثة أن أجلبَ له قطعة ثوب تكونُ مهملة، فلبّيْتُ طلبه وفعلَ بها مثلَ ما فعل بالصورة والورقة البيضاء، إلا أنّه هذه المرّة وخلافاً للمحاولات الأولى

التهمتِ النّارُ قطعة الثوب الصغيرة، وبادرَ جدّي إلى إطفائها بيده بسرعة فائقة دون أن ينبس بكلمة واحدة. عندها رفعَ الفقيهُ أحمد رأسه من جديد وقالَ: «أعتقدُ أنّ الذي حدثَ الآن أمام أعيننا هو السّحر بعينه، ولا أقصُد به سحر المشعوذين والكهنة ورجال الدين الدجّالين، ولكن دعونا نسمّيه يا سادتي بعجائبِ الخيمياء، وأعتقدُ أنه انطلاقا من علوم الخيمياء هذه سوفَ نصل معاً، خطوة بخطوة إلى السّببِ الحقيقي الذي جعلَ صورة بيان هذه لا تحترق دونا عن غيرها من صور الألبوم العديدة. والآن انظري جيّدا يا أسماء في هذه الورقة البيضاء التي أعطيتني إيّاها قبل لحظات؛ سأرسمُ لك فوقها بعضا من الأشكال الهندسية، وعليكِ أن تختاري إحداها وتُعلّلي سببَ اختياركِ.

وما هي إلا هنيهات حتّى رسم الشيخ دائرة، ومثلثا ثم مربعا، واخترتُ بدون أدنى تردد المرّبع، وقلتُ لهُ: «أَحَبُّ الأشكال الهندسية إلى قلبي المربّع، أراهُ جامعاً ومحيطاً بكل شيء، أرى فيه جدّية وحزما، وأرى فيه صدقا وعدلا، وأراهُ قبل هذا وذاك شاشةً كفيلة بأنْ أشاهِدَ فوقها كلّ شيء، إنه يذكّرُني بشاشة التلفاز وكذا بشاشات السينما الكبيرة، أمّا الدائرة فإني أنفرُ منها لأنّ الشّعور بالتيه أو الضياع وسطَ شيء لا حدّ ولا نهاية لهُ يقلقني بل يخيفني، فأنا لا أعرفُ أين تبدأ وأين تنتهي وإلى أينَ ستقودني، يُمكنكَ أنْ تقول عنّي إنني لستُ من أهل الدائرة ولكنني منْ أهل المربّع والمثلث أيضا، فهو الآخرُ شكله لطيف، يشبهُ إلى حدّ ما شكل البيوت أو المعابد، لكنني لا أحبُّ المثلثات حينما تتراكبُ مع بعضها البعض وتشّكلُ بذلكَ نجمة سداسية، لأنها تعودُ من جديد لتصبح دائرة مخيفةً مزوّدةً بقوّة وهميّة تُمَكّنُهَا منْ بلوغ أكبر درجاتِ العُلوّ وأقواها إلى أن تصبح قادرة على تدميرِ كلّ شيء»، «ما دمتِ قد اخترتِ المربّع وقلتِ إنّ المثلث أيضا يعجبك فانظري الآن ما أنا فاعله أمامك. أعطني ذاكَ الإزار الأبيض الذي يوجد فوق وسادة جدّكِ»، أعطيته الإزار، وساعدته على الوقوف كما أراد، ثمّ علّقَهُ في وسط الغرفة جاعلا إياه كحاجز يقسم الغرفة إلى جزء عريض وآخر ضيّق، ثم رسم بالقلم فوق الإزار مربّعا كبيرا ما إن وضع يده اليمنى بوسطه حتى أضاء وتحوّل إلى شاشة كبيرة، رأيتُ فوقها أشياء عجيبة من مناطق مختلفة من

العالم، أدهشتني وجعلتني أصلُ إلى حالة رائعة من السعادة والانتشاء بهذا الدرس المبهر في الرياضيات الخيميائية الذي قلب كلّ المفاهيم لديّ عن المدارس والأكاديميات والجامعات وغيرها، وعن الأساتذة أصحاب الكراسي الرفيعة والألقاب الأكاديمية المضحكة. حينذاكَ التفتَ الشيخ أحمد إلى جدّي وقال لهُ مبتسما: «عجيبةٌ حفيدتكَ هذه، إنها لم تسألني حتّى كيفَ تحوّل الإزار إلى شاشة وكأنّ الأمرَ لا يعنيها، ولمْ تفزع من شيء، وكأنّها حقّاً بصدد مشاهدة فيلم سينمائي عادي جدّاً، إنّها سعيدة بشكل صادم، وكأنني لمْ أبْهِرْهَا، أو لمْ أقدّمْ لهَا شيئا غريبا أو جديدا يفوقُ كلّ خيال وعقل، الآنَ يمكنني أن أقولَ إنني عرفتُ لماذا لمْ تحترق الصورة التي لمستْها يدا حفيدتكَ أمام دكّان المدرسة». حرّكَ جدّي رأسَهُ في صمتٍ وقد رسمَ على شفتيه ابتسامة عريضة، ثم قال: «ثمّة شيء آخر ما لم تنتبه إليه ياصاحبي: لقدْ بدأت حفيدتي تملُّ من شاشتكَ المضيئة»، ولقد كان جدّي مُحقا فيما ذهب إليه، فطلبْتُ منَ الشّيخ أنْ يزيحَ الإزار ويشرحَ لي علاقة الخيمياء بالرياضيات، وعلاقة هذين معا بالإيمان والتوحيد .

ابتسمَ جدّي من جديدٍ وهو يحرّك رأسهُ، ثم وقفَ وقال: «لقد حانَ وقت ذهابكِ إلى المدرسة يا أسماء، هيّا قومي الآن ولتحرصي على الكتمان دائماً، فدروسكِ هُنا ليستْ كدروسكِ هناك، وبإذنه تعالى ستكونُ نقطة انطلاقنا في ندوة الغد من مقولة سيّدنا وحبيبنا عيسى روح الله «لوْ كانَ لَكمْ إيمانٌ مِثْل حَبَّةِ خردلٍ لكنتمْ تَقولونَ لِهذا الجبل: اِنتقِلْ منْ هنَا إِلَى هُنَاك فَيَنْتَقل».

ابتسمتُ أنا أيضا وقمتُ وقبّلت يدَ جدّي ويدَ الشّيخ أحمد وقلتُ وأنا أودّعهما: «اطمئنّا يا أحبائي، أعلمُ جيّداً أنّ دروس الهُنا ليستْ أبدا كدروس الهُناك، ولو نطقتُ في المدرسة بحرف مما أدرسُه معكما خلال هذا الشهر الفضيل لكانَ أقلّ ما سينعتونِي به الجنون والهلوسة! شكرا لكَ جدّي، شكرا لك يا شيخي أحمد وإلى اللقاء مساءً بإذن الله حولَ مائدة الإفطار».

(٥)

شجرةُ الإيمانِ

عدتُ إلى البيت وذهني يفكّر فيما قاله لي الشيخ أحمد أثناء الدرس السّابق، وعلى الرغم من ذلك لمْ أقصد غرفتي مباشرة بل اتجهتُ إلى المطبخ لأساعد والدتي في إعداد مائدتَي الإفطار؛ أعنِي مائدتَها ووالدي وبقية إخوتي، ثمّ مائدتِي والشّيخ أحمد وجَدّي، ولو أنهما كانا معاً مُقِلّيْنِ في الأكل، إذ كانا غالبا ما يردّدان بأنني أنا من في حاجة ماسّة أكثر منهما للأكل، من باب أنني ما زلتُ في سنّ النّمو ويجبُ أن أتغذى جيدا، لأنّ العقل السليم في الجسم السليم، وكنتُ أجيبهُما ضاحكةً: «في هذا الأمر بالذات لستُما في حاجة أبداً إلى توصيتي أو نصحي، ذلك أنني أعلمُ جيدا أنّ هذا هو أسّ علوم الخيمياء، إنّها سعراتٌ حرارية وطاقة من نوع خاص يحتاجُها جسد المراهق لينمُو بشكل أفضل». وكان جدّي يردّ مبتسما: «ليستْ كمية الغذاء هي المهمة بالنسبة لنمُوّ جسد الإنسان ولكن نوعيته، ولتتذكّري دائما يا ابنتي أنه عليك دائما الإكثار من الخضراوات والفواكه والأسماك واللحوم البيضاء والتقليل من اللحوم الحمراء، ومادمنا نعيش في مدينة بحرية فلا خوف عليك من هذه الناحية، فكلّ سَمَكها تحت أمركِ لا سيما الأزرق منه، فهو مفيد جدّاً لكِ».

وحينما لاحظتْ والدتي أنني أبتسمُ لوحدي في صمتٍ، سألتني إذا كان للأمر علاقة بدروسي الفجريّة مع ضيف الله الجديد وجدّي، فأكّدتُ لها ما ذهبتْ إليه وأخبرتُها بمدى إعجابي بحالة الانسجام والوداد والاحترام التي أصبحتْ تجمعُ بين جدّي وصاحبه الجديد، ففرحتْ بذلك فرحاً جمّاً، وطلبتْ منّي أن أحمل بعض الكؤوس إلى غرفة الأكل، وبينما كنتُ بصدد فعل ذلك إذا بي أسمع طرقا على الباب الخارجي. فتحتْ والدتي ووجدتْ سيّدة عجوزا بلباس متواضع جدّاً، وظَهْر مقوّس. سألتْها عن حاجتها، فردّتِ المرأة: «إنني أبحثُ عن أسماء، أوَلسْتِ والدتَهَا؟ إنني قصدتها مع بداية هذا الشهر الفضيل لأنني علمتُ من صديقٍ عزيزٍ أنها تستقبلُ كلّ سنة ضيفا واحدا من ضيوف الرحمن على مائدتها. أوَليْسَ هذا هو البيت الذي تسكن

فيه أسماء يا سيدتيّ؟!»، ابتسمتْ والدتي، وقالتْ وقد بدَتِ الحيرة على محياها: «الحقيقية يا سيدتي، أنه سبقك لهذا الأمر ضيف آخر، أظنه هو الضيف الحقيقي لهذا الشهر، لكن لا عليك، يمكنني أن أتصرّف حتى تقرّي عينا أنتِ أيضا...»، وقبْلَ أن تُكْمِل والدتي كلماتها أشرعتُ باب البيت أكثر فأكثر وقلتُ مُعقّبة: «لا يا أمي، إنّ هذه المرأة هي ضيفة هذا الشهر الحقيقية، وليس الشيخ أحمد، وسوف يشرحُ لكِ جدّي السببَ لاحقاً، وحضورها أو عدمه لن يغيّرَ من الأمر شيئا، فالخيرُ موجود والحمد لله، وحيثُ يأكل ثلاثة أشخاص يُمكن أن يأكل أيضا عشرة، ولا تهتمّي لغسل الأواني بعد الإفطار، فأنا سأتكفّلُ بالأمر»، لمعت عينا السيّدة العجوز ما إن سمعت كلماتي ثم قالت بوجه يشعُّ فرحا وابتهاجا: «إذن أنت هي أسماء! كان كلّ مُناي أن أراك، لكني أحبّ أن أطمئن والدتَك بأنني سآتي هنا كلّ يوم فقط من أجل تناول وجبة الإفطار ثم أعود لغرفتي الصغيرة، فالحمد لله عندي مكان يأويني ولي حفيدة تنتظرني فيه دائماً، إلّا أنه ليس عندي أكل يكفيني وإياها» انقبضَ قلبي لكلماتها وشعرتُ بحزن عميق، وقلت لها: «والدتي لم تكن تقصدُ شيئا من كلماتها تلك، وإني لأعتذر عن سوء الفهم والارتباك الذي حدثَ لها، فأنا السبب فيه، وسنكون سعداء بدون أدنى شك إذا ما انضممتِ إلى ما ئدتي الصغيرة».

انشرحتْ أسارير السيدة لكلماتي، ودخلتْ معي إلى البيت حيث قدّمتُها أولا لوالدِي وإخوتي، ثمّ بعدَ ذلكَ رافقتُها إلى غرفة جدّي والشيخ أحمد ورويتُ لهما بإيجاز قصّتها، فرحّبا بها أيّما ترحيب، وقال الشيخ أحمد باسما: «أرأيتِ يا أسماء، لقد اتّسعت مائدة العلم، وأنْ تحضُر فيه امرأة من سنّ هذه السيدة، فهذا سيكون أفضل وإنّي لأظنها ستكون طالبةً مُجدّةً مثلكِ وربما أكثر»، ابتسم جدّي وقال: «ومن أين لكَ بكلّ هذا اليقين يا صاحبي، فلربما نكون نحن التلامذة في حضرتها؟! »، ارتبكتِ المرأة من كلمات الرّجُلين، إلا أنني حاولتُ أن أشرح لها بكلمات بسيطة ما كانا يقصدانه معاً، فجلست أمام عتبة الغرفة وقالت في حياء وتردّد: «أرجو يا ابنتي أن تتركيني هنا، فهذا أفضل لي ولكُم»، «إذا كان هذا الأمر يريحكِ فلك ما تشائين سيدتي الغالية،

وسآتي بصينية صغيرة أضع فيها إفطارنا، لكن اسمحي لي أنْ أفرش لك زربية نجلس عليها معاً ونترك لهُما المائدة، ما رأيكِ؟»، «الرأي رأيك يا ابنتي».

حلّ وقتُ الإفطار، وتحلّق كلّ من في البيت حول مائدته، وجلس كل حبيب قُرب حبيبه، أباً وزوجة وأبناءً، وجدّا وصاحباً، أما أنا فجلستُ قرب صاحبتي الجديدة السيّدة خديجة وكان هذا هو اسمها. كنتُ أشعر بسعادة لا تضاهيها سعادة، حتّى أنّي فتحتُ مائدةَ الدّرس في وقت الإفطار لا عند الفجر كما سبق واقترح عليّ جدّي، فقلتُ متسائلةً بفرح وبهجة: «ألا تظنُّ معي يا شيخنا أحمد، أنّ ما نحن بصدد عيشه اللحظة هو علم الخيمياء الحقّ، ألمْ تلاحظ معي كيف أنّ شجرة المحبّة بدأت تكبرُ كل يوم أكثر فأكثر؟ أليْستْ هذه هي الشجرة التي كانتْ مُجرّدَ حبّةِ خردل حينما التقينا لأول مرة أمام دكّان المدرسة؟»، «إنها كذلك يا ابنتي، وهي نفسها الشجرة التي تحدّث عنها المسيح (ع) في المقولة التي اقترح عليكِ جدّك آنفا التأمّل في معانيها، ألا ترينَ كمْ جبلاً حوّلتِ من مكانه خلال أسبوع واحد فقط؟! أنا وتركتُ بيتي وكلّ شيء خلفي لآتي واجلسَ إلى مائدتك، وجدُّك وتركَ زوجتَهُ وأسرتَه وهو اليوم معكِ، ثم السّيدة خديجة، وقد تركت هي الأخرى حفيدتها في البيت لتنعمَ بالجلوس إلى جوارك، ثم مَدرستُكِ التي تحوّلتْ إلى مَدْرسَتيْنِ تُكَمّلانِ بعضهُما البعض، فما تدرسينه هنا يُكمّلُ ما تتلقينه هناك، والعكس صحيح»، «نعم يا شيخي أحمد، وإنّي لأعتقدُ أنّ الاِسْمَ الأمثل الذي يُمكن أنْ نُطلقَ على شجرتنا هو "شجرةُ الإيمان"، فالإيمان وإن كان يتوهّمُ البعض أنه صغير جدّاً، هو في الواقع كحبّة خردل مزروعةٍ في قلب الإنسان، إلّا أنّ نتائجه عظيمة، وهو جزء مُهمّ للغاية في منظومة المحبّة، ناهيكَ عنْ أنّه كالعشق: عاطفةٌ سرّية يعيشُها كلّ واحدٍ منّا بغضّ النظر عن انتماءاتنا الدينية والعقائدية، ولا نستطيع تذوّقها إلا إذا اختلينا بأنفسنا. إنه نوع من اللجوء إلى غار حراء، أو العودة إلى أرحام الأمهاتِ الطاهرات لننهل منهن ما ينقصُنا من طاقة وحرارة، ولا أظنّ أنّ الإنسانَ في حاجة إلى الأشياء الكبيرة أو العظيمة في حياته ولا حتّى للمعرفة الواسعة الفضفاضة لكي يدّعي أمام الغير بأنهُ يتمتع بإيمان قويّ.لأنّ هذا الأخير هو قبل كل

شيء إيمان الناس البسطاء، إيمانُ أمّي وجدّتي مثلا، أمّا أولئك الذين لا ينفكّون يُظهرون أمام الغير فائض الإيمان، فهُم أناس أفرغوا نفوسهم من الدّاخل، ومن كلّ ما فيهم من طاقة، ليبقوا مجرد مكبّرات صوتية تنعق بأشياء لا علاقة لها أبدا لا بالله ولا بالإيمان!»، «ما أجمل كلامك يا ابنتي عن الإيمان»، قالت السّيدة خديجة بصوت متحشرج وسط الدموع، وحينما أمسكتُ بيدِها مُشجّعة إيّاها، أضافت قائلة: « الإيمان يا سادتي هبة مجانية من الخالق عزّ وعلا يفيضُ بها على الإنسان ليساعده على فهم أمور لا يستطيع إدراكها بعقله وحواسه ولكنه في الوقت ذاته لا يتناقض مع العلم والمعرفة، وليس علينا سوى أن نفتح جميعا عقولنا وقلوبنا لاستقبال هذه الهبة التي لا تُرى بالعين المجردة، وإلا لما كانَ قال منذ الأزل سيدنا وحبيبنا المسيح "طوبى للذين آمنوا ولمْ يروا"». أنهت السيدة كلماتها، وبقينا جميعا ننظر إليها مندهشين ممّا قالته وهي المرأة المُسنة البسيطة التي طرقت بابنا سائلة وإذا بنا جميعنا أصبحنا في حضرتها الضيوف وهي صاحبة مائدة الحكمة والمعرفة، وإن كانت تفترش الأرض وتلبس الأسمال البالية. أمسكتُ بيدها مرة أخرى وانخرطتُ في بكاء صامت حارق، ولا أعرف بعدها ما الذي حدث، فقد دخلتُ في غيبوبة لا عهد لي بها من قبل، ولم يُفقْنِي منها سوى جدّي وهو يُمسك بقارورة عطر خاصّة به ويقول لي: «قومي يا أسماء، هيّا يا ابنتي رافقي السيدة خديجة إلى الباب فإنها تريدُ أن تعود لحفيدتها، ولا تنسيْ أن تضعي لها في القُفَّة كلّ ما تريدُه من أكل، وبعد ذلك اذهبي مباشرة للنوم، فإني أراك في حاجة ماسّة له بعد كل هذا المجهود الروحي الذي عشتِه معنا الليلة».

ودّعتُ السيدةَ خديجة على أمل اللقاء بها غدا عند الإفطار، ثمّ قصدتُ مباشرة غرفتي كما أوصاني جدّي ونمتُ بعمق إلى أن حان موعد السحور، عندئذ جهّزتُ حقيبتي المدرسية وتسحّرتُ بعد ذلك مع والدَيَّ وعرّجتُ بعد صلاة الفجر على غرفة جدّي وصاحبه الشيخ أحمد لنفتحَ من جديد مائدة درس آخر عن علاقة الإيمان بعلوم الخيمياء.

وجدتُّهما مُنهمكيْن في التسبيح وما إن رآني جدّي حتّى أفسحَ لي المكان وأجلسني بجانبه محاولا في الوقت ذاته الاطمئنان عليّ بعد الغيبوبة القصيرة التي انتابتني أثناء الإفطار، أمّا الشيخ أحمد فقد قال مُفسّرا إنّ ذلك له علاقة بكمية المشاعر والانفعالات والتفاعلات الكيميائية التي وقعت بداخل قلبي وعقلي بسبب زيارة السيدة خديجة لنا، هذه التفاعلات التي هي أساس كلّ تحول مبني على فكرة الإيمان، وقد وافقه وأيّده جدّي فيما ذهب إليه، حيث أضاف هو الآخر قائلا: «نعم يا صاحبي، إنها شجرة الإيمان التي توجد بقلب كل إنسان، وهي بحاجة دائمة للمتابعة والمراقبة كي تنمو بشكل صحيح وسليم، ويزدادَ ويتضاعفَ عدد ثمارها كل يوم فوق وبين أغصانها»، «هل هذا يعني يا جدّي أنني بين يديكُما أصبحتُ الآن شجرة الإيمان، وأنكما والسيدةَ خديجة أصبحتم تسهرون على نمُوّي تحت جناح السلم والسلام والرعاية الأُسَريّة؟» عقّبتُ طالبة المزيد من الشرح والإيضاح. «ليس بهذا الشكل تماما، إلا أنني أقصدُ أنّ كلّ إنسان يحمل هذه الشجرة بداخله، والتي تكون في البداية مجرد حبّة خردل تُزرعُ في أرض طيّبة وليس في أرض جرداء، وزارعُها يكون هو الله عز وجلّ لأنه وحده من يتفضّلُ على خلقه بهبة الإيمان أو الشوق والاشتياق إلى معرفته، أمّا الأرض الطيّبة فهي قلب الإنسان الذي لا يعرفُ معنى السعادة إلا إذا استقرّ فيه الله يا ابنتي»، «وبعد الزراعة تأتي الحراثة، بغرض مساعدة الشجرة على التنفّس وترسيخ جذورها في عمق القلب كل يوم أكثر فأكثر. وكما تعلمين يا عزيزتي فالشجرةُ بحاجة إلى نور الشمس أيضا، وشمس القلبِ هو الصّلاة، أما هواؤُه فهو الدّعاء والمداومة على العمل الصالح، غير هذا فإنّ العالمَ يكونُ مجرّد صحراء قاحلة لا شيء فيها سوى سراب الأوهام والأماني الحامضة»، قال الشيخ أحمد وهو ينظرُ إليّ منتظرا منّي، إمّا أنْ أسأله سؤالا جديدا أو أن أجيبَه عنْ علاقة العلمِ بالإيمان بناء على ما فهمتُه من خلال ردود جدّي وتعقيباته هو وكذا حديثِ السيدة خديجة أثناء وجبة الإفطار، وقدْ اخترتُ الحلّ الثاني تفاديا للإطالة في الحديث أو تكرار مفاهيم سبقَ وأن تطرّقْنَا إليها، وعليه قلتُ: «وفقا لما تفضلتم به عليّ من شروحات فإنه يمكنني أنْ

أقول إنّ الإيمان بدون علم كارثة عظمى، ذلك أنّهُ هو نفسُه مسار خيميائي طويل منَ التحولات والتطورات التي تتحرّكُ داخل جسم الإنسان، وقد تكتملُ وتتوهّج فيكون مصير الإنسان السعادة والسلام الأبديَيْن، وقد تتوقفُ أو تتعثّرُ فيكون مآله الضياع والهلاك، وإني لأعتقدُ أنّ السعادة الخيميائية لا تتحقق إلا إذا اتحدت بالعلم، فأنا مثلاً إذا كنتُ أفكّر في أن أصبح امرأة يُنتفعُ من إيمانها عليّ أنْ أعرفَ قبل كلّ شيء ماالّذي يحدثُ بداخل جسدي وهو يحملُ بين أحشائه بذرة الإيمان هذه التي تتحوّلُ وتحوّلني معها إلى شجرة، أيْ عليّ أنْ أعرف ماهية الإنسان وماهية جسده، وهذا لن يتأتّى لي إلا إذا كُنت متسلّحة بالعلوم التي تمكنني من ذلك: الطبّ، والفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك ثمّ بعد ذلك اللاهوت: فالطبُّ سيساعدني على معرفة تركيبة الجسم وأعضائه وكيفية عمله، لأنه نوعا ما يشبهُ علوم المكانيك، أما بقيّة العلوم الأخرى فسوف تساعدني على معرفة طبيعته النارية والهوائية وكذا الترابية، ومدى انسجام هذه العناصر مع بعضها البعض أو لا، مع محاولة التعرف إلى ما يحمله من جُسيمات أولية وذرات وجزيئات ومواد كيميائية وبلورات وأشكال أخرى من تجمّعات المادة فيه، وكذا أبعاده وأشكاله وتأثير الزمن وفصوله فيه وعليه، وهذا كله سوف يساعدني ولا شك على معرفة الكون وعلاقته بالله، ذلك أنّ المؤمن وهو في طريقه إلى خالقه لا بدَّ سيطرح أسئلة عميقة عن السماء والأرض، وغيرهما من الظواهر كالرعد والبرق والكواكب والنجوم والشمس والقمر. إنّ الأمر فيه مايشبه إلى حدّ ما رحلةَ إبراهيم الإيمانية من الحيرة إلى اليقين وهو يجول سائحا في الأرض إلى أن قال جملته الشهيرة وهو ينظر في النجوم: "إِنِّي سَقِيمٌ" ، أمّا اللاهوت يا سيديَّ الجليليْن فهو الطريق إلى معرفة العقل الأكبر، وكل ما له علاقة به من ملائكة وروح وفكر، وروح قُدُس وأسرار أخرى لا حد لها ولا حصر، أليس كذلك يا جدّي؟ أم لكَ قول آخر يا شيخي الفاضل أحمد؟»، «أبداً، وما دمتِ قد توصّلتِ إلى كلّ هذه الاستنتاجات الرائعة، بقي لنا الآن وعلى ضوء شروحاتكِ هذه أن تفصحي لنا يا ابنتي عن السرّ الكامن وراء عدم احتراق صورة بيان»، «بكل فرح وسرور شيخي أحمد،

لكنني أفضّل القيام بذلك غدا، حينما تكون بيننا السيدة خديجة، فمنْ يدري، فلربما يكونُ لها هي أيضا رأي آخر».

(٦)

غيبوبة إكلينيكية

وفي اليوم التالي عادتِ السيّدةُ خديجة قُبيل ساعة الإفطار بساعة من الزمن، وجلستُ وإياها أرضاً فوق السجّادة الخضراء الطويلة، أمّا جدّي وصاحبه الشّيخ أحمد فبقيا حول المائدة، وفتحنا جلسة النقاش والدرس باكرا هذه المرّة، وحينما رويتُ لهَا حكايتي مع الفقيه أحمد، قالت لي: «أظنّ أنني أعرف سبب عدم احتراق صورة بيان، الفتاة الكاملة الجمال والبهاء!». عندئذ أشرقتْ عينا الشيخ أحمد وقال متلهّفا: «سأكون أسعد النّاس سيّدتي لو حللتِ لي هذا اللّغز»، «أريدُ أوّلا أن أسمع رأي أسماء، ثم بعد ذلك أُسْمِعُكم رأيي المتواضع» قالت السيدة خديجة، وعقّبتُ على ردّها، «أعتقدُ أنّ السرّ يكمن في نوعية ورق الصّورة، أو نوعية عود الثقاب، أو القدّاحة التي استخدمها الفقيه في بيته، وأركّز بشكل أكبر على العناصر التي يتكوّنُ منها ورق الصورة، فمن يدري فقد يكون من النوع غير القابل للاشتعال، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلا حتمَ في طبيعة الشعلة التي أنتجتها القدّاحة أو عود الثقاب، غير هذا فأنا نفسي ليس لي أدنى فكرة عن سبب عدم احتراق الصّورة!»، «هذا إيضاح غير مكتمل الجوانب العلمية عزيزتي أسماء، أمْ تراكِ نسيتِ أنّه ليست وحدها صورة بيان التي لم تحترق، بل كذلك ورقة من دفترك المدرسي، هذا يعني أنّه ثمة سبب آخر وراء هذا الأمر»، قال جدّي وهو يحاول الوصول إلى الجواب الصحيح، وحسناً فعل، لأنه بردّه هذا استحثّ السّيدة خديجة على الحديث بشكل أكثر وضوحا ويسرا ذلك أنّها قالت وهي تستدعي بعضا من الإشارات من الزمن البعيد: «أنا يا ابنتي أسماء أعرفكِ مُذ كنت طفلة لا يتجاوز عمرك الخمس سنوات، لقد كانت ابنتي الوحيدة تأتي مرّة في الأسبوع لمساعدة والدتك في الأعمال المنزلية الكبيرة، وكنتُ من حين لآخر أرافقها لمنزلكم، مما سمح لي بالتقرب منك أكثر فأكثر، فقد أصبحتُ بمثابة أمٍّ ثانية لكِ، وأصبحتُ أسهرُ على شؤونك الصغيرة والكبيرة بعدما رأتْهُ والدتكِ منْ تعلقكِ الشديد بي، وتغيّرتِ الظروف ومرّت السنون سريعة، وتزوجتِ ابنتي واضطررتُ للرحيل معها إلى مدينة أخرى، ومنذ

ذلك الحين لم أرَكِ إلا بعد أن مرّ ما يقارب الثماني أعوام، ومع ذلك لمْ أحاول الاقتراب منكِ، خوفا عليك من المفاجأة، وكذلك من قصّة ابنتي الحزينة التي ودّعتِ الحياة وزوجها بعد حادثة سير مروعة، واكتفيتُ بإرسال بعض فقراء حينا إلى بيتك كلّما اقترب شهر رمضان. واليوم وبعدَ الذي رأيتُه منكِ من قوة شخصية وشباب وعنفوان وذكاء وسرعة بديهة، قررتُ أن أروي لكِ كل شيء، وأخبر جدّك وصاحبه عن سبب عدم احتراق الصورة والورقة: إنّ أسماء كثيرة الصلاة على النبيّ وآله، ولقد سمعتُها ورأيتها تفعل ذلك منذ طفولتها البعيدة، وإني لأظنها مازالت كذلكَ، وأنتم تعرفان جيّدا ما للصلاة على النبي من فوائد، ويستحيلُ على جسد أبدا أن تحرقه النار وصاحبه من المصلين على النبي، والأمرُ ليس له أية علاقة بالروحانيات أو الكرامات، وما إلى ذلك من قبيل المعجزات، وإنما الأمر حقيقة علمية لها ارتباط قوي بعلوم الطاقة. والذّكر عبر الصلاة على رسول الرحمة يولّدُ طاقة أو هالة نورانية عجيبة في جسد الذاكر وحوله وبالتالي في كل شيء يلمسه، وهذه الطاقة هي من نوع ((البرد والسّلام))، التي بها حفظ الرحمن إبراهيم (ع) وأنجاه من نيران النمرود، وإني لأظن ابنتَنا اليوم قد بلغت مقام البرد والسلام الذي هو أساس العشق، وهي من باب عشقها هذا، أصبحتْ تفيض بالمحبة على الجميع وإن كانت لا تعرفهم، وبالتالي تتحركُ نحوهم من واجب العناية والرحمة وكفّ الأذى...»، « صدقتِ يا سيّدة خديجة، لا أعرفُ كيف فاتني هذا الأمر، لكن يبدو أنّكِ تعرفين أسماء أكثر منّا جميعا، أكثر من جدّها وأكثر حتّى من جميع أهلها»، قال الشيخ أحمد ثم اختفى جسداً وصورة، واختفى بعدَهُ جدّي، ولمْ يبقَ في الغرفة سواي وخديجة، وبعضٍ من آيات سورة الحديد كنتُ أسمعها قادمة من بعيد. أجل، من مكان بعيد يبدو كأنّهُ بئر وأنا نائمةٌ وسطها. لا، لمْ أكن نائمة، لقد كنتُ في غيبوبة إكلينيكية دامتْ لما يزيد عن العشرين يوما. وكلُّ ما مررتُ بهِ من أحداث، بدءا من لقائي بالشيخ أحمد إلى أن ظهرت السيدة خديجة لم يكنْ له أيّة صلة بواقعي المعيش، وإنّما كان تجربةً عشتُها وأنا ممددة على فراشِ المرض في بيتنا طيلة شهر رمضان من عام ١٩٨٢، والذي كانَ آنذاك بمدينة

أخرى غير تلك التي رأيتُ فيها النّور، وكانتْ والدتي إلى جانبي تبكي ليلا ونهارا، أما أبي فكان لا يكفُّ عن تشغيل شريطيْ سورتَي "الحديد" و"طه"، محتاراً هو والأطبّاء في سبب هذه الغيبوبة المفاجئة، والتي أفقتُ منها بشكل مفاجئ أيضا حينما سمعتُ المُرتّل يقول: « يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

فرحتْ والدتي بعودتي من سفري الغيبوبي كثيرا، لا سيما وأنّها كانت قدْ هيّأت نفسها لسماع خبر موتي بشكل نهائي، فحضّرت كلّ شيء استعداد لاستقبالِ المُعَزّين أيضا. إلا أنّ عودتي قلبتْ كل الموازين، وكنتُ آنذاك أبلغ من العمر عشر سنوات، ولم يسبق لي أن رأيتُ جدّي أبدا، ذلك أنه توفي سنة واحدة بعد ولادتي، ولا أعرفُ حتّى من يكون الشيخ أحمد ولا حتّى السيدة خديجة، إلا أنني أعرفُ جيدا المدينة التي مرّتْ فيها كلّ الأحداث التي عشتُها في غيبوبتي، وكذلكَ المدرسة؛ لأنّهما أصبحتا معاً فعلا مدينتِي الجديدة ومدرستي بعد خمس سنوات مرّت على حياتي من واقعة المرض والغيبوبة.

لمْ أروِ لليوم شيئا عن تجربتي تلكَ لأحدٍ، ولا حتّى للمقرّبين من أهلي، فقد تعلّمتُ باكرا أنّ ما كُلّ شيء يُروى، خاصّة إذا كان له علاقة بالتجارب العرفانية: فتلكَ كانت تجربتي لوحدي، وكلُّ دروسها الخيميائية كانت مُوجّهةً لي، وذاك السّيدُ كان حقا جدّي وفقاً لما كانت تحكيه لي والدتي عنهُ من أوصاف وملامح وكرامات، أمّا الشيخُ أحمد فقد كان شخصاً آخر لم يظهر حقيقة في حياتي إلا مرّتين، مرّة حينما علمتُ أنه زوجُ أستاذتي لمادّة الرياضيات، أيْ حينما كنتُ في السنة الأخيرة من المرحلة الإعدادية، ومرّةً حينما بلغت التسعة والعشرين من عمري، ولقد عرفته في كلتا المرّتين، ولا أظنُّه عرفنِي، واحتفظتُ بالسرّ لنفسي. لكن ماذا عن السيّدة خديجة منْ تراها تكون؟

(٧)

براءة

السيّدةُ خديجة أيّها الأحبّةُ الأفاضلُ الكرام، هي تجلّ منْ تجلّيات روحي، بالضّبطِ كمَا كانتْ صورةُ جدّي تَجَسُّداً لعقلي. أمّا الشيخُ أحمد فنفسِي، أيْ مركزُ الرغبات المكبوتةِ التي كانتْ تتلوّنُ أمامِي بشتى الألوان والصفاتِ، وتَعْرِضُ عليّ في كلِّ يومٍ مُلْكاً وجاهاً أكونُ أنا الآمرة والناهية فيهِ. كيفَ ذلك؟ الأمرُ بسيط للغاية؛ إذ يبدو أنني تعرّضتُ في صغري لصدمةٍ انفعاليةٍ مَا، لا أتذكَّرُها لليوم أبداً لأنّ عقلي الباطن مَسَحَهَا بشكلٍ كُلِّي من أرشيفِ الذّكريات، لكن لا بدّ تكونُ لها علاقةٌ بتحصيل الدّرس والتعليم، أيْ أنني كنتُ أمامَ صدمة دفعتني إلى طلبِ المعرفة عن طريق الدّخول في غيبوبة إكلينيكية حشدتُ فيها كُلّ قواي الفكرية والروحية وتَمَثّلْتُها بالصّور التي أحبُّها بشكلٍ أكبر وأعمق، فكانتِ النتيجةُ أنِ استدعيتُ صورةَ جدّي، وكذا السّيدة خديجة، والتي يظهرُ من اسمها جليّاً أنّها مُرادفة لحبيبةِ قلبي العشقيّة السّيدة النورانية زوجة نبينا محمّد صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله الطاهرين الطيبين. أمّا وكوني أردتُ لهَا أن تظهر في سفري الغيبوبي على شكلِ امرأةٍ مُسنّةٍ ألبستُها الأسمالَ البالية وأجلستُها الأرضَ، فذلكَ لأنّي كنتُ أريدُ أنْ أضربَ بهذه الصّفات نفسي لأعلّمَها التواضعَ في كلّ الحالات والأحوال وَأُفْهِمَهَا معنى أن يتركَ الإنسانُ كلّ شيءٍ وهُوَ في قمّةِ الثراء، ومعنى أنْ يسْتغْنِيَ عن الألقاب والصُّور والأشكالِ وإنْ كانتْ هذه الأخيرة تسعى مهرولةً إليه من كلّ صوبٍ وحدب كُلّمَا أمعن هو في إدارة ظهره لها، فلا الشبابُ يدوم، ولا الجمالُ ولا الصّحة، وكلٌّ مَن علَيها فانٍ، وَيبْقَى وَجْه رَبِّكَ ذو الجلالِ وَالإكرَام .

روحي هذه التي ظهرتْ لي في صورة السَّيدةِ خديجة كانتْ في طفولتي مُعلّمي الأكبر، لأنها لقّنتني أشياء أفدتُ منها وما زلتُ إلى اليوم الكثير، لا سيما وأنّها كانتْ تُزوّدُني بالعديد من النصائح والوصايا ونحنُ على زربية الإفطار في بيتِ

الطفولة القديم، وصايا كانتْ تقولُ لي منْ خلالها حروفاً بقيتْ عالقة في ذهني وكأنها نقشٌ فوق الحجر أرصُّ بعضها أمامكُم أيّها السّادةُ كما يلي:

- «لا تُقَبِّلِي يدَ أحدٍ أبداً، وإيّاكِ وعبارات "سيّدي" و"شيخي" و"أستاذي"، إلّا إذا كنتِ توجّهينَها لأشخاص مُعيّنينَ توسّمْتِ فيهم خُلُقاً حسناً ظاهراً للنّاس كانَ أو مخفياً، أو إذا كنتِ تضطرين إلى استخدامها من بابِ خلق حاجز وفاصل معنويّنِ بينكِ وبين مُخاطبكِ. غير هذا فليس لأحدٍ عليكِ سلطة ولا سيادة أو مشيْخة ولا أسْتاذية إلّا خالقك ربُّك وربّي وربّ العالمين، فسيأتي زمان يا ابنتي تُزَلزلُ فيهِ المعابدُ والكنائسُ والمساجدُ، ويُقْتلعُ الفقهاء والشيوخُ والكهنة والأحبار والقساوسة من جذورهم كما تُقتلعُ الأضراس المريضةُ من اللثيّ المتعفّنة، وتنفضحُ النوايا والسرائر، وتسقطُ الأقنعة، وتخرج شياطينُ الجِنِّ والإنسِ التي كانت قابعة تحتَ الجلبابِ والعمامة، والتونية والبطرشيل»؛
- «إيّاكِ وأصحابَ الخِرَقِ، فما نجا منهم إلّا القليل ممّن لمْ يُفَرّطوا في كتاب الله ولا في عترة نبيّهِ، وهُم يُعدّونَ على رؤوس الأصابع، وما وُجِدَ لغيرِ هؤلاء مِن عَهْدٍ، وإنّ أكثرهُم للحقّ كارهون. ولا تجزعي ولا تخافي منهم أبدا، لأنه سيأتي يوم يطرقونَ فيه بابكِ، ويتلصّصون ويحتالونَ عليكِ، ويَسرقُونَ الحرفَ من بين يديكِ، ويراودُونكِ عنْ نفسكِ، حينئذ ما عليك سوى أن تشحذي كُلّ الشّهب وشواظ النحاس الذي زرعهُ الخالق في صدرك، وارجمِي به كُلّ من يفكّرُ في أن يحوم حولَ قلعتك وما فيها من كنوز هي لكِ وحدكِ دونا عن غيركِ. وأَعْلِنِي براءتَكِ منهُم إلى يوم الدّين، فلا كنتِ منهم يوماً ولا ستكونين أبداً»؛
- «إيّاك وبابَ "الشيخ والمريد"، فتلكَ دوّامة الداخل إليها مفقود، والخارج منها موؤود، وكلّ مَنْ فيها إمّا فاعلٌ وإمّا مفعولٌ به، وثمّةَ منهُم منِ اجتمعت فيه كلتا الصفتان، فهُو إمّا واقفٌ، وإمّا مُنْبطحٌ مُستسلمٌ لا حولَ لهُ ولا قوة! إنّهُ غسيل دماغ مستمرّ في كلّ الاتجاهات: فالأفكارُ اليوم فاعلةٌ، والناسُ مُستلقون فوقَ أسِرّةِ الغفلة يُفعلُ بهم كلّ شيء، و"الدّين" فاعل، و"المُتديّن" مفعول به، والسياسة فاعلة،

و"المواطن" مفعول به، و"الشيخ" فاعل و"المريد" مفعول به. وكمْ من شيخ يحملُ عصاه ويفعلُ بها ما يشاء في تلميذه المريد. ويا للعصا! كلّ شيء فيها يا ابنتي، فهي الحيّة التي تسعى بين الناس تنفثُ سُمّ الطائفية حيناً، وسُمّ التكفير حينا آخر، وسُمّ التمييز العنصري بين أبناء الدّين نفسه والمعتقد، وسمّ التفرقة والحروب الهوجاء بين أهل التوحيد في كل مكان. فالحذر الحذر يا ابنتي، ولا تنسي أنْ تُعْلِنِي في كل صلاة براءَتَكِ من كلِّ هؤلاء»؛

- «إيّاك أنْ تكوني من أهل الطريقة، فتلكَ طريق لا مخرجَ منها أبدا، وهي لمن يُريدُ أن يكونَ لهُ الأتباع والجماهير العريضة تصفّقُ له في كلّ مكان، أمّا أنتِ يا ابنتي فطريقتك الوحيدة هي خُويْصَةُ الرّوح، ومُريدُكِ الأوحدُ فيها نفسُك، لأنّكِ ممّن لمْ يُرْسَلْ إلى قومٍ ولا إلى شعبٍ، وإنّما إلى كينونة واحدةٍ، هيَ نفسُكِ، ثُمَّ نفسُك، ثمَّ نفسُك، فإذا أنتِ نجوتِ منْها، فطوبى لكِ بما لا عينٌ رأتْ ولا خطر على قلب بشر».

نعم لقد كانت وصايا السيّدة خديجة كثيرة ومتنوعة، وليس هنا من مجال لسردها كلّها، ويكفيني أنني حينما كبرتُ وأصبحتُ امرأةً أكثر نُضجا ووعيا بمعاني ذاك السفر الغيبوبي الذي رأيتُ فيه الكثير والكثير ممّا لا تتسعُ الكتبُ لحصره، حرصتُ على الإشارة إليها في أكثر من نصّ شعري وقصصي ونقدي، ذلكَ أنني أصبحتُ كما سبقَ وأخبرتني صاحبتي خديجة "كاتبة" أو هكذا يُقالُ عنّي، وفي الكثير من الأحيان يسمّوني بالكاتبة "الصّوفية"، وهذا أمرٌ آخر يحتاجُ لبحار من الحبر لأعالجَهُ أيضاً بعين التمحيص والتدقيق في زمن المعلوميات ومواقع التواصل الاجتماعي وغيرها من التقنيات الأخرى التي سلبتِ الناس عقولهم وأرواحهم وقادتهم إلى سُعُر جديدة لهبُها من زجاج سائل. وإضافة إلى هذا، وقبل ختم هذه الرحلة الخيميائية أحبُّ طرحَ السّوال الآتي: هلْ يمكنُ للإنسانِ أنْ يُعلّمَ نفسَه بنفسهِ؟ أيْ هلْ يتمتّعُ الإنسانُ بقدرة على التطوّر والتحوّل والوصول إلى مدارج العلا واليقظة والانتباه بدافع منْ مُعلّم داخلي يسكنُ في قلبِ كلِّ فردٍ على حدة؟!

أجل، يمكنُه ذلكَ، أمّا مُعلّمه الدّاخلي أو الرّوحيّ، فهو تلك النّسمة الإلهية التي نفخَها الخالقُ فيه، فإذا أظهر رغبتَهُ القوية في بقائِها متوهّجةً بين جوانبه، فإنّ اللهَ يبقى مقيماً فيهِ ولا يغادره أبداً، ويختارُ لهُ الطريقَ المناسبَ لهُ ليُعَلّمَهُ فنَّ الحرف، أيْ علوم الدّين والدّنيا بأساليب عديدة تتناسبُ والحمض النووي الذي جُبِل منه، وكذا خامتَه الصلصالية التي منها خُلِق، وغالبا ما يكونُ التدخل إمّا عن طريق الأحلام، أو الخيال، أو الأسفار الغيبوبية، أو الإلهام، أو الوحي، وإمّا عن طريق التجلّي المباشر، وتجارب الحياة التي لا حدّ لها ولا حصر: كلٌّ على قدْر عزيمته وقوّة شخصيته وعُلو هِمّته.

الفصل الثاني
سفيرة السلام

(١)

رسالةٌ إلى أبي آدم

في السّلم والسّلام

بسم الله الرّحمن الرّحيم، والحمدُ للهِ الذي بنعمتهِ تتمُّ الصّالحاتُ، وسبحانَ الله كما ينبغي لهُ، هو وحده صاحب المُلْكِ والمَلَكِ، مُجري السّفنَ فوق الموجِ، والنّجومَ في السّماء والفَلَكِ. وسبحانَ مَنْ لا يرُدُّ غضبَه سوى حلمِهِ، وحدهُ إلهنا صاحب العرش الشّامخ والإكرام الباذخ، سَتَرَ الخَلْقَ وغَفَرَ لهُ ذَنْبَهُ، وأنْزَلَ عليهِ مَطرَ الخير فأحْيَا بهِ أرضه، وجَعَلَ بين العبادِ الأنبياءَ والأولياءَ الزّهاد، نعوذُ بنورِ وجههِ منْ عاقبة الدّار وسُوء المعاد والمهادِ، هُو وحدهُ المُنزَّه بالذّات عن الأشباه والأندادِ.

أمّا بعد؛

فإنّي إليكَ يا أبي آدم اليومَ بالحرفِ مُتوَجّهة، وفي القلبِ شوقٌ عظيم للقائكَ ورؤياكَ من جديدٍ، علّني أنعَمُ بحنانكَ وعطفكَ، وجميلِ حديثكَ وقصصكَ، وعلّكَ تفيضُ عليّ كلّ يوم بأشياء جديدة مما علّمكَ إياها إلهنا من العلوم والأسماء، وتُجَدِّدُ بيَ الذّكرى، وأجَدِّدُ بكَ الوعدَ والعهدَ.

أبي آدم، دعني أقَبِّل جبينكَ الطّاهر، وأزحزح عنْ صدركَ جبال الألم والآهات، وأمسح عنْ عينيْكَ دموع الخيبات والآهات والحسرات. دعني يا أبِي أغسل قدميْكَ منْ وعثاءِ الطريق وجهْدِ الطريقة، وأدفئهُمَا بنور المحبّة والسّلمِ والسّلام. بلْ دعني أمشّط بأصابعي الصّغيرة خصلاتكَ الفضيّة، وأدهن شيْبَتَكَ بالمسك والعنبر، فأنتَ لا تعرفُ كمْ من أعشاشِ المودّةِ بنيتُ لكَ في شجرة الفؤادِ مُذْ كنتُ طفلة صغيرة، وكمْ من طيور العشقِ تُغرّدُ فوق أغصاني مُردّدةً لليومِ لكَ وحدكَ: اللّهم يا باسطَ اليدين بالعطايا، ابسطْ على والدي آدم مِنْ فضلكَ العظيم وجودِك الواسع الكريم ما تذيبُ به غمَّهُ، وتُلبِسهُ بهِ ثوب العافية في قلبه وروحه وعقله وجسده، وأعِنْهُ يا إلهي على تحمّل مصائبِ أبنائهِ في الحلّ والترحال والذّهاب والإيّاب، فقد كَثُرَتْ ذنوبُهم ومعاصيهم،

وأشعلوا نيرانَ الحروب والفتن في كلّ جبلٍ وسهل وواد، وضلّوا الطريقَ، وعظُمَ زقّومُ الحِقْدِ في قلوبهم. اللّهمّ واجعلنِي وَوالدي آدم، أطبّاء لإخوتي منْ بني البشر، نُداوي أمراضَ نفوسِهم، ونغسلُ أدرانَ عقولِهم بماء الودادِ وبَرَدِ الوئام، وننقّيهُم منَ المعاصِي كما يُنقّى الثوبُ الأبيض من الدّرن. اللهم فإنّكَ تعلمُ أنّ ما بِإخوتي من خطايا وكبائرَ تُرتكبُ بِاسْمِكَ، ليس مردُّها الدّينُ ولا الاختلاف في الاعتقادات والمِلَل، وإنّما هي من غُربة الرّوح في بُعْدِهَا عنكَ. وتعلمُ أيضاً ألّا أحدَ يريدُ أن يصدّقَ هذا الأمر، فالمريضُ لا يعترفُ أبداً بمرضهِ، وهُمْ يا مولاي معظمُهُم مرضى، لذا فإنّي أرجوكَ، أنْ تنظُرَ إليّ وإلى أبي آدم بعين الرحمة والعدل واللّطف والعناية حتّى نُنْصفهم ونسهرَ على راحتهم، ونقودَهم إلى أسِرّة الرّحمة والعلاج والدّواء والاستشفاء، فنحنُ اليوم لسنا بحاجة إلى المعابد، ولا إلى المساجد ولا إلى الكنائس بقدر ما نحن بحاجة إلى المصحّات العقلية والمستشفيات النفسية، ولسنا بحاجة أيضاً إلى رجال الدّين وغيرهم ممّن يشبهونهم في الزيّ والمنطق والحرف، ولكننا في حاجة إلى أطبّاء يؤمنون بكَ وبالإنسان، يُحبّونكَ ويتّقونكَ في خلقكَ، وإذ أقول الأطباء يا إلهي، فإنّي أعني بهِم أهلَ العلم والإيمان في كلّ مجال، ولا سيما منهم أطباء الرّوح والنّفس، إذ العلّة كلّ العلّة تكمنُ هناك، ففي النفس جحيم الإنسان ونعيمه، وفي الرّوح شياطينُه وملائكته، والصّراع الأبديّ بينهما ورثَهُ منكَ أبناؤكَ وأحفادُكَ يا والدي آدم، وبقي منذُ أيّام الفَطْمِ وسنواتِ الفطامِ محفوراً في حمضهم النووي، وبقيتْ كلّ الأخطاء تتكرّرُ في كلّ يوم ألف مرّة، بدءا من مشهد الخروج، ومرورا بمشهد قتل قابيل لهابيل، ووصولا إلى الطوفان وما تلاهُ من حكايات عجيبة بين الأنبياء وأقوامهم، وبين الرسل وزوجاتهم وأبنائهم، ثمّ بعدَ ذلك بين الناس البسطاء والمتجبّرين، وهُم لليوم يسفكون دماء بعضهم البعض، ويأكلون لحوم بعضهم البعض، ويحتالون على بعضهم البعض.

أفلا ترى معي يا والدي آدم بعدَ كلّ هذا، أنّهُ قد حان الوقت ليتخصص أهل الطبّ في شرح الكتب المقدسة؟ لا تبتسم وتنظر إليّ هكذا بعين الفضول يا والدي، فأنا لمْ أُجَنّ بعدُ، ولكنّني أرى أنه قد حان الوقت ليتجددَ كلّ شيء، فلقد مللتُ من

العنعنات والإسنادات التي لا أوّل لها ولا آخر، وأريدُ أن يظهرَ طبيب يكون مُجدّداً في حرف التفسير والتأويل، وعالما بعلوم الجسم والنفس وسيميائها، ليشتغلَ بمشرطه وسماعته وسرير البوح على فكّ كلّ الرموز، ويشرحَ للناس مثلا من تكون أنت يا والدي، ومن تكون حوّاء؛ أمّي الحبيبة التي لم يُخلَقْ في بهائها وجمالها ووقارها أحد، ومن يكون نوح، ولماذا السفينة، ومن يكون إبليس حقّا، ومن تكون الملائكة والجنّ وغيرهم من بقية المخلوقات؟ ولماذا السّماء والنجوم، وما علاقتهما بالإنسان، وهلمّ جرّ من كلّ هذه الحكايات والرموز التي توجدُ في الموروث الثقافي لكل حضارة من حضارات الإنسان.

أريدُ أن يُدرّسَ علمُ النفس وعلوم الفلك والفضاء في كليات الفقه واللاهوت والشريعة، أريدُ أن أرى يا والدي الفقهاء في الحوزات العلمية ببدَل بيضاء بدلَ العمائم، وبنظارات وحقائب طبّية بدلا عن العصا والسّبحة، وأنْ يُتَحَدّثَ عن الخالق بحرفِ الرياضيات والكيمياء والخيمياء والفيزياء. أريدُ أن تُفتح العلاقات من جديد بيننا وبين الطبيعة، بيننا وبين بقية الأكوان، ولا يعنيني في شيء أن نرحلَ إلى القمر أو المريخ، بقدر ما تعنيني الأسفار في غابات النفس وأدغالها، لأنّ هناك توجدُ كواكب لمْ تُكتَشفْ بعد، وأقمار لم نصل إليها بعد. أريدُ أنْ أراك وتراني بدون حجابٍ ولا حواجز يا والدي، أن أظلّ في تواصلٍ معك ومع أمّي حوّاء، لأتعلّمَ منها الكثير والكثير عن عالمنا نحنُ الفتيات والشابّات والنساء الناضجات، أجل يا والدي الحبيب، لأنه إذا قام المُجدّدون بما اقترحته عليكَ، فسوف يحلُّ السّلام، نعم سيحلّ السّلام بيننا، وأنت تعرف من يكون السّلام جيّدا، تعرفُ أنّه ذاك الذي يُسَبِّح الطير بحمده ذو العرش المجيد الفعّال لما يريد، والذي لا يشغله أمرٌ عن أمرٍ وهو كلّ يوم في شأن جديد. فهل ستفعل شيئا ليتحقق هذا يا والدي؟ هل ستفعلُ شيئا لتسترّدَ أبناءَك وتعيدَهُم إلى حضرة الأمن والأمان منْ جديد؟

ضع يدكَ في يدي إذن وقل معي: بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، إنّ ربّي لطيف لما يشاءُ، إنّه هو الحكيمُ العليم.

(٢)

رسالةٌ إلى صديقتي بيرثا فون سوتنر

من باليرمو مدينة القباب الحُمْر والأولياء والصدّيقين والشهداء الأربعين، إلى براغ مدينة المحبّة والعشق، ومنّي إليكِ يا صديقتي بيرثا، سيّدة السلام وصاحبة الرواية الشهيرة (ارموا الأسلحة).

لا أعرف أيّ ملاك همس بقلبي في هذا اليوم الصيفي الجميل من شهر حزيران ٢٠١٦، وحثّني على الكتابة إليكِ قبل أن تُشرق شمس الصّباح؟ قد يكونُ صاحبي جبريل (ع)، طاووس الملائكة المُطوَّق بالنّور، وقد يكون ميكال (ع)، صاحب السّيف الذهبي والخوذة الفضّية، وقد يكونا هُما معاً، فكلاهما عندي نبض الفؤاد وأجنحة الرّوح، كما كانا ولم يزالا بالنسبة لكِ شمعتان أنارتا وتنيران لليومِ المهدَ واللّحد. ولا أعرفُ لماذا الكتابة إليكِ بعد قرن من الزمان مرّ على رحيلكِ؟ كلُّ ما أعرفه هو أنّه لا حجاب الآن يوجدُ بيننا، فصورتكِ أمامي، أتأمّل فيها ابتسامتَكِ الخجولة، ونظرة عينيك الحزينة، وكذا الريشةَ والحبر بين يديك، وأنتِ تخطّين بهما أفكاركِ النيرة للعالم، عساه يعدلُ عمّا هو فيه من جنون.

لا شيءَ تغيّر منذ تركتِني إلى اليوم، ولا حتّى روايتكِ التي كنت تصرخين فيها بأعلى صوتك على لسان البطلة (مارثا): "ارموا الأسلحة"، نفعت في شيء، بل لا أحد يتذكّرُها اليوم، أو يتذكّرُ ما كتبتِ فيها عن معاناتكِ أثناء تلك السنوات المريرة التي لم يكن الناس يعرفون فيها سوى لغة السلاح والديناميت، والبِدَل العسكرية، والأوسمة والتكريمات الحربية، وأصوات حوافر الخيول وهي تركضُ غائصة في وديان الدماء، من إيطاليا إلى النمسا، ومنهما إلى فرنسا وبروسيا.

وحدي يا صديقتي أرى في عينيكِ بقايا تلك السنوات القاسية، ووحدي أعرفُ لماذا تركتِ بسرعة البرق عملكِ في باريس كسكرتيرة خاصّة لألفريد نوبل؛ ليس فقط لأنك تزوَّجتِ سرّاً من حبيب الروح آرثر، وسافرتِ للعيش معه بعيدا عن أهله الذين كانوا يعارضون بشدّة هذا الحبّ، ولكن لأنّ عملكِ نفسه مع ألفريد كان لا يعني لكِ

شيئا بغضّ النّظر عن المراسلات التي استمرّت بينكما كصديقين حتّى بعد الزواج. أقول هذا، لأنني يا صديقتي أعرفُ الكثير عن لباقتك وديبلوماسيتك في تسيير شؤون حياتكِ والتعامل مع نبلاء وأثرياء عصرك. ولأقُلْ بكلّ بساطة إنّ العمل مع رجل اخترع الدّيناميت وكان يعيش هو وأسرته من بيع الأسلحة والألغام البحرية وتمويل الحروب، لم يكن أقصى ما تحلمين به، فأنت مثلي تحلمين بالسّلام، أيْ ذاك القائم على نزع التسلح، والاستغناء عن الجيوش، ولعلّ هذا هو السبب الذي دفعك إلى التردد كثيرا في قبول جائزة نوبل للسلام التي مُنحت لك سنة ١٩٠٥، وإن كان صديقك العزيز ألفرد هو من أوصى بها.

صديقتي بيرثا، أنا مثلكِ لا أثق بمثل هذه الجوائز، ولا أثق برجال السّلام، وأعني بهم أولئك الذين يروّجون للسّلام وأجسادهم مغموسة في الدّماء من قمّة الرأس إلى أخمص القدم. ويستخدمون جوائزهم ومؤتمراتهم لتخدير الشعوب والتغطية على أنشطتهم الحقيقية التي كانت ولم تزل الحروب ثم الحروب. ومجرّد نظرة في لائحة العديد ممّن نالوا من رجال السياسة لليوم جائزة نوبل للسلام هذه، ستؤكد لكِ صديقتي صِدق ما أقول.

هل كان لابدّ أن يموت الأخ الأصغر إميل وعمّال مصنع ستوكهولم، حتّى يستفيق ألفرد من غفوته؟ أجل يا عزيزتي بيرثا، فلكي يصل الإنسان إلى السّلام الحق، لا بد له أن يمرّ أيضا بمرحلة الحرب أيضا، وأعني بها هنا تلك الحرب الداخلية الطاحنة التي يفقدُ فيها الإنسان الشيء الكثير وهو في طريقه إلى تصفية الروح من الشوائب والغبار والعتمة. ولقد استفاق حقّاً ألفرد نوبل من غفوته حينما منحَ كل ثروته وكرّسها للعلم والعلماء والخير والخيّرين من البشر، وذهب للعيش كناسك في مدينة سان ريمو الإيطالية إلى أن انقضى أجله ورحل حيث السّلام الحقيقي، إلّا أنّ الذين أتوا بعده أفسدوا كلّ شيء من جديد، كما يحدثُ عادة أمام موقف الثروة والجاه.

ويبقى سلامك يا حبيبة الروح بيرثا، غير سلامهم جميعا، سلامك هو سلام الأمّهات والجدّات، هو سلام الأنثى العاشقة التي ترفض كل مظاهر الزيف، وتتنازل

عن الألقاب البارونية والكونتيسية بالضّبط كما فعلت أنتِ، حينما ذهبتِ للعيش مع حبيبك والسّهر على شؤونه كما يليقُ بكل عاشقة أن تفعل مع زوجها إلى أن توافيه المنية.

سلامك يا بيرثا هو اختراق الحُجب في زمن لا يعترفُ بأنثى السلام أبدا، وأنّى له ذلك وهو يحبلُ ويُفَرّخ كلّ يومٍ أبناء عاقّين تنكّروا لأمّهم حواء (ع)، فما بالك بباقي الأمهات من براغ إلى باليرمو، ومنهما إلى آسفي ومراكش، ومنهما إلى روما وباريس، ومنهما معا إلى بغداد والحلّة والبصرة والنجف وإلى مدن أخرى لا حدّ لها ولا حصر من كوكبنا البديع. وعلى ذكر الحلّة، يسعدني أن أخبرك بأنّني ذهبتُ اليومَ إلى لقائها وأنا صائمة، رغما عن الحرّ والقيظ والعطش، وحينما رأتني أعطتني ديواني الذي صدر في العراق عن دار الفرات وكنتُ قد كتبتُه عن مريم (ع) وخديجة (ع)؛ حاملتَيِ الطّيب والمسك والعنبر، وراعيَتَيِ السّلم والأمن والأمان في كلّ البلاد.

ألا تعرفين الحلّة يا بيرثا؟ لكنّها هي تعرفكِ جيّدا، ولقد أرسلتْ لمدينتكِ الجميلة براغ شاعرا كان يُعلّم الأجيال معاني السلام والمحبة في مدارسها العتيقة، وأعني به محمد مهدي الجواهري! نعم يا صديقتي؛ أراكِ الآن تبتسمين، وأسمعكِ تقولين: [ومن ذا الذي لا يعرفُ الجواهري؟ قصائده في براها وحسناواتها أعرفها كاملة. وحتى تلك التي قالها في بائعة السّمك حينما كان ذاهبا هو وصديقه الوزير فيصل السامر ليشتري سمكا حيّا، وهناك رأى الفتاة التي سلبت لبّه فقال فيها من الشّعر ما يعجزُ لسان عن وصف بداعته وجماله]. هو كذلك يا صديقتي، واسمعي الآن هذا النجفي ماذا قال في براها ويقصدُ بها براغ، قلب أوروبا ومدينة المئة برج:

(براها، سلامٌ كلما خفق الصباحُ على الهضاب
ما هزّ فجرٌ بالندى خضر الأباطح والروابي
ما طارح الروض الحمامُ لدى الشجيرات الرطاب
ما طارحته حمامة بهديلها، شجو التصابي
براها، سلام ما اكتسى ألقُ السنا مزق الضباب

براها، سلام ما ارتمت كِسَرا أغاريد الشباب
ما فاض كوبٌ بالشراب وخلا على شفتي كعاب)

أجل يا صديقتي، فإذا كان الجواهري نهر العراق الثالث وشاعرها الأكبر، فأنت نهر بوهيميا الأول وبعدكِ يأتي المولدافا. أقول هذا وأعود الآن إلى غرفة مكتبي الورديّة، لأغلق عليّ الباب من جديد، ولن أترك الفرصة لأحد هذه المرة كي يفسد عليّ خلوتي، فحرفي عنيد وصعب المراس، مثلك تماما يا صديقتي، لا تغريني أبدا الكلمات المعسولة ولا القصائد المرشوشة بالسكر الأبيض الناعم. إذ كلّ ما أريده هذه اللحظة، هو أن أدخل إلى محراب قلبي، لأسمع صوت مدينتي آسفي وهي تخاطبكِ بحرف المحبة، وتبثك أشجانَها، وتشكو لك ما ارتكبه ولمْ يزلِ الظالمون حفدة شجرة الزقوم في حقّ أبنائك وأبنائنا من جرائم، إنّهم كما الأمس مصرّون على تدمير كل شيء من حولنا، ويستعينون في هذا بحلفائهم في كلّ مكان، إلى أن اختلط الحابل بالنابل، ولم نعد قادرين على تمييز أيّ شيء.

أمر مؤسف حقا، أن تندلع أفظع الحروب بعد موتك مباشرة يا بيرثا، وأنتِ التي قضيتِ حياتكِ مسافرة وزوجَكِ من بلد إلى بلد لتحدّثان الناس عن السّلام في كل المحافل الدولية، وتنشران بينهم ثقافة جديدة كانوا يجهلون لغتها تماما. ومن المؤسف أيضا أن أكتبَ إليكِ اليوم رسالتي وأنا أعيش زمنا اندلعت فيه أكثر من حرب، واستُخْدِمت فيه أبشع الأسلحة وأفتكها بالإنسان والنبات والحيوان، ومن المؤسف كذلك أن أهجر الشِّعرَ لأكتبَ أيضا عن الحرب بحرف النثر، وأنا أعلمُ أنّ والدتكِ قدْ فعلتْ هذا قبلي وقبلكِ، فهي كانت مثلنا تحبّ الشِّعر والشّعراء، لكن زمن الحروب والموت والفقدان والهجر أنساها كلّ شيء، وحرمَها من أن تنظم قصيدةَ وداع في زوجها الذي رحل وتركها تنتظر خروجكِ إلى هذا العالم الغارق في الظلام البهيم.

من أين أتت هذه الوحوش يا بيرثا؟ إني أخشى أيضا أن يصيب بلدي المغرب الحبيب مكروه؟ أنت تعلمين جيدا أنّه أرض الجمال، وأنني مفتونة به، وأني كلّما زرته، ازدادَ خوفي عليه لما أعاينُ فيه كلّ مرّة من معاني سامية تدعو إلى التآزر والتآخي

بين بني الإنسان بغض النظر عن العقيدة والمذهب والدين. وتعلمين جيدا أنّ الجمال حيثما كان فهو يستفز الشياطين ويثيرُ شهوة الخراب بداخلهم حسدا من عند أنفسهم ليس إلّا. لذا، فإنه لا يسعني اليوم سوى أن أرفع يديّ للمولى عز وجل صاحب السلام الحقّ والأول والأخير، أن يحفظ بلدي بما حفظ ذكره الحكيم، ويُبعد عنه شرّ الخلق ما ظهر منه وما بطن، ويجعله بلدا آمنا في كل آن وحين، لأنه هو وحده شمسي التي لا تغيب، وفيه وحدهُ شربتُ كأسَ الأمان مذ كنت طفلة صغيرة، وفي حضرته أيضا تعلّمتُ كيف أنصِتُ إلى قداسة الأبجدية، وكيفَ أمْسكُ بتلابيب السرّ وأغلِقُ عليه في كهوف وسراديب الصمت الأبدي.

ويبقى العِلمُ صديقتي بيرثا هو سلاح الأمم الحقيقي، والعلماءُ همُ السّفراء والجيوش التي يعوّل عليها فعلا وحقيقة، وما عدا هذا فهراء في هراء. هذا حقا ما علّمني إياه بلدي المغرب. فارموا الأسلحة يا تجّار الموت والحروب في كلّ مكان، ودعوا الخلق والخليقة يعيشان بأمن وسلام، فما من طفل على وجه البسيطة إلا وهو في حاجة إلى العيش الكريم القائم على احترام كرامة الإنسان في كل مجال، بدءا من المسكن والملبس والمأكل والدواء والمشرب، إلى الدراسة والعلوم عبر الاطلاع على حضارات البلدان المجاورة له والبعيدة عنه كذلك. أجل يا صديقتي بيرثا هذا ما يجبُ فعله، ومن يدري فقد يأتي يوم أزورك فيه بمدينتكِ براغ، وكذا في فيينا الجميلة التي تحتضنُ لليوم رفاتك، لأحملَ إليك الشموع وأقدّم بين يديك قلبي حمامة سلام تحرسك أينما كنتِ وحللت، وأردِّد بعلو صوتي كما كنتِ تردّدين: أسقطوا الأسلحة، وأخبروا الجميع بأن يفعلوا الشيء ذاته!

(٣)

الإيمان والموسيقى؛ وجهان لمعزوفة واحدة اسمُها السّلام

الموسيقى وحيٌ أُنزل على الإنسان من سماوات الصّفاء والنقاء ليُعَرِّفَهُ بخالقه، ويُسْعِفَهُ بلغة جديدة يتواصلُ بها معهُ، تكونُ ترتيلةً من تراتيل الرّوح، وترنيمةً من ترانيم الفؤاد، وحبلاً سرّيّاً يُغذّيه بمصلٍ كونيّ ليس له مثيل. إنّهَا كالعشقِ تُفتّتُ بمائِها الزّلالِ قلبَ الصّخر، وتغسلُ همومَ النّفس وأحزانَها. وكالقنديلِ تطردُ العتمة من وجه النهار، وتفتحُ ذراعَيْها لمعانقة كلّ البشر مهما اختلفت لغاتهم وعاداتهم وانتماءاتهم. إنها الفنّ الذي يُجسِّدُ في أحسن صورة سرَّ الخلقِ والخليقة، وهيَ لهذا لصيقة بأهمّ الحالات والتجارب الروحية التي يمكنُ أن يمرَّ بها كلّ كائنٍ في حياته، وأعني بها تجربةَ العشق، ثمّ تجربةَ الموت والفقد، وكذا تجربة التعرفِ إلى اللّه، وهي أمُّ التجاربِ كلّها التي منها انطلقَ كلّ شيء، لذا فإنّ صوتَ الإنسان وحده يُعَدُّ في هذه الحالة غيرَ كافٍ للتعبير عمّا يختلج الفؤاد من المشاعر القوية الجارفة، وهذا ما يُبرّرُ لجوءَهُ إلى اختراع الآلات الموسيقية التي تُعَدُّ القيثارة أكثرها رقيّاً وصفاءً.

وكلّمَا تعمّقتْ علاقة الإنسان المؤمن بخالقه كانت موسيقاه أكثر نقاءً وسُمُواً وشفافية، وأصبحَ أكثرَ قدرةً على فهم أسرار لغة الكون المُشَفّرة بحِبْر الرياضيات، ورُزِقَ منطقَ الطّير والبحر والحجر، وأعْطِيَ مفتاحَ "وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُوراً"، لأنهُ المفتاح الوحيدَ الذي يُخْبِرُ عن لغة أهل السّماء.

الموسيقى عارفٌ كبير يُحَدّثُ أهلَ الصّبرِ عن العرش والكرسيّ، ويعرفُ المعمارَ الداخلي لكلّ الأشياء. إنها ابنةُ النقطة وشقيقةُ الحرف، تجدُها في نبضِ القلبِ، وفي طرفةِ العين، وفي صوت الجنين وهو يطلُّ من عالمِ المشيمة بوجهِهِ المُشرق ليدخلَ إلى عوالم الصّدق والكذب، والبسمة والدّمعة. وتجدُها أيضا في ضحكات الأمّهات وزغاريدهنّ أثناء الأعراس ومواسم حصاد الحنطة وجني العنب والزيتون، كما تجدُها في تراتيلِ الرّجال وسط المعابدِ وتلاواتهم في المساجد وقدّاساتهم

في الكنائس، وكذا في مآقي العرائس العذارى وهُنّ يبكينَ بعد الحروبِ موتَ مُحاربٍ حبيبٍ، أو فَقْدَ جُنديّ قريب.

إنّها رفيقُ الرّوح في رحلة الحياة: رفيقٌ مُجَنَّحٌ لا يعرفُ مقامَهُ إلا الواصلين؛ أصحابَ القلوب الخاشعة، والأرواح المرهفة الرقيقة السّابحة في بحار العلوم. رفيقٌ يراهُ الأعمى والمُبصر منهم، ويسمعُ حرفَهُ الأبكمُ والأصمّ فيهُم، لأنّها من أمرِ ربّي، روحاً تتجلّى مِن الدّاخل، وليس من الخارج أبدا، لذا تجدُ حتّى الأصمَّ يعرفُها، ويسمعُها بأذن غير الأُذن، فيصبحُ ضوءُ الفجر بها عندهُ مسموعاً، وأنفاسُ الحبيبة معزوفةً لا يُعادِلُ صفاء لحنها شيء، وحضورُ اللّيل نوتةً لا يُمكن عزفها أبداً ما لم يبلغ الفؤادُ مقامَ السّلام. لذا فإنّ أجملَ المعزوفات تلكَ التي يعرفُها أصحاب "وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاما"، لأنّهُم أهل السّلامِ الحقّ، أنبياء بدون رسالة وعُلماء بدون كراسٍ، وعرفاء بدون خرقة، ولأنّها وحدَها الموسيقى توحي لهُم بالجمالِ، وتأخذهم إلى فراديس الرؤية والمشاهدة، وجنان الخلّة والوفاء واللّقاء. ولأنّها وحدها الخمرةُ المعتّقة التي ماذَاقَهَا بشرٌ إلّا وعافَتْ نفسُه كلَّ حانات الأرض وأهلها، واللّحنُ البلّوري الذي منْ سمعَهُ ظهرَ لهُ سيّدُ السّلام، وحظِي منهُ بقُبْلةٍ فوقَ الجبينِ، تظلُّ متلألئةً بين عينيه إلى ما شاء الله، وتصبحُ نبعاً يأتي إليه كلّ أهل الموسيقى ليغرفوا منهُ ما يطفئُ ظمأَ الرّوح ويُشْفي أسقامَ القلب والجسد، ويبدّدُ وحشةَ الأماكِنِ.

(٤)

سفيرةُ السّلام، سانتا آغنيس

«المرأة في الإسلام»، كان هذا هو عنوان أوّل محاضرة ألقيتُها في إيطاليا، لا أتذكّرُ كمْ منَ السنواتِ مرّت عليها الآن، ربّما خمسة عشر سنة أو ربّما أكثر، لكنّي أذكرُ أن خيبتي بعد انتهاء المحاضرة كانت عميقة، وحزني أعمق لأنني أدركتُ هولَ الفاجعة التي تعيشُ فيها بعض الشعوب بسبب الأميّة الفكرية السائدة بين أبنائها، ولا سيما المثقفين منهُم، أو لنقل ممن يدّعون الثقافة. وإنّي لأعتقدُ أنّ الجهل في حدّ ذاته ليس عيبا، فهو أمرٌ قدْ يمكنُ تجاوزه بالإكثار من القراءة وأحيانا من خلال الأسفار لمن يستطيع إلى ذلك سبيلا، ثمّ التعمق في تاريخ الحضارات القديم والحديث والمعاصر بعين مُحِبّة، مع السعي نحو الناس خطوة خطوة بقلبٍ صبور، وروح حكيمة يتّحِدُ فيها حرفُ الأمومة بأبجديّة العشق، ليصبح يمامةَ سلام تحلّقُ أينما حلّ صاحبُها. لكنّ الكارثة تصبحُ عظيمةً حينما يكونُ هذا الجهل مُركّباً، أيْ أنّ صاحبهُ لا يعرف بأنه جاهل وأمّيّ في كل شيء، عندئذ لن تنفع معهُ لا كتب الزّبور، ولا الأناجيل، ولا حتّى مصباح علاء الدين السحري، أو مصباح أليسّاندرو كروتو. فهُو هكذا يريدُ أن يبقى جاهلا كحمار يحمل أسفارا بداخلها كلّ كنوز الدنيا، إلّا أنّهُ لا يعرفُ عنها شيئاً، بل لا يريدُ أن يعرف عنها شيئا، لأنه مُكْتَفٍ بما لديهِ ويحسبُه كلّ شيءٍ. وهذا النوعُ من الناس وما أكثرهم، تكونُ عقولهم مختومة وقلوبهم مكفوفة إلا من رحم ربّي وألقى عليه نظرة من عينِ لطفه وعنايتهِ.

هكذَا خرجتُ منَ المحاضرة مُحبطةً وفي رأسي ألف سؤال وسؤال عن سبب هذه الحالة المستعصية من الجهلِ، لماذا لا تسعى وسائل الإعلام العربية إلى تصحيح هذه الصورة المشينة التي ترسّخت في أذهان بعض من أبناءِ الشعوب الغربية عن المرأة المسلمة؟ بل لماذا لا تسعى دور النشر إلى تولّي مُهمّة معالجة ما أفسدتْهُ أيدي العابثين في كلّ مكان عن المرأة والإسلام وما إلى ذلك من المواضيع شديدة الصّلة بهما؟ لكن يبدو أن أسئلتي ستبقى مجرد أسئلة مجازية بدون جواب. لأنّ الأمرَ فيه ما

فيه مما لا يحتملُ الكثير منَ الحديث، لا سيما أنّ المسؤول الأول عن كلّ هذا الهوس هم الغالبية العظمى من القائمين على الثقافة العربية الحديثة منها والمعاصرة على السواء، فهُم لا يعرفونَ شيئا عن احترام الذات، واحترام الفكر، واحترامِ الإنسان أو الحقوق والحريات، إذ تراهُم يتشدقون بكل الشعارات الزائفة في كل مكان، وما إن تضعهم على محكّ التجربة تجدهُم أوّلَ منْ يرتمي في حُضن من يدفع أكثر وأكثر، وكيف لا، وهُمُ المستفيدُ الأول من حالات التضليل الإعلامي السائدة في الغرب، إذ يهمُّهم كثيرا أن تبقى صورتُها مشوهة هكذا في أذهان الناس، وذلك لأسباب عدّة، بعضُها سياسي وآخر اقتصادي وثالث جيوستراتيجي وهلّم جرّ من هذه الأسباب التي يحارُ في تفسيرها حتى الفلكيون والمشعوذون بائعو الكلام في صحف الدَّجَل والفشل الذريع.

منْ ذاك اليوم، أتذكَّرُ أيضا أنني بعد كلّ هذه المراجل من الأفكار التي كانتْ تغلي بداخلي، وبينما كنتُ بصدد الخروج من قاعة المحاضرات بعدَ أن تبادلتُ كلماتِ الشّكرِ والتهاني مع العديد من السادة الذين حضروا الندوة وأنصتُوا إلى كلماتي باهتمامٍ شديد، استوقفني رجل يبلغُ من العمر ثمانين سنةً بقامته الفارعة وجسده الضخم وشعره الأبيض وعينيهِ الثاقبتين، ظلَّ يحدّقُ فيّ طويلا، كمنْ كانَ يحاولُ أنْ يتذكّرَ شيئاً ما، أو صورةً ما، ثمّ فجأة قالَ بصوتٍ مرتفع:

- «أجل، لقد عرفتكِ، إنك راهبةٌ حبيسة، وأنتِ شديدة الشبه بالقديسة آغنيس، نعم أنت هي، أنتِ طفلة رائعة مثلها!».

ارتبكتُ كثيراً، وأصابنِي الفزع من كلماته، لكنّني حاولتُ أن أحافظ على هدوئي وابتسمتُ وأنا أحاول الإفلاتَ منْ نظراته مُكملة المشي علّني أخرج بشكل نهائي من هذه القاعة وبداخلي ألفُ حرفٍ وألفُ كلمةٍ تُردِّدُ أشياءَ كثيرة من قبيل: «... ما كانَ ينْقُصُنِي اليومَ سوى هذا الرجل المجنونُ، إنه يقول إنني القدّيسة آغنيس، لا حول ولا قوة إلا بالله، ألمْ يَكُنْ بيْنَ الجالسينَ، ألَمْ يسمعْ كلماتي باللغتين العربية والإيطالية أيضا؟ ألا يعرفُ أنني جئتُ هنا لأتحدث عن المرأة في الإسلام، ويا ليتني

ما جئتُ ولا كنتُ حتّى أوافق على الحديث عن أمور لا يزيد الكلام فيها وعنها الطّينَ سوى بلّة؟! ما منْ فائدةٍ، لا الصوتُ ينفعُ ولا حتّى الخطاباتُ، عليَّ أن أكتبَ أنا وغيري منَ النّساء، ومنْ كلّ الديانات، فالكتابةُ عن المرأة والإسلام، ليست مهمّة المسلمينَ وحدهم بل هي مهمة كل الأدباء والمفكرين المتنوّرين، عليهم أن يكتبُوا عنها بحرف المحبّة وبكل اللغات، ثم بعد ذلك سيكون فريق آخر يتحدّثُ في الندوات واللقاءات التلفزيونية وغيرها عمّا سنكتبُه جميعا. نعم، هكذا أفضل، فأنا أحبُّ نشر فكْري عبر الكتابة وأتضايقُ كثيراً من الأضواء والحضور بين الجموع الغفيرة من النّاس، لا سيما إذا كان بينهُم مجانين من أمثال هذا السيد الجليل، شافاه الله وعافاه ممّا هو فيه!». هكذا بقيتُ لبضعة ثوان أدمدم بداخلي بعد أن ابتعدتُ عن الرّجل الضخم، ولم توقظني مما كنتُ فيه سوى السيدة التي أشرفتْ على تسيير وتنسيق المُحاضرة وقد كانت تحاول أن تُلفتَ انتباهي وهي تقول :

- «لقد رأيتكِ تتحدثين مع الأستاذ الكبير أنطونيو، وإنّي لسعيدة للغاية بذلكَ، من المؤكد أنه سيكون سعيدا بالتعرف إليكِ، فتاةً على هذا القدر من الذكاء والثقافةِ!».

قالتْ وهي تنظرُ إليّ بعين الإعجاب والمحبّة، فصديقتي كيارا هذهِ لها قلب من ذهب، وتحبُّ الإنسان بما فيه من خير ونقاء، ولا يهمُّها أبدا على أيّ دين هو، ولا من أيّة أرض ينحدرُ، فكلّ الناس سواسية بالنسبة لها، ولا يتفاضلون إلّا بالعملِ الصّالح وتقوى النفوس.

- «ومن يكونُ أنطونيو هذا؟» أجبتُها مازحةً كعادتي معها حينما أرغبُ استفزاز مكنوناتها الدفينة.

أجفلتْ كيارا ثم قالت وهي تبتلع ريقها:

- «إنه عالم كبير من علماء الأنثروبولوجيا عندنا هُنا في إيطاليا، ولهُ كتبٌ كثيرة في مجال علمِه تُقرأ في كل أنحاء أوروبا وأمريكا وغيرهما من مناطق العالم. رأيتكِ تتحدثين معه، فقلتُ في نفسي لا شكّ تعرفينه».

صُعقتُ من جوابِها وعقّبتُ :

- «أتريدين أن تقولين لي إنّ ذلك السّيد المُسنّ المجنونَ عالم أنثروبولوجي؟ قولي كلاما غير هذا يا صديقتي، إنّهُ قبْلَ لحظاتٍ كان يقولُ لي إنني سانتَا آغنيس، وإنّ كلَّ شيءٍ فيّ يُوحي بإنني راهبة حبيسة، بدءا من عيني إلى شكل أصابعي!».

سكتتْ صديقتي لفترة طويلة وكأنّ على رأسها الطير ثمّ قالتْ :

«أوَلستِ كذلك يا أسماء؟ الرّجُلُ لمْ يكذِبْ، وليْسَ بالمجنون أبداً، إذا قال لكَ هذا، فهذا يعني أنكِ كذلك، إنّ أنطونيو ليس بعالم فقط وإنما عارفٌ أيضا، وهو لا يتحدثُ مع أيّ كان، وأنا أوافقه الرأي».

- «أجُننتِ أنتِ الأخرى، أتعلمينَ ما معنى ما تقولينَهُ؟ هيّا دعكِ من هذه الخرافاتِ، وأخرجيني منْ هنا، فقد ضقتُ ذرعاً بالمكان، وإني لأتوسّلُ إليكِ ألّا تناديني مرّةً أخرى كيْ أحَاضرَ في مواضيعَ كهذهِ وما إليها من قبيلِ النّقاشاتِ عن المرأة العربية التي تُبَثُّ في التلفزيون مؤخرا على سبيل الموضة لا أقل ولا أكثر، فيظهرونها بالنّقابِ، أو يكتبون عنها ليرْوُوا للعالم أجمع كيف أنها لا تستطيعُ أن تقودَ درّاجة، أو كيفَ أنّ زوجَها يضربها صباح مساء، إلى غير ذلك من جرائم العنف المنزلي التي تدخلُ في إطار حروب الإعلام الإرهابية المُوجّهَة ضدّ كل ما هو أنثى عربية أو مسلمة، وكأن لا أحد يوجدُ في هذا الكون غيرها».

- «ألَمْ أقُل لكِ إنّ أنطونيو كان مُحقا، إنّكِ تتصرفين مثلهن، أعني الراهبات الحبيسات، ألا تذكُرين كم تحايلتُ عليكِ كي تأتي وتقدّمي هذه المحاضرة التي بهرتِ بها اليوم الجميع من الحاضرين، وعلى الرّغم من ذلك فأنتِ لستِ بسعيدة بهذا النجاح والتألق، وتريدين مغادرة المكان بأقصى سرعة وكأنّ العقاربَ تركضُ خلفكِ، وإني لأقدّرُ وجهةَ نظركِ وأحترمُ جدّاً ما ذهبتِ إليهِ منْ شروحاتٍ حول عملياتِ غسيل الدّماغِ المستمرةّ التي تقوم بها وسائل الإعلام تُجاهَ الحضارةِ الإسلامية، حتّى أصبحَ الإسلامُ وكأنّهُ جرثومة يجبُ استئصالُهَا منْ جسدِ الكون بأسره، وهذا أمرٌ مشينٌ بكلّ ما في الكلمة من معنى. لكنكِ يا عزيزتي إذا كنتِ

تتضايقينَ منْ مناقشةِ مثلِ هذه الأمور وتعتبرينَها هدرا للوقت والأعصاب والفكرِ، أو أنّهَا كما اقترحتِ تقتضي جُهداً علميّاً يعتمدُ الكتابة بشكلٍ أكثر رصانة وحِلماً على الأقل حاليا وفي هذه المرحلة الحرجة من التّاريخ، فإن مذكّرةَ الأنشطة الثقافية لدى مُؤسّسَتِنَا لا تنتهي؛ بعدَ ثلاثة أشهُرٍ سأنَظّمُ ندوةً أخرى وستكونُ هذه المرّة عن السّلام وحوار الديانات، وأريدُكِ أن تكوني بين الأساتذة، كي يكتملَ بهاءُ الكلام بحضوركِ. ستكونينَ طبعاً أصغرَ المحاضرين سنّاً، ولكن هذا لا يعنِي شيئا بالنسبة لي فأنتِ أكبرهُنّ عقلا وتفكيراً، ولهذا ترينني متمسّكة بكِ إلى أبعد الحدود»

عانقتُ كيارا بكلّ ما فيّ منْ حبٍّ، وقلتُ لها :

- «الآن بدأ عقلكِ يعملُ بشكل جيّدٍ يا صديقتي الرائعة، ويا أجملَ أستاذة فلسفة رأيتُهَا في حياتي، وستجدينِي إن شاء الله في اليوم المعلوم. سأكونُ هناك وبين يديّ حقلٌ من ألوان الطيف وقلبي يمامةَ سلام ترفرفُ فوق أشجارهِ وبيْنَ ورودِه وأزهاره».
- «شُكْرُ القلب لك يا صديقتي المتنوّرة، وقدْ سعدتُ للغاية بلقائكِ اليوم، وقريباً على الخير والمحبّة أراكِ مرّةً أخرى».
- «إلى اللقاء يا صديقتِي كيارا».
- «إلى اللقاء يا أحلى سانتَا آغنيس!».

(٥)

راهبة علمانية

وجاء اليومُ الموعود، وخرجتُ بكامل أناقتي إلى الندوة الخاصّة بالسّلام وحوار الديانات. كنتُ ألبسُ قفطانا مغربيا من المخمل الأخضر المطرّز بالورود والطّيور الزاهية الألوان، وأحملُ في حقيبتي اليدوية كتاب الله، وكيف لا آخذه معي، وهُوَ كتابُ السّلام الأول الذي أنزل رحمة للعالمين! وحينما وصلتُ إلى مقرّ ثانوية العلوم الحقّة بمدينة إقامتي، وجدتُ في انتظاري صديقتي كيارا وحشداً مِن الأساتذة وغيرهم منَ المدعوين للمشاركة في المحاضرة. كان كلّ شيء رائعاً، لا سيما جمهور الحاضرين، الذي بدا كأنّه لوحة بديعة ذكّرَتْني بإبداعات الفنانة المغربية العالمية الرّاحلة فاطنة كبوري ولوحاتها الصاخبة بألوان الحياة والمُفعمة سعادة وبهجةً. كان الجمهور من كلّ الأعمار والجنسياتِ والديانات والمعتقدات. فأولئكَ الحسناواتُ الهنديات بفساتينهنّ المزركشة الخلابة، وأولئك الرهبان والقسيسون الإيطاليون بأزيائهم البديعة وصلبانهم الفضّية الجميلة التي تزيّن صدورهم وتبثُّ في المكان الأمنَ والأمان والطمأنينة، وهناكَ في الجانب الآخر راهبٌ بوذي صغير بلباسه البرتقالي كأنّهُ الشمسُ نزلتْ منْ عليائِها لتجلسَ بين الحضور تدفئهم بالمحبّة والبراءة والبهاء، وهناكَ الطالباتُ الإيطاليات اللائي كنَّ يُضْفينَ على المكان رونقاً خاصا، بجمالهن ورقيهن، ولطفِ حضورهن وعذب كلامهنّ، دون أن أنسى طبعا جموعَ الشباب والطلبة الذين كانوا يفيضونَ حيوية وعنفوانا وذكاء!

وكانَ كُلُّ فرد في هذا المكان البديع ينظرُ بعين الدهشة إلى الآخر، نعم، فكلُّ التفاصيل الدقيقة كانت تتحدثُ: الألوان والعطور، والعيونُ الكحيلة والقلوب الخضراء، والضفائر السّود والجدائلُ الشّقْر، والأساور، والقلائد، والأحزمة المطرزة بخيوط الذهب والفضة، والأحذية المزخرفة بأبهى الرسومات والألوان. ثمّ اللغاتُ، وآهٍ من اللغات ياسادتي الكرام، هذه وحدَها كانت كافية لتجعلني أشعر بأنّ الجنة التي طالما حدّثني عنها خالقي هي هُنا على هذا الكوكب الجميل! وكانت هناك بين الحضور أيضاً سيدة

روسية جميلة تنظرُ إلي باهتمام شديد، وحينما لم تستطع أن تتمالك نفسها أوتتحكّم فيما كانَ يتحرّكُ بداخلها من فضول المعرفة، قامتْ واقتربتْ منّي وقالت بلغة إيطالية متلعثمة: «أنتِ يا سيدتي تُذكّريني بأيّام الزمن الجميل، أعني أيّام روسيا القيصرية وإمبراطوراتها الحسناوات الكريمات» ابتسمتُ، وشكرتُها على مُجامَلتها اللطيفة، وأجبتُها: «أعتقدُ أنّ الجمالَ والكرم لم يكنْ سمةً تُميّز فقط روسيا القيصرية، ولكنّهُ ظلّ يرفرفُ في روبوعها حتّى بعدَ الأنظمة الإمبراطورية»، ضحكتْ طويلا، وقالت: «هذا يعني أنّك يا سيدتي الموقرة شيوعية الهوى والمذهب»، «لا يا سيدتي الجميلة، لستُ بشيوعية ولا حتى بقيصرية، ولكنني أعرفُ الكثير عن روسيا وتاريخها المشرق الجميل، وآدابها ومفكّريها الذين بهروا العالم بكلّ ما هو جديد وعميق»، «لا أدري لمَ يساورني إحساس بأنني أعرفكِ منذ زمن طويل، هل أنتِ من أصل روسي، أو علَّ أحدَ أقاربكِ أو أجدادكِ الأوائل كان روسياً؟» عقّبتِ السيدةُ الحسناء بلطف شديد، ثمّ أجبتُها مازحة والابتسامةُ لا تفارق شفتيّ: «أجلْ يا سيدتي، إحساسُك في محلّهِ، فجدّي الأول محمّدوف كانَ من أوائل الشيوخ المغاربة الذين أُرْسلُوا في بعثة عسكرية رسمية إلى موسكو، وهناك التقى بسيدة روسية فاتنة الحُسن والبهاء فتزوّجَها وعاد بها إلى المغربِ، وفيهِ أسّسا معاً عائلة كبيرة يناديها الجميعُ في المغرب بعائلة محمدوف وفاطنتوف الروسية، وإنّي لأعتقدُ، أنّ بعضا من ملامح الجمال الروسي التي رأيتِها فيَّ سببُها هذا المزيجُ الجميل بين دمائنا، ولربّما هو أيضا سببُ انجذابك إليّ!»، ثمَّ ضحكتُ من أعماق قلبِي، وقلتُ مكملةً وقد رأيتُ علامات السعادة والبهجة فوق مُحيّاها: «ألا يُمكنُ أن يكونَ سببُ القرب والمحبة إنسانيا محضاً مثلا؟ أنا فقط كنتُ أمزح معك، فلستُ بروسية وليس لي أجداد روسيون أو أيّ شيء آخر من هذا القبيل، ولا أعتقدُ أنّهُ يجبُ أن أكونَ روسية كي تحبّيني، أو أن تكونِي أنتِ مغربية كي أتودّدَ إليكِ. أنا يا سيدتي منَ المغرب، بلد المحبة والجمال والخير العميم، بلد البركة والإيمان والسلم والسلام، والحضارة العريقة، والمُدن الصوفية، والقلوب الطيبة، وفيهِ يعيش الناس من كل عرق وجنس ودينٍ وكأنهم إخوة لا يتفاضلُون فيما بينهم إلّا

بالعمل الصالح. وبغضّ النّظر عن هذا فيجبُ ألا ننسى أيضا ما كان يجمعُ ولمْ يزلْ بين بلدانيْنا من علاقات تاريخية ودبلوماسية عريقةٍ جدّاً، فهناكَ على سبيلِ المثال لا الحصرِ زيارة العاهل المغربي الحسن الثاني رحمه الله إلى موسكو في تشرين الأول ١٩٦٦ والتي تمّ خلالها التوقيع على اتفاقيات التعاون في مجاليْ الثقافة والبث الإذاعي والتلفزيوني، ومجالات أخرى ذات طابع علمي وتقني محض. ناهيكِ عن زيارة ولي العهد المغربي آنذاك، وملك المغرب اليوم محمد السادس لموسكو على رأس وفد مغربي في عاميْ ١٩٨٢ و١٩٨٤. وإلى هذا أضيفُ أيضا زيارة رئيسيْ مجلس السوفييت الأعلى وغيرهما إلى المغرب وأقصدُ؛ ليونيد بريجنيف في شباط ١٩٦١، ونيكولاي بودغورني في نيسان سنة ١٩٦٩، ورئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفيتي ألكسي كوسيكين في تشرين أول من عام ١٩٧١، واللائحة طبعاً طويلة، فتاريخُ روسيا والمغرب لم يبدأ اليوم فقط، ولكنّه مغرق في العراقة والأصالة»، «طبعا، يا سيدتي فعلى الرغم من ثقافتي المحدودة إلا أنني أتذكَّرُ تماما ما قرأته في بعضِ كتب التاريخ عن العلاقات الروسية المغربية، ففي الربع الأخير من القرن الثامن عشر وبواسطة ممثل السلطان محمد الثالث بن عبد الله في توسكانا هنا بإيطاليا، تمّت إقامةُ اتصالات دائمة بين روسيا والمغرب. كما تبادلَ رئيسا الدولتين الوثائقَ التي عبّروا من خلالها عن رغبتهما في التأسيس لعلاقات صداقة قوية، وعلاقاتٍ تجارية تضمن استمرار التعاون والتآزر فيما بينهما»، «رائع جدّا ما تقولينه، يبدو أنّ حوار الحضارات قد بدأ بيننا قبل أن تبدأ المُحاضرة، وإني لا أرى من داعٍ لاعتلاء منصة الخطاب وإلقاء كلمتي عن السّلام وما إليه، فكلّ ما حولنا ينطق حبّا وسلاما وانسجاماً»، «لا يا سيدتي الكريمة، أريدُ أن أسمعك هنا وعلى المنصّةِ أيضا، فإني أعتقدُ أن لديك الكثير مما يجب أن نعرفهُ منكِ عن ثقافة السلام»، «أستأذِنُكِ إذن، فيبدو أنّ الندوة على وشك الانطلاق. تشرفتُ بمعرفتكِ، وإلى لقاء قريب».

بدأتِ الندوة، وألقى كلّ من الأساتذة بكلمته، وحينمَا جاء دوري طلبَ مني الحضور أنْ أقرأ شيئا من الذكر الحكيم بعد أن كنتُ قد أنهيتُ كلمتي وخطابي. عندئذ

أخرجتُ مصحفي الصغير من حقيبتي اليدوية ولبّيتُ طلبهم بكلّ محبة وسرور، إلا أنني تفاجأتُ كثيراً حينما رأيتُ امرأةً ـ كانتْ تجلسُ بجانبي إلى طاولة الندوة ـ تبكِي في صمتٍ وبعُمقٍ شديدٍ وهيَ تسمعُ بعضاً من آيات سورة مريم على الرغم منْ عدم فهمها لمعانيها، ذلكَ أنني لمْ أكُ بعْدُ قدْ قرأتُ التّرجمَةَ الإيطالية للآيات المنتقاة من السورة. وقد كان لدموعها هذهِ وقعاً عظيماً في قلبي، لدرجة أنني حينما انتهتِ المحاضرة، ذهبتُ إليها وحييتُها بأحسن ما تكونُ التحية، وسألتُها عن سبب بكائها، فعجزتْ عن التفسير والشرح، وقالتْ لي بالحرف الواحد: «لا أدري كيفَ حدث ذلك، لكن لي رجاء بسيط عندكِ: هل يمكنكِ أن تعطيني قرآنك الكريم؟!» وفي هذه المرّة بكيتُ كما لم أبكِ قَطُّ من المحبّة والفرح، لأنني في تلكَ اللحظة أحسستُ بشعاع يمامة الرّوح القدس وهو يخترقُ قلبَيْنَا معاً، فأصابتنِي رعشة قويّةٌ اهتزّ لها كلُّ بدني وقلتُ وأنا أمسح بمنديلي دموع عينيّ المتهاطلة: «وكيفَ لي أن أرفضَ لكِ طلباً كهذا يا سيدتي، خذي القرآن وخُذي أيضا ترجمته الإيطالية فلربّما تحتاجينها لتدبّر معانيه»، «أرجوكِ لا تقولي لي سيدتي، فأنت السيّدةُ هنا، وما أنا سوى راهبةٍ بسيطة، جاءت لتَحضُرَ محاضرة كانتْ تحسبُها كباقي المحاضرات، فإذا بها تتفاجأ بنورٍ يخترقُ قلبَها اسمه السلام والمحبة»، «أقلتِ إنّكِ راهبة؟ لكنّي لا أراك بزيّ الراهبات، ولو أنّي أعلمُ جيدا أنه ليس الزيُّ الذي يجعلُ من الإنسان راهبا أو خادما لله»، «صدقتِ، أنا راهبة بدون زيّ رسمي، ذلكَ أنّ هناك في ديانتنا نوع من هذه الرهبانية، يمكنكِ أن تسمّيني راهبة علمانيةً إذا شئتِ، لأنّنِي اخترتُ أنْ أكونَ خادمةً لله بين الناس، لا أغلقُ عليَّ معبداً أو محرابا، لأنّ محرابي الحقّ هو وسط مخلوقات الله، أرعاهُم وأسهرُ على شؤونهم بقدر المُستطاع وفي كلّ مكان منَ الأرض، دون أن أفرّق بين أحد كيفما كان جنسُه أو دينه أو عرقه، أوَليْسَ سيدنا يسوع من قال: [أَحِبُّوا أَعداءَكم وصَلُّوا مِن أَجلِ مُضطَهِديكُم، لِتَصيروا بني أَبيكُمُ الَّذي في السَّمَوات، لأَنَّه يُطلِعُ شَمْسَه على الأَشرارِ والأَخيار، ويُنزِلُ المَطَرَ على الأَبرارِ والفُجَّار. فإِن أَحْبَبْتُم مَن يُحِبُّكُم، فأَيُّ أَجْرٍ لكُم؟ أَوَلَيسَ العَشّارون يفعَلونَ ذلك؟ وإِن سلَّمتُم على إِخوانِكم وَحدَهم، فأَيَّ زِيادةٍ فعَلتُم؟

أَوَلَيسَ الوَتَنِيُّونَ يَفعَلونَ ذلك؟ فكونوا أَنتُم كامِلين، كما أَنَّ أَباكُمُ السَّماويَّ كامِل]؟!»، «وهل ثمّة أحسنُ وأعمق قولا مما قاله سيدنا يسوع، لقد قدّم للنّاس وصفتهم السحرية للعيش في سلام أبديّ: أن يُحبّ الإنسان عدوّه، لكن مع كامل الأسف، كانت هذه الوصفة هي الامتحان الذي فشل فيه الجميع، إلّا ثلة قليلة جدّا»، «أجل، فشل الجميع، وهذا هو سبب تعاسة الإنسان اليوم وفي كل العصور سيدتي أسماء».

بهذه الكلمات ودّعتْني كلاوديا الراهبة "العلمانية"، صديقة روحي الجديدة، ووعدتْنِي بأنها ستأتي لزيارتي في أقرب فرصة ممكنة، إلا أنّ شواغل الحياة أغرقتنا معاً في البعد والغُربة، لكن قلبي كان كلّما تذكّرها خفق بقوّة، وإني لأعرف معاني خفقانهِ هذا جيدا، فهو كان يقولُ لي إنّه كما أنتِ تفكرين فيها فهي أيضا تذكركِ بالخير والمحبة، إلى أن جاء يومٌ اشتدّ فيه خفقانه بشكل غير عادي بينما كنتُ أحاول أن أفسّر ما معنى أن يكون الراهبُ "علمانيا" في عصرنا الحالي، وحينما كنت أقولُ في سرّي إنّهُ شيء أقربَ إلى ما قاله ربّ العزة لرسوله في سورة الفرقان لنبيّنا الكريم محمد صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله الأطهار الطيبين: «بسم الله الرحمن الرحيم، وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا»، إذا بهاتفِ البْيتِ يرنّ بقوة، وحينمَا رفعتُ السّمّاعةَ جاءنِي صوتُ والدة كلاوديا وهي تقول باكية: «البقاء لله، لقدْ ماتت كلاوديا، وإنّها هي التي أكدتْ عليّ قبل رحيلِها وأوصتني بأنْ أكلّمَكِ، وتريدكِ أنْ تحضري مراسيم جنازتها».

ذهبتُ إلى بيت كلاوديا لأوّل مرّة في حياتي، وما إن رأتنِي والدتها حتى بادرت إلى تقبيلي واحتضاني بقوّة، وكأنها كانتْ تَجِدُ فيّ ريحَ ابنتِهَا، وحينمَا سألتُها عنْ سببِ الوفاةِ قالتْ لِي: «لقد كانتْ كلاوديا تُعاني في صمتٍ من سرطان خبيثٍ كان ينهشُ جسدَهَا الجميل ويقضمُ سنين عمرها الفتيّ بسرعة كبيرة، إلا أنها كانتْ تحاولُ أنْ تخفي ذلك عن أصدقائها، إلى أنْ تدهورت حالتُها وأقعدها المرض الفراش لما يزيد عن ثلاثة أشهر، وعلى الرغم من ذلكَ كانت تشعرُ براحة نفسية عجيبة،

وخدَرٍ لذيذ كان يرفعُ من معنوياتها، والغريبُ في ذلكَ يا ابنتي أنها كانتْ تقولُ لي إنّكِ أنتِ السّبب فيه، لأنكِ كنتِ تزورينها يوميا في رؤاهَا "العرفانية" وهي على فراش المرض، وكنتِ تُخَفّفِينَ عنها الألَمَ والحزن، وقد تركتْ لكِ هذه الهدية وأوصتْ ألّا تفتحيها إلا بعد عودتكِ إلى بيتكِ».

انتهت مراسيم العزاء، وودّعتُ صاحبتي الروحية في المحبّة ورائدة السلام الجديدة، وعُدتُ إلى بيتي، وهناكَ فتحتُ هديةَ كلاوديا، ويا لجمال وبهاء ما وجدتُ: نسخةً من الكتاب المقدّس باللغتين العربية والإيطالية، وإلى جانبها مُصحفِي الذي كنتُ قد أهديتُه إيّاها حينما التقينا أوّلَ مرة في تلك الندوة عن السلام وحوار الثقافات، مع رسالة مطولة كانت تتحدثُ فيها عن ينابيع المحبة وتجلياتها التي تفجرتْ في قلبها بعدما عرفتنِي ورأتنِي، فلقدْ كنتُ أزورها حسب ما روته في رسالتها طفلةً سمراء حسناء بفيهٍ باسمٍ، وشعرٍ كثيف متجعّد منفوش كأنّهُ شمسٌ مُشاكسة متوهجة في قلب السماء. كانت كلاوديا بكلماتها هذه تريدُ أن تقول لي إنّ مكانتي في قلبها عظيمة، لكنها نسيتْ أنْ تقولَ إنّها هيَ حمامةُ السلام التي التقيتُها هناك، لا بلْ كانت هي نفسها السّلام مُتجليا في أبهى صورة، لذا فإنهُ كلّمَا حضرتْ في ذهني وتفتحت زهرتُها في قلبي أشعلتُ الشموعَ كي أقول لها: «شكرا يا كلاوديا، لأنكِ كنتِ وما تزالين عطيّة من عطايا ربّ السلام وصاحبه الأول: الرّحمن على العرش استوى».

(٦)

كيارا: الشّمعةُ العارية

١٩٧٩ كانتْ في حياتي سنة العُرِي والتعرّي بامتياز، صحيح أنّني لمْ أكُ قدْ تجاوزتُ آنذاك سنواتِي السّبْع، لكنْ حدث لي من الوقائع والمشاهد ما لا يصدّقهُ بشر، عرفتُ من خلالها معنى أن يكونَ الإنسان عارياً ومُتجرّداً منْ كُلّ شيءٍ؛ فذاتَ صباحٍ بينما كنتُ بصدد مغادرة المنزل قاصدة المدرسة، فتحتُ الباب وإذا بي أجدُ امرأة مُسنّة جالسة عارية كما ولدتها أمّها أمامَ العتبة، وكانتْ منهمكة في تمشيط شعرها بمشط طويل قديم رفيع الأسنان. ارتعبتُ في البداية من المنظر القاسي على قلبي، إلا أنّ المرأة حاولت أن تُهدّأ من روعي بكلمات قالتها بوجه بشوش وعينين ثاقبتين: «لا تخافِي يا ابنتي، فإنّي لمْ أجِدْ في هذا الحيّ أأمنَ من عتبة هذا البيت كيْ أمشط فيها شعري، وأُدْفِئَ عظامي بأشعة الشمس المتوهجة هُنا». «ولماذا أنت عارية؟» سألتُها وقد ذهبَ عنّي الخوفُ والارتباك. «لأنني لا أخاف من شيء، ولا يراني أحد». أجابت بصوت خفيض، وهي تحاولُ قتلَ قملتيْنِ سقطتَا من المشط فوق منديل رأسها الأبيض الذي كان لا يُغطي من جسدها سوى منطقة العورة والجزء الأوّل من الفخذين. «أنتِ مخطئة يا سيدتي، كل الناس في الشارع ينظرون إليكِ، وفيهم من يضحك من منظرك، أرجوك استري نفسك»، ثم نزعت معطفي ورميتُه فوق صدرها، لكنها رمتْهُ فوق الأرض، وقالت من جديد: «وهل أولئك ناس، هل هم من أبناء آدم؟ أنا لا أراهم. هل فيهم من يستطيع أن يتعرّى مثلي؟». ابتسمتُ وقلتُ في خاطري: [طبعا لا، وهل هُم مجانين مثلك؟]، ثُمّ غادرتُ المكان قاصدة مدرستي وتركتُها وشأنها حينما فهمتُ ألا جدوى من الحديثِ مَعَهَا.

ومرّت الأيامُ سريعة، وحدثَ لي في السّنةِ نفسها ما لمْ يكُن في الحُسبان، ذلك أنني حينما كنتُ مارّة بأحدِ الشوارع الرئيسة للمدينة التي رأيتُ فيها النور قاصدة منزل جدّتي، إذا بفتاة عارية تماما تعبر الشارع من الجهة الأخرى بسرعة البرق، وما إنْ أصبحتْ بقربي حتى هوت عليّ بعصا طويلة كانت في يدها، وضربتْنِي بها ضربة

قوية على ظهري. صرختُ بكل ما فيّ من صوتٍ، ولمْ أدْرِ كيف انتزعتُ العصا من يدها وضربتُها كما ضربتي على ظهرها، دون أن أخاف من موجة الهستيريا التي كانتْ تُشعُّ من عينيهَا. فقد كان جليا أنني أمام فتاة مجنونةٍ، وقبل أن أستيقظَ من هول المفاجأة سمعتُ الناس يصرخون في الشارع من حولي: [انتبهي إنها مجنونة، لقد هربتْ من المستشفى]، ثمّ رأيتُ بعد ذلك جمعا من الممرضين يركضون خلفها محاولين الإمساك بها لوضعها في السيارة ثم أخذها إلى المصحّة العقلية التي كانتْ لا تبعد كثيرا عن الشارع الذي كنتُ فيه. لكنّني قبل أن أبتعدَ عنها، أذكرُ أنّهَا قالت لي ضاحكة بشكل مَرضِيٍّ: «برافو عليكِ، أنا من حين لآخر أهربُ لهم من المصحة، وأبثُّ الرُّعبَ في الشّارع، وأضربُ الناس، لكن لا أحد سبق له أن تجرّأ قبل اليوم على ردّ الضربة لي كما فعلتِ أيتها الصغيرة. كم عمرك؟ هيّا قولي؟ وإلى أين أنت ذاهبة؟ آه عرفت، إلى جدّتكِ. لا تنسي أن تسلّمي عليها وتقولي لها: إنك ستصبحين كاتبة عظيمة، خبيرة بأهل العرفان والجنون. آه نسيت أن أقول لك: أنا لستُ بمجنونة، لكن هوايتي أن أمثّل دور المجنونة؟ أحبُّ زرعَ الخوف والفوضى بين هؤلاء الناس الأشقياء القانعين بحياة الخمول، وحياة الحجب عن الملكوت. تبّا لهم، لا يعرفون كيف يشغّلون عقولهم ولا كيف يحبّون بقلوبهم. آآه لقد ضجرتُ منهُم، وضجرتُ من كل هذه الدنيا البئيسة».

لا أعرفُ كيف جمّدتني كلماتُها في مكاني، ولا أعرف من أين علمتْ بأنّني ذاهبةٌ عند جدّتي، ولا لماذا قالتْ لي إنني سأصبح كاتبة! كنتُ في تلك اللحظة كمنْ يعيشُ في بُعد زمنيّ ومكانيّ آخر غير ذاك الذي كنتُ فيه حقيقةً، وكان كلُّ شيء يُحدّثُني بلغةٍ أفهمها جيدا وإن كنتُ صغيرةَ السّنِّ. وشعرتُ وكأنني أفهم لماذا العُري والتعرّي. وأصبحتُ منذ ذاك الحين لا أخشى الناسَ الذين يستطيعون التعرّي أمام الملأ، فهُم في عرف العامّة مجانين يدعون إلى الشّفقة، وهُم في عرفي غير ذلك تماما. حتّى أنني استطعتُ بعدَ شهر من حادثة هذه الفتاة أن أتقبّل بقلبٍ مطمئن سليم مشهدا آخر كانَ لرجل رأيتُه هو الآخر عاريا حافيا كما خلقه الله وأنا بصدد الذهاب

إلى فُرن الحيّ لجلب خبز البيتِ منهُ، كان الجوّ قائظا وكانتِ السّاعة تشير إلى الثالثة بعد الزوال، وكان الزقاق المؤدي إلى الفرن خاليا منَ المارّة، وكلّ أبواب المنازل مغلقة، إلا بيتا واحدا، كان يوجدُ في الدور الأرضي، كانت له نافذة تطلُّ على الزقاق، وقد كانت مُنخفضة جدّا لدرجة أنني رأيتُ منها الرجل وهو يتعرّى كاملا في سريره، ويخرجُ مباشرة إلى الزقاق. لمْ ينْتبِه لوجودي، فقد كان مرفوعاً ومُغيّباً في عالمه الخاصّ، لكنني بقيتُ أنظر منْ بعيدٍ إلى أين هُو ذاهب، حتّى ابتلعه الزقاق الموازي لذاكَ الذي كنتُ فيه.

عدتُ إلى البيت ولوحةُ الخبز الخشبيّة بين يديّ، ولم أحدِّث والدتي بأيّ شيء مما رأيتُ كما هي عادتي في مثل هذه المواقف التي لا يُصدّقها عقل ولا تخطُرُ على بال بشر، فقد كنتُ منذ صغري أخشى عليها من المَشاهد الحساسة، وعلى قلبِها المرهف من أشياء لا قدرة لها على تأويلها أو استنباط معانيها، لا سيما أنني كنتُ أعلم مدى خوفها الشديد منَ المجانين. لكن قصّتي معَ مَشاهد هذه السنة لمْ تنتهِ هنا، ولكنّها بدأتْ حقيقة في الأواخر العشر من رمضان السنة ذاتها: أذكرُ أنني كنت غاطّة في نوم لذيذ بعد أداء صلاة العشاء، وكنتُ أفكّرُ بقلبي الطّفل في مائدة السّحور التي ستُعدُّها والدتي كيفَ ستكونُ، وكانتْ أمنيتي أن تضعَ بين أطباقها الشهيّة سمكاً، فأنا كنتُ ولمْ أزلْ أحِبُّ السّمَكَ جدّا جدّاً، لكنِّي وبينما كنتُ غارقة في أحلامي السّمَكيّةِ، إذا بي أسمعُ صوتاً باكياً منْ خارجِ البيتِ يقولُ: «إلهي، وإله الناس أجمعين، يا من يحار في فهمه العارفون، يا حبيب الأطفالِ وأباهم الحنون وأمّهُم المعطاءة، ألمْ يحِنِ الوقتُ بعدُ كي يترجّل هذا الفارسُ عن الصّليبِ؟ متى ستُخرجُني من عين إبرتكَ الضيقة هذه يا إلهي؟ إذا كنتَ أنتَ لمْ تستكفِ بعدْ، فقدْ بلغ منّي الألمُ والوجعُ مداه، أغثني يا غيّاث، واعفُ عنّي وارحمني من خمرة العربدة وأهلِهَا، أيرضيكَ أنْ أبقى هكذا مُدمناً عبداً ذليلا لقنينة لا تساوي فلسا، أيرضيكَ أنْ يركُضَ الأطفالُ خلفي يضربونني بالحجر صباح مساء، آآآآهٍ يا إلهي، الغوث الغوث الغوث يا مولاي...» ثمَّ تلتِ الكلمات صرخةٌ عظيمة جعلتنِي أقفز من سريري الصغير لأتوجّه

إلى نافذة غرفتي وأفتحَها، عَلّي أنظر إلى صاحبِ الصرخة في تلك الساعة المتأخرة من ليلة الواحد والعشرين من شهر الصيام، ويا لهول ما رأيتُ: كان الرجل يقف عاريا إلا من سروال قصير جدّا في وسط الدّوار المروري الذي كانَ يصلُ الشارع الرئيس بشوارع متفرقة أخرى. وكانَ أشعث الشعر، طويل اللحية، ويبكي بحرقةٍ شديدة. أثّر فيّ منظرهُ بقوة، ولا أعرفُ كيف أنني خرجتُ مُتسحّبة على أطراف أصابعي حتى لا أوقظ أحدا من والديَّ وإخوتي، وذهبتُ إلى الرّجُل العاري، تاركةً باب البيت مواربا، وحينما وصلتُ إلى الدوار وكان قريبا جدّا من منزلنا، جلستُ عندَ قدميْهِ، أستمع إلى مناجاته الليلية مع الله. كانَ يُخيّلُ إليّ بأنّ الرّجلَ لمْ ينتبِهْ إلى وجودي، لأنهُ لمْ تصدُرْ عنهُ أيّةُ حركةٍ تُنبئُ بأنّهُ رآني، لكنّ ظنّي لم يكن في محلّه، فالرجل وهو في عمق دعائه وصلاته وضعَ يدَهُ فوقَ رأسي وأكملَ مُسامَرَتَهُ الطويلة التي مازلت لليوم أتذكّرُ كل كلمة وحرف فيها، وكيفَ لا أتذكّرها وقد خبرتُ بها معنى أن يفنى العابدُ بين يدي ربّه إلى أن يصبح لا شيء يُذكر، ويلتحمَ مع الكون بأسرهِ. نعم يا أحبّتي، ذاكَ كان شعوري في تلك الليلة الرمضانية العجيبة: لقد أصبحتُ لا شيء، اختفيتُ واختفَى الرجل واختفى الدّوار بل اختفتِ المدينة كلُّها، ولم تبقَ سوى كلمات الدعاء تترددُ بين الأرض والسماء. كان هذا الإحساس بالاختفاء جديدا عليّ، لمْ يسبقِ لي أبدا أن خبرتُه، إلا إنني حينما عدتُ إلى نفسي، وظهرتُ لها جسدا وروحا، لمْ أجدِ الرجل بجانبي، ظلّ مُختفيا، والتفتُّ عبثا من حولي، لكن لا أثر لهُ، وما كان سوى أن عدتُ أدراجي إلى البيت، واستلقيتُ من جديد فوق سريري، أنتظر أن تدقَّ ساعةَ المنبّهِ معلنةً حلول وقتِ السّحور، فقد كانت والدتي تدرّبني على الصيام مُنذ نعومة أظافري، وكنتُ أجدُ متعةً عظيمةً في ذلك. لمْ أخْبِرْهَا طبعا بأمر الرجل العاري، مخافة ألّا تصدقني، لا سيما وأنهُ كان قد اختفى، وخشيتُ أن تقول بأن الأمر كله كان مجرد حلم من أحلامي العجيبة.

هل اختفى الرّجلُ المدمن للكحول، العابدَ المناجيَ لربّه حقّا في تلك الليلة؟ ربّما يكون الجواب نعم. لكنّ الذي أعرفُه أنّه حينما كبرتُ، ظهرتْ في حياتي نماذج

أخرى من هذا الرّجُلِ، وكان معظمهم من المدمنين للكحول، وكانتِ كيارا أستاذة الفلسفة التي عرفتها هنا في إيطاليا وصاحبة المبادرات والمحاضرات عن السلام والمحبة الكونية منهم. لكنّ الفرق الوحيدَ الذي كان بينَها وبين رجل المدار هُو أنّ هذا الأخير حينما عرفتهُ في طفولتي كان يبدو عليه الإدمان والوجع والألم، أمّا كيارا، فكانتْ تبدو إنسانة عادية للغاية، رزينة، هادئة ومُدرّسةً بارعة يشهدُ بالتزامها وتفوّقِها الفكريّ الجميع. هذا كان ما يبدو طبعا للنّاس، لكنني كنتُ أنظر إليها دائما بعين مختلفة: لونُ عينيها كان فيه شيء يشي بالحزن العميق والفقد الأليم، لونُ شفتيها كذلكَ كان فيه شيء يقول إنها تعاني من حرمان جسديّ ما، حرمان قد يكون ذا طبيعة أسريّة، أو عشقيّة، شكلُ أظافرها كذلك كان يشير إلى قلقٍ نفسي مكتوم، فلقد كان يبدو جليا أنّ هذه الأخيرة غير مقصوصة بمقص الأظافر، وإنّما مقضومة قضماً بالأسنان وإنْ لم يسبق لي أبدا أن رأيتها وهي تقضم أظافرها أمام الغير أو حتّى أمامي. أمّا شعرُها فكان شاحبا رمادي اللون كأنه عشّ لقلق جريح. كلّ هذه العلامات وغيرها كانت توحي بوجود شيء ما غير طبيعي في صديقتي: جرح دفين، أو سرّ غريب، زاد من غموضه رائحةُ العطر الذي كانت تتعطّر به دائما، لأنه قريب إلى حدّ ما من رائحة الشامبانيا. لقد كانتْ تحاول أن تخفي شيئا ما بهذا العطر، وكنتُ أشعرُ كلما التقيتُ بها أنّها تتحرّج من مُعانقتي. كنتُ أعلم أنها مثلي على قدر عال من الحساسية، وأنّها ربّما شعرتْ بما كنت أحاول أن أفهمهُ عنها، فأنا إذا ما أحببتُ شخصا ما، صديقا كان أو أخا، أو أختا، أو زميلا، أطلقتُ العنان لقلبي كي يجسّ نبضَ قلبه وفكره حتى إذا ما لمستُ جرحاً حاولتُ تضميده وإن بطريقتي الخاصة، أيْ بشكل لا أجعلهُ يشعر بمرهم المحبّة بين أصابعي. لمْ أكن أبدا لحوحةً مع كيارا، لكني لفترة ما أدمنتُ قراءة أشعارها، فقد كانت شاعرة أيضا، والبديعُ في كلّ هذا أنني كنت أجدُها عاشقة للمسيح في كل سطر من سطور كتاباتها وإن لم تكن تذكر اسمه أبدا، الشيء الذي كان يدفعني إلى التساؤل دائما: كيف لأستاذة فلسفة شيوعية ملحدة، لا تعترف بأيّ دين تماما أنْ تكون على هذا القدر من الصوفية والعرفانية، بل أنْ تكون

قادرة على هذا النوع من العشق العجيب الذي يربطُ وعيها الباطن بالمسيح؟! أعلمُ أنّ الأمر يتعلّقُ بسؤال مُحرج تناقُضِيّ، لكنني وجدتُني أصطدم به لمرّات عديدة ومعَ أكثر من شخص من المثقفين الملحدين، أجل يا أحبّتي، هؤلاء الملحدون غالباً ما يحملون بدواخلهم إيمانا يهدّ الجبالَ، إيماناً لا يمكنُ أن يراهُ إلا ذوي البصيرة الذين يخترقون بقلوبهم الأشكال الخارجية الزائفة وينفذونَ إلى عمق الرّوح. والغريبُ في الأمر أنني كنتُ دائما ما أبتسمُ إذا ما صادفني ملحد ذو ثقافة عميقة يجادلني في الله، ذلك أنني كنتُ أرى الله في قلبه كلّما أصرّ هو بلسانه على إنكاره: هؤلاء الشريحة من الملحدين، غالبا ما تقول ألسنتهم ما لا تبوحُ به قلوبهم، أشعارهم تقول هذا، كتاباتُهم الفلسفية العميقة، ولو أن الخلائقَ توقّفتْ ولو قليلا لتسمع كلام القلوب، لما تمّ تكفير أحدٍ أبدا، فلا يوجدُ على وجه الأرض كلها إنسان أو شيء كيفما كان نوعُه أو طبيعته إلا ويعرفُ اللهَ ويعترفُ بهِ، إلا أنّ للخالقِ تصاريف في تسيير شؤون كونه، فشاءَ أن يظهر اسمه على عبادٍ، ويبقى خفيا في أصْلُبِ عباد آخرين، وإلّا فما معنى قوله جلّتْ قدرته في الآية ٤٤ من سورة الإسراء: «تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا»؟!

كيارا كانتْ من هذا النّوع منَ العباد، أعني أولئك الذين يسبّحون بجسدهم، ويحملون الله في قلوبهم، ويكتبون عنه في أشعارهم بأسماء مختلفة غير اسمه الصريح، لكنّها حينما تكونُ بين الناس، تقول عكس ما يضمره جسدُها وكلّ ما فيه من خلايا. كيفَ عرفتُ ذلك؟ زيارة بسيطة على غير ميعاد إليها في بيتها، فقد سمعتُ أنها مريضة وذهبتُ لعيادتها، وحينما فتحتْ لي الباب، وجدتُها تعيشُ في بيتٍ بسيط هي التي كان بإمكانها أن تعيشَ في فيلا مرفهة، وتكون عندها السيارة الفاخرة والخدم والحشم، لكنّها رضيت بالقليل، بحياة الزهد والتقشف، وحينما جلسنا معا في صالون الضيوف، رأيتُ فوق المائدة ما أكّدَ لي كلّ ما كنت قد ذهبتُ إليه من تحليلات عن شخصيتها العزيزة: أربع قنينات فارغات من البيرا وأخرى نصف ممتلئة من الويسكي، وكأسا واحدة وحيدة تدلُّ على أنّ من شربَ كلّ تلك الكمية من الخمور هي وحدها ولا

أحد آخر غيرها. ارتبكتِ كيارا حينما لمحتْ عينيّ تستقران على ما فوق المائدة، وحاولتُ أن أحوّل عينيّ لكن دون جدوى فكيارا كانت على قدر عال من الذكاء وسرعة البديهة فبادرتْ تتحدثُ دون أن أدعوها مباشرة إلى ذلكَ: «آسفة سيدتي أسماء، أعلمُ أنك لا تشربين الخمرة، وأنك تسهرين على سلامة معبدكِ الذي هو جسدك من تلويثه بالخمور، لكن ما العمل يا سيدتي فأنا قد أدمنتُها، وما إن أجدُ نفسي وحيدة في البيت أشرب منها ما يكفيني، وخاصة إذا كنتُ متعبة، أو بي حالة معينة من الإحباط والحزن الدفين، وأنا في هذه الفترة أشعر بأنني الخميرة التي منها خُلق الحزن والاكتئاب!». صدمتني كلماتها وأشعرتني بنوع منَ التقزّم، أجلْ فأحيانا تديّنُ الإنسان التقيّ يجعلهُ يشعرُ أمام الناس المتألّمين والموجوعين بالحرج والدّونية أيضا، بالضّبط كما يشعرُ الإنسان الصحيح السليم وسط المرضى، فماذا سيفعلُ لهم؟ أليس من الأفضل أن يختفي من أمامهم حتى لا يشعروا بآلام متضاعفة أخرى! أنا أيضاً لي آلامي وأوجاعي، لكنني حينما رأيتُ كيارا على صورتها الحقة شمعةً عارية أمامي تبادرتْ إلى ذهني في تلك اللحظة صورة شخصين؛ واحد منهما فقير عاش حياته يمشي حافيا بين الناس وفي الأسواق، والثاني مريض كسيح بدون قدمين. هل يا ترى كنتُ أنا في تلك اللحظة ذاك الرجل الأول أعاتب إلهي لماذا قدّرَ عليّ أن أعيشَ هكذا حافية القدمين دون أن أنتبه إلى أنه بجانبي يوجد شخصٌ آخر بدون قدمين يدعو الله صباح مساء لو يمنُّ عليه بقدمين تُمكّنَانِهِ منَ التّجوالِ في ملكوت الله واكتشاف جمال الكون! أيُّ بؤس ابتلينا بهِ نحن بنو البشر؟ ما الذي يجعلنَا نحاكم الناس، ونصدر عليهم فتاوى مريضة تُنْتِجُها مُخيّلةٌ أكثر مرضا وعهرا من المرض والعهر ذاته؟ آآه يا لعُمقِ الألم، لقد ذبحتني كيارا، وهي تحاولُ أنْ تأخذَ القنيناتِ إلى المطبخ، لكنني قلتُ لها: «دعكِ من القنينات، وتعالي اجلسي بجانبي فقدْ جئتُ لأراكِ»، «أعلمُ يا عزيزتي، لكنني بحاجة ماسّة للحديث معكِ، منذُ زمن وأنا أفكر في هذا الأمر، أعني في التنفيس عمّا بداخلي من آلام لكِ أنت وحدك دونا عن غيرك، فأنتِ مرفأ السلام يا أسماء، وأمامكِ وحدك أستطيعُ أن أتعرّى بدون حرج».

كلمات كيارا هذه جعلتني أفهمُ لماذا منَّ عليّ الخالقُ حينما كنتُ صغيرةً بكُلّ تلك المَشاهد العارية في طفولتي، المرأةُ المُسنّة التي كانت تمشط شعرها عارية أمام عتبة البيت، الفتاةُ المجنونة التي كانت كثيرا ما تفرّ من المصحة العقلية لتبثّ الخوف في الناس، رجلُ النافذة العاري، ثمَّ مجذوب المدار. كلّ هؤلاء رأيتُهم اللحظةَ في كيارا، وما كان أمامي سوى أنْ ألتزم بالصمت وأتركَ صديقتي تتعرّى حتى آخر ثوب كانَ يحجب عنها الصفاء والطمأنينة والسلام. كانت كيارا وهي تحدثني عن أوجاعها مسيحاً جديدا مرفوعا فوق الصليب، وكنتُ أنا في تلك اللحظة مريم جديدة تُشبهُ تلك التي رسمها الفنان الإيطالي ميكيلآنجلو بوناروتي في لوحته الشهيرة بييتا (الشفقة)، للعذراء وهي تنتحبُ وابنُها بين يديها بعد أنْ تمّ إنزاله عن الصليب. أجل، كيارا في تلك اللحظة كانت ابنتي، وكنتُ أمَّها، مسحتُ دمعَها، وأخذتُها إلى السرير كي تنام قريرة العينِ، ثمَّ عُدتُ إلى بيتي وفي قلبي صلواتٌ وشموع أشعلتُها لأجلها، داعية الله أن يهبَها ويهبني السلام والطمأنينة الأبديينِ، وحمدا لله أن تحقّقَ الدعاء والرجاء، فقد تزوجتِ كيارا برجل يعشقها إلى الجنون، ونسيت الآلام التي كانتْ تعاني منها منذ ريعان الشباب بسبب قصة حبّ مستحيلة وفاشلة، وذهبتْ لتعيش في مدغشقر هناكَ حيث قضت نحبها جرّاء تشمّع الكبد الكحولي، وتركتْ خلفها ابنتين رائعتين وزوجا هو من أخلص خدّام المسيح في إحدى كنائس مدغشقر الجميلة: ألمْ أقلْ لكُم إنّ كيارا كانتْ تحبُّ المسيح، ولا تكتبُ سوى عنه، على الرغم مما كانت تدّعيه من إلحاد وما إلى ذلك، حتّى أنّها هي نفسُها لم تكن لتصدّقَ أنها في يوم من الأيام كانت ستصبح من أشدّ المحبين ليسوع، ومن أكثر العارفات اللائي كتبنَ عنهُ أجملَ الأشعار وأعمق القصائد!

(٧)

شمس وبدر

روزالبا ونيكولاس

منَ العاداتِ الجميلةِ التي كنتُ أواظبُ عليْها قديماً مُذ قدومي إلى إيطاليا، حِرصي الدّائم على اختيارِ عائلةٍ مُعيّنةٍ مِنَ الأزواج المُسنّين الّذين يُعانونَ منْ ألَمِ هَجْر الأبناء والأحبّة، بغَرَضِ تنظيمِ زياراتٍ خاصّةٍ لهُمْ ولا سيمَا في الأعيادِ المسيحية التي عادةً ما يجتمعُ فيها الأهلُ والأحبّة ناسينَ أولئكَ الذين يقضونَ الأعيادَ وَحدَهُم، ولا أنيس معهم سوى الدّمع والألَم. والسيّدُ نيكولاس وزوجتُه المصونة روزالبا كانا يمثّلان معاً الأسرةَ الثالثة التي كنتُ قد زرتُها لأكثر من مرّة منذ أزيد منْ عشْرِ سنواتٍ مضتْ.

أذكرُ أنّهُ حينما تمَّ اختياري لهُما عبْرَ جمعية «الآباء المهجورين»، قلتُ للسيّدة أنطونيلا –وهي رئيسةُ هذه الجمعية التي كانت تضمُّ العديدَ من الأعضاء بمن فيهم الكُتّاب والأدباء من مشاهير المشهَد الثقافي الإيطالي–: «لا أعرفُ يا عزيزتي لماذا يساورُني إحساس بأنّ هذينِ الزّوجيْن سيصبحانِ معاً مِنْ أصدقائي المُقرّبين جدّاً، وأنّني بهِما سأستغني عن زيارة عوائل أخرى، إذْ أعتقدُ أنّهُما الأكثر حاجة مِن غيرهم لمَنْ يسأل عنهُما ويتبادل وإيّاهما مشاعر المحبّة والرحمة التي لمْ يجداها في أبنائهما أو غيرِهما من الأهل والأقارب!».

وفعلاً ذاكَ ما كان، ففي بدايةِ أسبوع الاحتفالات بميلاد المسيح لسنة ٢٠٠٣، قصدتُ منزلَ السّيد نيكولاس مُحمّلةً بالهدايا، والحلويات التي أعددتُها مُسبقا في بيتي، وحينما طرقتُ الباب خرجَ للقائي الزّوجان معاً، وأعنِي الرّائعة روزالبا وزوجُها نيكولاس: كانا يبدُوانِ كشخصيْنِ خرجا للتّو منْ قصّة من تلكَ القصص الخيالية التي كانتْ ترويها لي جدّتي في طفولتي البعيدة: هُو بشَعْرِهِ الأبيض الكثيفِ ولحيتِه الفضّيّة الطويلة، ونظارتيه الطبّيتين الشفافتين وابتسامته المُشرقة، وبجسدهِ النحيل جدّاً وظهره

المقوّس، ويدهِ الرقيقة المُمسكة بعكاز أسود. وهيَ خلفَه بمشّاية مُتحركة، مُنشرحةَ الوجهِ، ضاحكةَ العينينِ، وكلّ ذرّةٍ من كيانها تنطقُ حُبّاً وترحيباً بي.

دخلتُ بعدَ أنْ قبّلتُهُما معاً، ووضعتُ الهدايا فوقَ المائدة التي ملأتْها روزالبا قبْلَ مجيئي بكُلّ ما لذّ وطابَ مِنَ الحلويات والفواكه والمُرطّبات. كانتْ تنظرُ إليّ بشوقٍ ولهفة للتعرف إليّ بشكل أكثر عمقاً. هي تعلمُ أنني منْ أصول عربية مُسلمة، لذا، ما إنْ جلستُ حتّى بدأتْ تُحدّثني بصوتها الحنون عنِ ابن سينا وابن رشد، ثمّ قامتْ فجأةً بكلّ ما فيها من حيوية وجلبتْ لي لوحةً أظنُّ أنها لا توجدُ في بيتٍ آخر في العالم بأسره غير بيتِها لأنها كانتْ تُمثّلُ مخطوطة ابن النفيس عن الدورة الدموية الصغرى، والغريبُ في الأمر أنّ السيدة روزالبا نفسُها لمْ تَكُنْ تعلمْ أنّها لابن النفيس، فهي لا تعرفُ اللغة العربية، ولمْ تستطعْ بالتالي أنْ تقرأَ الحروفَ المكتوبة أسفل المخطوطة.

كانتْ روزالبا تُحَدّثُني بنشاط وحماسة مُنقطعَي النظير، لدرجةِ أنّها قالتْ لي: «أتدرينْ، أشعرُ أنني اللحظةَ لستُ بحاجة لهذه المشّاية، أنا سعيدة جدّاً، وأريدُ أنْ أُرِيَكِ كلّ ركنٍ في بيتنا المتواضع» ثمّ رَكَنَتِ المشاية فِي غُرفةٍ صغيرةٍ، وبدأتْ هي وَزوجُها الذي وضع جانبا هو الآخر عصاه السوداء في التّجوال بغُرفِ البيتِ وبهوهِ الواسع ليُطلعانِي على ما فيهِ منْ كنوز. كانَ زوجُها يتحدّثُ عنْ أدقّ التفاصيل الخاصّة بمتحفهِ الجيولوجي المنزليّ الذي جمَعَ كُلّ قطعةٍ فيهِ منْ سنوات عمله الطويلة والدؤوبة كعالمٍ للآثار والحفريات في جزيرة صقلية. وكنتُ أنا كمَنْ دخلَ عالماً آخر غيْرَ العالم الذي كنتُ أتوقّعُهُ، فقدْ كنتُ أظنُّ أنّ هذيْنِ الزّوجين بحاجة لي ولرِفقتي ومؤانستي لهُما، وإذا بي أشعرُ أنني أنا التي كنتُ في حاجةٍ شديدةٍ لكل هذه الفيوضات من العلوم التي أراها تنهمرُ عليّ من كلّ حرفٍ كانَا ينطقانِ بهِ.

كانَ نيكولاس يبلغُ منَ العُمر تسعِينَ سنة، أمّا هيَ فثمانين. وكانا معاً على قدرٍ واسعٍ منَ الثقافةِ والتواضُع والأخلاقِ الرفيعة الحميدة. وكانَ السؤالُ الذي يلحُّ عليّ في تلكَ اللحظة: [مِنْ أينَ لهُمَا معاً بكلّ هذه الطاقة والشّباب المُتفجّر في كل جزء من

كيانهما رغما عنْ عدم قدرتهما معا على المشي بخطى سريعة بحُكْم السنّ، ولا على التكلم بلسان طليق؟]. وللحظةٍ خشيتُ أن تكون زيارتي سببَ هذا النشاط والفرح، فرأفتُ لحالهما وبقلبِهما، وقلتُ بصوتٍ تعلوه مسحة من الرجاء: «أعتقدُ أنني رأيتُ كلّ ما ينبغي أن أراه اليوم من بيتكما الرائع، شكرا جزيلا لكُما، وبإذن الله تطلعيني يا صديقتي روزالبا على ما تبقّى منَ المتحف البحري، وما فيه من عجائبَ ثمينة»، لكنْ ما منْ فائدةٍ، وكأنّي بكلماتي صببتُ النّارَ على البنزينِ، فقامَ السّيد نيكولاس مُبتهجاً وقال «أيّ تعبٍ يا سيدتي، لقدْ تشرّفنا بمجيئكِ الكريم عندنا، وإننا سُعداء بكِ للغاية، ولو علِمْتِ أنكِ أوّل من يدخل بيتنا هذا بعد أكثر من ثلاث سنوات منْ غياب النّاس عنهُ لما قلتِ ماقُلتِ؟ دعيني أعزفْ لكِ على البيانو مقطوعةً أحبّها للغاية كشُكرٍ منّي ومِنْ زوجتي روزالبا على رفقتكِ الغالية هذه». وبقدر ما أسعدني اقتراحُه بقدر ما أحزنتْنِي كلماتُه لما لمستُ فيها من شعور بالوحدة والعزلة، فعقّبتُ مستفسرةً: «ولماذا يا سيدي الكريم؟ ألا يأتي أبناؤكما لزيارتكما من حين لآخر؟» فردّ بعينين مُبتسمتين: «الطيور لا تعودُ إلى الأفنان إذا ما بَنَتْ أعشاشاً أخرى يا ابنتي، ويكفيني سعادةً أنْ أعرفَ أنّ أبنائي بخيْرٍ حيثُ هُمْ. لقد ربّيناهم أحسنَ تربية، وعمِلنا على تدريسهم في أرقى المدارس والجامعات، والحمد لله هُم اليوم أسماء بارزة ومرموقة في مجالات اختصاصاتهم، ولنا مِنهُم أحفاد رائعينَ يزوروننا من حين لآخر في العُطل الصيفية، وقد عملنا على أنْ نحفظ لهُم كلّ الحقوق بما فيها العقارية الإرثية سواء خلال حياتنا أو حتّى بعدَ وفاتنا. لكنْ دعكِ من هذه الأحاديث التي لا تغني ولا تسمن منْ جوع، واسمعي الأغنية وهي بعنوان "يا شمسي"، وقد كتبَ كلماتِها الشّاعر والصحفي جوفاني كابورّو، ولحّنَها إدواردو دي كابُّوا حينما كانَ آنذاك في رحلةٍ رفقة والده إلى أوكرانيا، وكانَ إينْرّيكو كاروزو أوّل مَنْ غنّاها بنجاح باهر». وبينما كانَ مُنهمكاً في العزف وترديد كلمات الأغنية التي كان يقولُ مطلعها: [يا للبهاء، هذا يومٌ مشرق، والجوُّ فيه بعد العاصفة صافٍ بديع، وهذا الهواء المُنعش يجعلُ كل شيء من حولي يبدو كأنه عيد كبير. يا للبهاء هذا يوم مُشمس مُنير، لكنْ ثمّة شمس أخرى لا يضاهيها في

الجمال والإشراق أحد، إنها شمسي أنا. شمسي الجالسة أمامكَ...]، كنتُ أنا غارقةً في أفكاري الفلسفية العميقة، كنتُ أتساءل عن مصير مجتمعاتنا الكئيبة: [كمْ هُم يا ترى المُسنّون في بلداننا الذينَ لديهُم القدرة على تجاوز مِحَنِ الشيخوخة بروح قويّة وثّابة مُستعدة لمجابهة كلّ العواصف بهذا الشكل؟ بلْ كمْ يوجدُ في الأُسَرِ العربيّة من آباء وأمهات أضاعوا أجملَ سنين الشيخوخة في التحسُّرِ على أبناءٍ لا يعودُون، وبدلَ الدّعاء لهم بالصّلاح والفلاح، فإنّهُم يدعُون عليهم بالخسارة والثبور، ومنهُم منْ يقاضونهم أمام المحاكم مُطالبين إيّاهم بنفقة الشيخوخة، وهُم يعلمون جيّداً أنّ أبناءَهم بالكادِ يُواجهون مَصاعبَ الحياة في زمن لا يرحمُ أحداً، ولا أحدَ فيهِ يستطيعُ أنْ يعيل حتّى نفسه فما بالكَ بغيرِه. أيّ منطقٍ هذا يا إلهي؟].

لكنْ يبدو أنّ روزالبا فَطنَتْ لأسئلتي الصّامتة، وقرأتْ ما كان يدور بخلدي فأجابتي: «لا تفكّري كثيرا يا ابنتي، ودعِي المخلوقاتِ للخالق، فهُو كفيل بأن يُصلحَ شؤونهم كلّها، واستمتعِي بكلمات هذه الأغنية البديعة. أنا وزوجي نسينَا كلّ شيء. لقد قُمنا بواجبنا وهذا يكفي، وكل شيء بيد الله. أنا أعلمُ يا ابنتي أنّكِ الآن بصدد المقارنة بين الهُنا والهُناك، وأشياء كثيرة ستجدينَها جميلةً هُنا، لكن ثمّة هُنا أيضاً منَ القُبح ما يُفتّتُ الصّخر، وإنّي على يقين أنه مهما كانَ الجمالُ بديعاً هُنا فهو لنْ يكونَ أجمل من الصّورة الأصلِ، والأصل يا ابنتي هو الوطن الأمُّ وما عداه فهُو هباء، إنهُ كهذه الشمس التي تتحدثُ عنها كلمات هذه الأغنية، شمسٌ لا يضاهيها في البهاء أحد».

أثّرت فيّ كلماتُها بقوّة لدرجة أني بكيتُ بحرقة شديدة قلبتْ ما كنّا نعيشُه من بهجة إلى حُزن دفين، فنهضَ السّيّدُ نيكولاس من مكانه وهو يُلوّحُ بيدهِ ويقولُ: «ما الذي يحدثُ هنا؟ أنتنّ هكذا أيتها النساء ما إن يتركُكُنّ الإنسانُ لوحدكنّ حتى تبدأن في البكاء بسببٍ وبدون سبب!». أضحكتْنَا كلماتُه وأعادتنا لصوابنا، فنهضتْ روزالبا وهي تقولُ: «ما رأيكِ يا ابنتي أن نذوق من يديْكِ الجميلتين كأساً منَ الشاي المغربي الأصيل، ألمْ تقولي لي إنّكِ جلبتِ معكِ النعنع وزهرَ الياسمين؟»، فأجبتُها بكلّ فرح: «هذه فكرة رائعة، هيّا بنا إلى المطبخ إذن!»، وهناك بدأنا من جديد في تبادُل أحاديثِ

البوح والسؤال، وبينما كنتُ أنظرُ إليها وهي تتحركُ ببطء شديد لتُرتّبَ كؤوس الشاي، سرحتُ مرّة أخرى في أسئلتي عن الشيخوخة والموتِ قائلةً في نفسي: [كيفَ سأكونُ يا ترى إذا ما بلغتُ مثلهَا من العمر عُتيّا، هل سأكونُ أيضا كما أنا الآن؛ أعوّلُ على نفسي في كلّ شيء ولا أستعينُ أبداً بامرأة أخرى غيري تكونُ خادمةً في بيتي تسهر على شؤوني الصغيرة قبل الكبيرة؟] وإذا بها تجيبني مرّة أخرى عن سؤالي ضاحكةً: «لا عليكِ يا ابنتي، أنتِ حينما ستكونين في مثل عمري، ستصبحينَ أجمل بكثير ممّا أنتِ عليه الآن، وأشدّ حيوية ونضجا وعذوبة، الشيخوخة يا ابنتي لمنْ يعرفها شيءٌ جميل، إنّها السنوات التي يهدأ فيها الفكرُ ويصبحُ أكثر صفاء وسكونا لتقبّل الفيوضات الجميلة العذبة. لا تستغربي يا صغيرتي من كلماتي، فقدْ عرفتُ منْ أنتِ مُذ التقتْ عيناكِ بعينيّ، وأنا سعيدة بكِ للغاية، ودعكِ من كلام هؤلاء الشيوخ والآباء الكنيسيّين المجانين، إنهم يُهرطقون بأشياء ما أنزلَ اللهُ بها من سلطان، ويريدون أنْ يفرّقوا بين البشر بفتاويهم وكلماتهم المجنونة. فأنا مثلا لستُ بمُسلمة لكنّي أشعرُ بكِ في العُمق لدرجة أني اللحظة أسمعُ في قلبي كلاماً عذبا تتغنّى بهِ روحكِ شاكرةً لي ترحيبي بهَا. هذه الأشياء مثلا لا يستطيعُ أنْ يخطُبَ بها راهب أو شيخ فوق منصة من منصاتهم الدينية. لكنْ لا عليك، لا تطيلي التفكير أبداً، ودعيني أستمتعْ بهذا العمل الفنّي الرّائع الذي أنتِ بصددِ القيام به من أجل تحضير هذا الشاي العجيب السّاحر!». رفعتُ إليها عينيَّ وقد أشرقَ بروحي فجرٌ جديد اسمه روزالبا، لأنّهُ تأكّد لي أنها صاحبتي الروحية الجديدة، العارفة الحكيمة التي استطاعتْ أنْ تُحوّلَ حياتَها إلى مدرسة من الحِكم والعِبر في زمن هو زمنُ شيخوخةٍ جعلتْ هيَ من سنينِه أحلى وأعمق السّنين على الإطلاق.

حملتُ صينيةَ الشّاي الفضيّة والإبريقُ المغربيّ يتلألأُ في وسطها إلى الصالون، وما إنْ رآها السّيّد نيكولاس حتّى هبَّ إلى تصويرها قائلا: «أنتِ يا سيدتي هي الشّمسُ التي كنتُ أغنّي من أجلها قبل لحظات، لقد حضرتِ وإني أستبشرُ بقدومكِ خيراً».

شربنا الشّاي المعطّر بالياسمين، وعصافيرُ المحبة والسلام ترفرفُ حول قلوبنا، وحينما شارفت شمسُ اليومِ على المغيب، استأذنتُ منْ صديقَيّ على أمل الرجوع إلى لقائهما في الشهر القادم، فقدِ اتفقنا على ألّا ينقطع حبلُ الوداد بيننا وأن أزورهُما كلما سمحت ظروفي بذلك وإن مرة واحدة في الشهر.

عُدتُ إلى البيت وبقلبي شمسٌ وبدر جديديْن؛ شمسٌ هي روزالبا، وبدرٌ هو السّيد نيكولاس. كنتُ أحاولُ أن أتذكّر كُلّ التّفاصيلِ الدقيقة من وجهيهما الصّبُوحيْن، وجسديْهما الجميلين اللذين علّماني ما معنى أن يكونَ بيدِ الزمان محراثٌ يحفرُ به فوقَ جسد الإنسانِ أخاديد تؤرّخُ لتاريخ البشرية القريب البعيد، وكيفَ أنّ فِكْرَ البشرِ وعقلَهُ المُتوهّج هُو يدُ الفلاح التي تنثرُ بذور الأعمال بين هذه الأخاديد لتتبرعمَ فوق الجسد سُهولا ممتدّةً من الخُزامى هيَ عملُ الإنسانِ الصّالحِ، الذي يُصبحُ كتابَه أمام ربِّه، أو حقولاً مِنَ الشّوك تصبحُ لوحَهُ الأصفر الذي يخجلُ مِنْ حَمْلِهِ يوم العرضِ لأنّ فيه عمَلهُ السّيء الذي يشهدُ عليه غداً أمام خالقِه والكون بأسرِهِ. وجسدُ نيكولاس كان جميلاً للغاية، ليسَ لأن هذا الأخير كانَ وسيماً، ولكنْ لأنّ كُلّ الأخاديدِ والتّجاعيدِ فيه كانتْ تشهدُ على أنّهُ كانَ رجلاً عاملاً، مُخلصا صبوراً، يعلمُ معنى الكفاح والوفاء. وكذا جسدُ زوجتهِ؛ فأصابعُ يديْها كانتْ تشهدُ على تعبِها وكدّها في تربية أبنائها ورعاية شؤون البيت، وكذا على بديع مطروزاتها التقليدية التي كانت تُزيّنُ بها كلّ ركنٍ في بيتها البديع، بما فيها تلك اللوحة التي نسجتْ خُيوطَها بأحرفٍ عربية خضراء من الحرير اللامع وعلّقتْها في المطبخ دون أنْ تدري معانيهَا، ذلك أنني حينما كنتُ أعدُّ وإيّاها الشّاي سألتُها عمّن أهداهَا هذه اللوحة الرائعة، فقالت لي: «أنا مَنْ طرزتُها، رأيتُها في إحدى مجلات الطّرز العالمية فسَحرتْني زخرفتُها، وما كان سوى أن نقلتُها كمَا هيَ، وبما أنّ لهَا شكل إجّاصة، فإني ارتأيتُ أنْ يكونَ مكانها الحقيقي هو المطبخ»، ابتسمتُ مستغربةً من كل هذه "المصادفات" العجيبة وقلتُ مُعقّبةً: «أوَتدرينَ ما معنى ماطرّزتْهُ أناملُكِ؟ إنّها البسملة بحروف عربيّة، وتعنِي؛ بسم الله الرّحمن الرّحيم!». صمتتْ، ولمْ تُعلّق على الأمر سوى بكلمات قليلة: «لا شيء يدعو

للاستغراب، فكثيرا ما أطرز أو أرسمُ أشياء أعتقدُ ألّا معنى لها، ولكنْ بعد ذلك أكتشفُ أنني كنتُ على خطأ. المُهمّ أنني أقوم بشيء يُسعد روحي والباقي أمور لا تعنيني في شيء».

أيّةُ امرأةٍ هذه الروزالبا؟ أتدرونَ أحبّتي ما معنى اسمها؟ إنّها وردةُ الفجر. عليّ أن أزورها مرّة أخرى، إنّها مدرسةٌ من التجارب والحِكَم. وفعلا ذهبتُ إليها بعد شهرٍ من زيارتي الأولى لها، إلّا أنهُ هذه المرّة لم تكنْ هي مَنْ فتحتِ لي الباب، وإنما شابّة أوكرانية اسمها رايّيسّا، كانتْ تأتي لمساعدتها من حين لآخر في الأعمال المنزلية الشّاقّة، وبعدَ التحية دخلتُ مباشرة عند صديقة روحي روزالبا، وجدتُها مريضةً مُمدّدةً فوق السرير بساقيْن مُنتفختيْن بشكلٍ يثيرُ القلق، حاولتُ أن أستفسرَ عن السبب، إلّا أنها أجابتي ضاحكة: «الأمر يا ابنتي لا يحتاجُ إلى الكثير من التخمين، إنها الشيخوخة لا أقلّ ولا أكثر. تعالي اقتربي منّي فلديّ الكثير ممّا أقوله لكِ» ثم طلبتْ من رايّيسّا أن تأتي لنَا ببعضِ المُرطّبات وقِطَعِ البسكوت.

اقتربتُ منها كمَا أحبّتْ وجلستُ إلى جانبها فوق السرير، إلا أنّها طلبتْ مني طلبا غريبا: «أرجوكِ مَرّرِي يديكِ على ساقيَّ، فلرُبّما أشعرُ بتحسّن، لقدْ رأيتُكِ تقومِينَ بذلك في أحد أحلامي، وقلتُ في خاطري ما إن تعود أسماء لزيارتي فإنّي سأطلبُ منها أن تفعلَ الشيء نفسه». وامتثلتُ لطلبها بروح رضيّة وكنتُ في الوقت ذاته أقرأ بعضا من سور القرآن الكريم بصوتٍ صامتٍ. وشعرتِ السيدة فعلا براحةٍ عجيبة، وقالتْ وهي تشربُ عصيرَ البرتقال: «هل تؤمنين بالمسيح؟»، «نعم يا سيّدتي، لكن لماذا هذا السؤال؟»، «لأنني أشعرُ أنّ موعدَ مغادرتي لهذه الدّار قد قرُبَ، وأريدُ أنْ أتأكّد منْ بعض الأمور»، «أتريدين أنْ تقولينَ لي، بعدَ كُلّ هذا الذي رأيتُه منكِ من حكمة وتجلّيات تدعو إلى كل التقدير والاحترام إنكِ لا تؤمنين بالمسيح؟»، «ليست القضيةُ قضيةَ إيمان أو لا، ولكنها تكمنُ في كيفيّة هذا الإيمان. أعتقدُ أنّه عندي مشكلة يصعبُ حلّها؛ أنا لا أومن بالمسيحِ كإلهٍ، ولا كابنٍ للإله، ولا أومن حتّى بمريم كأمٍّ للإله؟ ولا أستطيعُ أنْ أفهم كيفَ أنّ هذه الطفلة العذراء استطاعتْ هكذا أنْ تلد

طفلا آخر أصبحَ بدورهِ إلها؟! أتفهمينَ ما أريد قوله؟ أنا عندي حقا إشكالية وجودية تؤرّقني كثيرا. ألَا أستطيعُ أنْ أومن بالله الواحد الأحد الصّمد هكذا لوحده بدون كلّ هذه التعقيدات؟ أنا لا أريدُ في حياتي أنبياء ولا قدّيسين يقضّون مضجعي بقصصهم البالية. نعم، لقد جاءوا حقّا بكلمة الربّ، ولا أعترضُ على هذه الحقيقة، لكنّهم مضوا لحال سبيلهم، أنا لا أفهمُ لماذا عليَّ أنْ أشغل بالي بهِمْ بَعْدَ كُلّ هذه القرون من حياة الإنسان البائسة. ألا يمكنُ لكل إنسان أن يكون نبي نفسه مثلاً؟ أليسَ فينا نفخ الله، أوَليْسَ هذا النفخ بكفيلٍ بأن ينقدنا من أنفسِنا! أعتقدُ أنّه يمكن ذلك تماما إذا ما تلقّينا التربية الصحيحة والعلوم الحقة بعيدا عن كل هذه الخيالات المُغرقة في البُعد والقِدَم؟ لماذا نستمرُّ في مضغ الماضي واجتراره؟ أين نحنُ من كُلّ ما مضى، مالذي فعلناه؟ إني أعتقدُ أنّ الربّ غير راض عنّا، لأننا خيّبنا أملهُ في كلّ شيء، ولمْ نعرف لليوم كيفَ نتخلّص من طفولتنا اللاهوتية الجنينية. ولأجل هذا فإني أعلنتُ منذ زمن براءتي مِنَ الإنسان، وقررتُ أن أومن بخالقي كما أريدُ وعلى طريقتي الخاصة: ألّا أكذبَ، ألّا أسرقَ، ألّا أؤذي إنسانا، وأن أخدم أخي الإنسان بما يُرضي الله. إنني أشعرُ حقّا أنَّ الله بداخلي، وأنه راضٍ عني».

كانتْ روزالبا في تلك اللحظة تحملُ بين يديها رشّاشا أفرغتْ فيّ كل رصاصاته، وتركتني جثة هامدة فريسة لغابة من الأسئلة؛ هكذا شعرتُ بعد كلماتها وأسئلتها الحارقة.

يا إلهي، من تكونُ هذه المرأة؟ ولماذا هيَ؟ وكيف لي أن أشرحَ لها كُلّ ما طلبتْ معرفته في هذا الوقت الوجيز من الزّمن. لماذا يا إلهي وضعتني في هذا الامتحان العسير، على الرّغم من أنني أعرفُ الجوابَ عن كلّ كلمة قالتها؟ آهٍ إلهي، أعرفُها امتحاناتكَ هذه جيّدا؛ لقدْ قرُبَ أجلُ هذه السيّدة، وليس بالبعيد أبداً أن تموتَ الآن بين يديّ، فيا إله الرحمة ارحمني من عناء الجواب وارحمها من عذاب السؤال. وقبل أنْ أفيق من حواري الداخلي عادت الشابة الأوكرانية من الغرفة، فسألتها وكأنّي أطلبُ منها النجدة: «أينَ السّيد نيكولاس، لمْ أرهُ اليوم؟»، «إنّهُ في مَنْحَتِهِ مُنْشغِلٌ

بنحتِ عملٍ جديد يقولُ إنه يريدُ أن يُهديَهُ لكِ قبل عودتكِ إلى منزلك». سمعتْ السيدة روزالبا ردّ رايّيسّا ثُمّ عقّبت قائلةً: «نعمْ إنّهُ منذُ أسبوعٍ وهُو يعملُ على نحتِ تمثالٍ خشبيّ صغير للمسيحِ مصلوباً. ألمْ أقُلْ لكِ، إنّهُ حتّى حمضُنا النوويّ تسري فيه هذه الأمور الغيبية التي ورثناها عنْ أجيال سحيقة، دون أن تُعطى لنا فرصة لمناقشتها أو الاعتراض عليها! ثمّةَ مؤامرة تُحاك ضدّ الله والإنسان معاً، لا أعرفُ منْ ينسجُ خيوطها، ولكن هناك حقّاً منْ يسيطرُ على العقل البشري، ويريدُه أن يبقى هكذا فريسة خرافات تجرّه دائما إلى الوراء وتنسيه أصله الحقيقي ككائن ربّاني لا حاجة له بكل هذه القصص. كلّ إنسان بإمكانه أن يكون مسيحا، ومحمدا وموسى وداوود. فمَن المسؤول يا ترى عن حرماننا مِنْ كلّ هذه القوة والسّلطان؟ لا أدري يا عزيزتي...»، وقبل أنْ تكمل جُملتَها رأيتُها ترفعُ عينيْها وتنظرُ أمامَها كأنّما رأت شخصا ما، فخفقَ قلبي بشدّةٍ، لأنني أعرف جيدا معنى تلك النظرة ولمن تكونُ، وقبلَ أنْ أفتح فمي لأناديَ رايّيسّا، لفظتْ روزالبا أنفاسَها الأخيرة بين يديّ. صرختْ رايّيسّا، وحضرَ نيكولاس مُسرعاً إلى الغرفة وبين يديه منحوتة المسيح المصلوب، وحينما استوعبَ ما الذي حدث لزوجتهِ، رفعَ المنحوتة الخشبيّة وبدأ في الصراخ: «أينَ أخذْتَها، قل لي؟ لماذا لمْ تأخذني أنا قبلَها؟ هذا ليس عدلا منكَ. كنتُ دائما أقول لكَ أنْ تأخذَني قبلَها، لكنّكَ خذلتني، خذلتنِي وتركتنِي وحيدا؟ لماذا، لماذا يا إلهي تركتنِي وحيدا؟!». أرْبَكنِي المنظرُ، ولمْ أعرفْ ما الذي عليّ أن أفعلَهُ، هببتُ إليهِ وحينما كنتُ بصددِ مساعدتهِ على الجلوس فوق الأريكة، إذا بي يحدثُ لي ما لم يكنْ في الحسبانِ: لقد رأيتُ روزالبا في أبهى منظرٍ وثوبٍ بالقُربِ منْ زوجها. قالتْ لي: [ضعِي يدكِ على قلبهِ، فإنهُ سيطمئنُّ وسيهدأ روعُه، واقرئي عليه آيةَ الكرسي التي كنتِ تقرئين قبل لحظات حينما طلبتُ منكِ أن تدلّكِي رجليّ. قولي لهُ ألّا يهابَ شيئاً، فأنا بخير. هُنا كلّ شيء جميل وهادئ وبديع، إنّها الرحمة وكذا السكينة اللتيْن كنتُ أبحثُ عنهما].

وضعتُ يدِي على قلبِ نيكولاس وحينما أفقتُ منْ تجلّياتِ الموتِ التي دامت لأجزاء بسيطة منَ الثّانية، طلبتُ منْ رايّيسا أنْ تُكلّمَ أبناءَ الراحلة في الهاتف وتُخبرهُم

بما حدثَ، في حين هببتُ مسرعةً إلى مُكالمةِ السّيدة أنطونيلا رئيسة جمعية «الآباء المهجورين» وأخبرتُها بالمُصاب الجلل، فجاءتْ على جناحِ السّرعة ومعَها قساوسة تكفّلوا واعتنوا بكلّ مراسيم الجنازة والدفن. ولمْ تمْضِ سوى أيّام قليلة حتّى التحقَ بها نيكولاس تاركاً لي منحوتةَ المسيح المصلوب بين يديّ، وأسئلةَ زوجتهِ تضربُ كالمطارقِ في رأسي، تحوّلتْ فيما بعدُ إلى سيلٍ جارفٍ منَ الكتاباتِ والقصائدِ والمقالات عن قضيّة الموت والحياة وعلاقتهما معاً بإشكالية السّلام الكُبرى في كل الثقافات والديانات، لأنّهُ هُو السّلامُ وحدهُ يهَبُ الحياةَ لمنْ في القبور، لذا فإنّي أكتبُ عنهُ وبهِ. وهُو السّلامُ وحدهُ صَرعَ الموتَ بالموتِ، لذلكَ فهُو مرفأي الأوّل والأخير، الذي فيهِ أستطيعُ أنْ أرى دموعَ النّاسِ وأحوّلهَا إلى ألوانِ طيفٍ مرئي، وإلى حروف تُغرّدُ عصافيرُهَا بيْنَ أفنانِ سِدرة الجمال والبهاء، ويحلّقُ يمامُها فوق روابي المحبّة والصفاء.

ولأنّ إكليلَ السّلام هُو أشدُّ جمالاً منْ تيجانِ كلِّ الملوكِ، فإنّي وهبتُ لهُ نبضَ الرّوح والفؤاد، فَبهِ أسمعُ أنّات وآهات القلوبِ وأنا في أعالي الجلجلة، وحينمَا تخترقُ مساميرُ الحياةِ كفّيَّ، أشعرُ بأنني أصبحتُ عينَ السّلام ونبعَهُ الأبديّ. وكيفَ لا أكونُ كذلكَ، والآلامُ في محرابِي تصيرُ أشدَّ بهجةً منَ الرّبيع، وأكثرَ حناناً منْ قلبِ أمّ عاشقة! فتعالوا يا أهلَ السّلام ورُسلَهُ إلى حرفِي، تعالوا إلى قلبِي، تعالوا إلى اِسمي ورَسْمِي، تعالوا لنبْنِ معاً فردوساً جديداً تحتَ ظلّ جناحَيِ راعي السّلام الأكبر: الملكُ القدوس السّلام المؤمن المهيمن، الخَالِق البَارِئُ المُصَوِّرُ لَه الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم.

(٨)

سِدرةُ المُنْتَهَى

لا أحدَ يُفكّرُ في الموتِ. نعمْ، هذه حقيقةٌ مُرَّةٌ، وماهيَ بالجريرةِ أبداً، ولا تعْنِي أنّ الإنسانَ لا يتّعظُ مِنْ لحظةِ الموتِ، أو أنّهُ لا يشغلُ بالَه بمَا سيؤولُ إليهِ جسمهُ بعدَ أنْ يُصبحَ جثّةً هامدةً. كلّ مافي الأمرِ أنّ الإنسانَ لا يستطيعُ للموتِ شيئاً، لأنَّ هذَا الأخير هُو الحياةُ عينُهَا. وعندي لكَ عزيزي القارئ العشرات منَ الأمثلةِ لأثْبِتَ لكَ صحّة ما ذهبتُ إليهِ؛ فأنا مثلاً قبلَ أنْ أستيقظَ في صبيحةِ هذا اليوم، وأبدأَ في كتابةِ هذه المقالةِ كنتُ ميتةً أيْ، كنتُ في حالة نومٍ، والنَّومُ موتٌ لا يقومُ منه إنسانٌ إلّا بأمرٍ وتدخُّلٍ إلهييْن، ولو شاءَ الخالقُ لكَ ولِي ألّا نقُومَ مِنْ نَومِنَا، ماقامَ فينا ومِن النّاس أحد!

ماذا يعني هذا؟ لا شيءَ سوى أنني بعدَ أنِ استيقظتُ ذهبتُ لتناولِ وجبةِ الإفطار، لأعوّضَ ما احترقَ فيّ منْ طاقةٍ خلالَ موتِيَ النّوميّ، إذْ بداخل جسدي كانتْ تموتُ وتحترقُ أشياء كثيرة، بما فيها الأفكارُ، وليسَ هذا فحسب، ذلك أنّ حتّى هذهِ اللحظة التي أنا فيهَا أمام الحاسوب وأكتبُ ما أنتَ بصدد قراءته، هيَ موتٌ وحياةٌ في الوقت ذاتِه، فأنا الموتُ وأنا الحياةُ: موتٌ لأنني أحرقُ طاقةً فكريّة وأنا بصددِ العملِ، وحياةٌ لأنّهُ مِنْ أفكار ميتةٍ ثمّةَ أفكارٌ أخرى حيّةٌ في طريقِها للانبعاثِ لتُكَوِّنَ ما يُمْكِنُنِي أنْ أسَمّيَهُ بِخميرَةِ الكتَابَةِ والفِكْرِ. لكنْ دعكَ منّي هُنيْهةً ياعزيزي، وأنْصِتْ إلى سؤالي هذا: هلْ سبقَ لكَ أنْ حضرتَ حفلَ عزاءٍ ما؟ مِنَ المُؤكّدِ نَعَم. تأمّلِ الآنَ معي المُصطلح ذاته: حفلٌ + عزاء، كيْفَ يَجْتمِعَانِ؟ ثُمّ الاحتفالُ بمَن؟ والبُكاءُ على مَن؟ والعزاء في مَنْ؟ اعلمْ يا أيدكَ اللهُ بمحبّتِهِ وَغوثِهِ، أنَّ الموتَ حفلٌ واحتفالٌ؛ حفلٌ لورثة الرّاحل، وحفلٌ لحفّار القبور، وحفلٌ للفقهاء الذين يأتون لتلاوة القرآن على روح الميت، وحفلٌ لمنْ سيأتون لتقديم عبارات المُواساة والعزاء: حفل لورثة الرّاحل، لأنّ كل واحد فيهُم لا سيما الأبناء وهُم وَسطَ بكائهِم ودموعِهم وصراخِهم لا يبكونَ الرّاحل حقّاً، وإنّما كمَّ الذكرياتِ التي جمعتهُم وإيّاه، فإن كانتْ طيبةً دعوا لهُ بالرحمة وحسن المآب، وإذا

كانتْ سيئةً دعوا لهُ بالغفران إذا كانوا أصحاب نفوسٍ صالحةٍ، لكن لا تنسَ يا عزيزي، أنَّ هذا الدعاء بالغفرانِ قد ينقلبُ إلى دعاءٍ على الميت بالخسارة والثبور إذا لمْ يتركْ لهُم شيئا يجعلهم يترحمون عليه منْ بعده، أيْ إذا لم يتركْ لهم مايرثونه عنهُ منْ عقاراتٍ وشركات وسيارات وما إلى ذلك. أمّا إذا كانَ للميتِ زوجةٌ جميلة وصغيرةٌ في السنّ فحدّثْ ولا حرج، هي أيضاً مهما كانَ حزنُها عميقاً، فإنّ حرارةَ الحياةِ ستُفِيقُهَا مِنْ حُزنِها وتجعلُها تُفكّر في نفسها مرّة أخرى لأنّهَا تريدُ أنْ تعيشَ وتعيشَ، فالحياةُ فيهَا أقوى منَ الموت بغضّ النّظرِ عن الحالات الاستثنائية التي تروي عن بعضِ الأرامل الوفيّات لذكرى زوجٍ راحل. ثمّ ماذا يا أحبّتي القرّاء والمتتبّعين؟ لقد نسينَا الجمهورَ الذي يحضُر لتأدية واجب التعزية، الناسُ وسط هؤلاء يا أعزائي آخرُ منْ يُفكّرُ في الموتِ والميت، ففهُيم منْ يأتي لجَمْع بعضِ المعلومات، و"الشّمْشَمَةِ" على أخْرى، ومنْهُمْ مَنْ يأتِي بدافع الفُضول ليرى منْ هُو هذا الفقيدُ، ومن تكونُ عائلتُه؟ ومنهم منْ يحضرُ مراسيم الجنازةِ لأنّ الميت لهُ ديونٌ عندهُ وهو قلقٌ عليها، ومنهُم من يأتي لأنّ الميتَ في حياته كانَ عدوَّهُ اللدود ويريدُ أنْ يراهُ أخيراً وقدْ قَهَرَهُ الموتُ وحقّقَ لهُ ما لمْ يستطعْ أنْ يُحَقّقَهُ هُو فيهِ حينما كان على قيد الحياة، وهلمّ جرّ منَ الأشياء التي تُثبتُ أنّ الحياةَ هي جُلّ ما يُفكّرُ فيها معظمُ الناس لا الموت، فحتّى الميتُ نفسه لا يفكّرُ ولا يشْغلُ بالَه أبداً بموقفِ الموتِ، ولا تصدّق يا عزيزي تلكَ الخرافات التي يحكونَها أثناء العزاء حينما يقولونَ لكَ لا تذرف الدّموع أمامَ الميت فإنّ روحَه تتألمُ وتفزع منْ منظر بكاء الأبناء أو الأحبّة عليه، أيُّ هراء هذا؟ أوَلَمْ تسمعْ بقوله عزّ وجلّ في سورة عبس (٣٣/٣٧): «فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ»، فالإنسانُ بمُجرّد أن يموتَ تقومُ قيامتُه وتأتي صاخَّتُهُ، لا يعودُ يفكّرُ في أيّ شيءٍ أبدا سوى في المصير الذي ينتظرهُ، أهوَ النعيم أمِ الجحيمُ؟ أيْ أنّه لا يقعدُ هناكَ بين المُعزّينَ ليُفَكّرَ في معنى الموت، أو سببهِ، أو في كيفَ أنّ ابنتَهُ أو ابنَهُ يتألمَان لفراقهِ، لا شيء من هذا يحدثُ بتاتا، فهو في عالمٍ والناسُ منْ حولِهِ في عالم آخر تماماً.

لماذا لا يُفكّر الكثيرُ مِنَ الناس إلّا في الحياة؟ لأنّ الإنسانَ هو الحياة والموتُ عينهُما، والموتُ سرٌّ منَ الأسرار العظيمة وكذلكَ الرّوحُ، ولا يمكن الحديثُ عن الأول في غيابِ الثانية والعكس صحيح. الرّوح سرٌّ، والموتُ سرّ، والحياة سِرّ ثالث، والإنسانُ كلّهُ سرّ الأسرار، لأنّهُ تجلٍّ من تجلّياتِ عقلِ الله، ولأنّهُ الوحدةُ التي تُوحّدُ كلّ شيء وتجمعُ كلَّ المتناقضات، وهذا ما يُفسّرُ كونَ الإنسان هو الحياة والموتُ معاً، وكونه الظلمة والنور، والمكان والعدم، وكونه أيضا الزمان واللازمان. لذا، فإذا تأمّلَ الإنسانُ في نفسِه، عرفَ اللهَ ووصلَ إليه عبر بوّابة الموت العظيمة. ومعرفةُ النّفسِ لا تتمُّ إلّا بالتجرُّدِ والتّواضُعِ، إذ، فقط حينما يتمُّ ذلك ينبثقُ أمامَ الإنسانِ نظامُ الكون البديع، ويتجلّى النورُ الذي هو المانحُ الأول والأخير للطّاقة الأبدية والحياة الخالدة.

أنا الشجرةُ، وأنتَ كذلكَ أيها القارئ، شجرةٌ لها فصولها المتتالية ورحلتُها المعراجيّة لبلوغ الكمالِ، والموتُ هو الماء الذي يتغذّى منهُ كلّ غُصنٍ في هذه الشجرة إلى أنْ تبلُغَ درجةَ التعرّي ثُم التّغشّي بالنور القدسّي فتعودُ إلى حالتها الأصل، شجرةً منْ نور هي شجرةُ الحروف الأولى، أو سدرة المُنتهى المُتجدّدَةِ باستمرارٍ والمُنْبعثَةِ منْ ذاتهَا أبدا، والرّجُل الصوفيّ العارفُ هو أكثر الناس معرفةً بأمر هذا الإنسانِ / الشجرة الذي لا يموتُ أبدا. وسعادة الصوفي تكمنُ في كونه يعيشُ ليموتَ، ويموتُ ليحيا، لذا، تجدُه أكثرَ النّاسِ جرأةً على الموت، فهو لا يهابُه وقد يحدثُ أنْ تُصبحَ لهُ عليهِ سلطة وسلطانٌ، فقدْ يموتُ العارف الصوفي متى شاءَ ذلك، والعارفةُ كذلكَ، وفي مرتبة أعلى يُلغَى الموتُ ويحدُثُ الرّفْعُ كمَا هو في حالة المسيح الذي يُعدُّ أقوى مثال على ما يمكنُ أنْ يحدُثَ منِ انتصارٍ على الموت، لأنَّ المسيحَ بلغَ درجةَ السّلام العليا، ولأنّهُ وحدهُ السّلامُ يقهَرُ الموتَ بالحياة الأبدية. وكلُّ ما يحكيه بعضُ المتصوفة عن الفناء والبقاء وما إلى ذلكَ من القصص ماهُو إلّا مُقدماتٍ لما قدْ يكونُ أشدَّ عُمقاً في حياةِ العارفينَ، فقدْ يصلُ بعضُهم إلى القُبّةِ الزّرقاءِ، وأعني بهَا أنْ يُحيِيَ الإنسانُ نفسَهُ بنفسِه، بعد أن يكونَ قد تجاوزَ كلّ مراحلِ الموتِ البدنيّ بدءا منَ الموتِ الأحمرِ

وصولاً إلى الموتِ الأسودِ الذي يتمثلُ في مدى قدرة العارف على تحمّلِ الأذى منَ الخلقِ.

والحديثُ عنِ الموتِ والحياة لا بدّ يفضينَا إلى الحديث عن الزمانِ، فكلّ زمانٍ يُحيط بكَ أيها القارئ العزيز هو زمان وهميّ، وتلك الساعةُ التي في معصمكَ تشير عقاربُها إلى زمنٍ مغلوط، فحياتك ليستْ بعددِ السّاعات أو الدقائق التي تمرُ عليك، لأنّها تنفلتُ منكَ باستمرار، والحاضرُ بمُجردِ أنْ تُفكّرَ فيهِ يُصبحُ ماضياً، لأنّ الزمانَ نفسه ينعدمُ أمامَ حقيقة الرّوح الكبرى، ولأنّ البعضَ يرونه إحساسا ذاتياً وداخلياً لا علاقة له بالكونِ، ولا نستطيعُ حقّا استحضارهُ خارجَ أنفسنا، والبعض الآخر يراهُ شيئاً واقعيا لهُ وجودٌ مستقلٌّ يمكنُ التحكّم فيه، لكن ثمة من يرى أنهُ فضاء يتمددُ بالحركةِ، وفي هذا القول نفيٌ مطلق للزمان. وفي الحديثِ عنِ الزمان حديثٌ عن المكان وعن القيّومية الإلهية، أمّا وكونهُ مرتبطٌ بالمكان فهذا ناتج عن تعلّقِ كلّ ما في الوجود بمركز الجاذبية، وهُو المفهوم الذي عبّر عنهُ ربُّ العزة حينما قال في سورة النحل (١٦/١٥): ((وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ، أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ))، وأمّا عنِ ارتباط الزّمانِ والمكان معاً بالقيّومية الإلهية، فذلكَ لأن اللهَ هو الحيّ القيّوم الذي لا تأخذُه سِنة ولا نومٌ، وهذا يعني أنّ زمنَ اللهِ ومكانَهُ غير زمنِ ومكان الإنسان بتاتاً، فهو خالقُ الزمان وليس لهُ مستقبل أو حاضر أو ماضٍ، ولذلكَ فإنّ الإنسانَ ما إن يموتُ فهُو يخرجُ مِنْ بُعد زمكاني مُعيّن ليدخُلَ إلى بُعدٍ آخرَ مُختلفٍ تماماً تُلغَى فيه كلُّ تلكَ الأرقام والسّاعات والشهور والأماكن التي اعتادَ عليهَا أثناء حياتهِ، وما منْ عبثٍ قال ربّ العزة في الآية ٣٥ من سورة الأحقاف: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ». فيَا حبّذا لوْ نموتُ عنْ أماكِنِنَا وأزماننا البالية كيْ ندخُلَ إلى المكانِ الحقّ، ونتذوّقَ الزّمانَ الحَقّ: زمنَ محمّد ومكانَ المَسيح، زمنَ إبراهيمَ وإسماعيلَ ومكانَ داوود وسليمان، بلْ زمنَ العشْقِ والسّلامِ، ومكانَ المَحبّة والهيامِ حيثُ الهجرةُ العظيمة إلى

كعبةِ الجَسدِ حتّى نتمكّنَ جميعاً منْ تقديم كُلّ طقوسِ الحياةِ والخُصوبةِ والطّاقة والتجدُّد المُستمرّ، ونستطيعَ بالتالي الوُقوفَ بمُزدلفة القلبِ، ثمّ الصّعودَ إلى عَرفةِ الفُؤادِ لتصلَ النّفسُ والرّوحُ ذِروةَ المُنى، ويقذفَ كلٌّ منهُمَا مَنيَهُ لحظةَ الموتِ مِنْ أجْلِ بُلوغِ سِدرةِ المُنْتهَى أوْ شجرةِ السّلامِ والحياةِ الأبديّةِ.

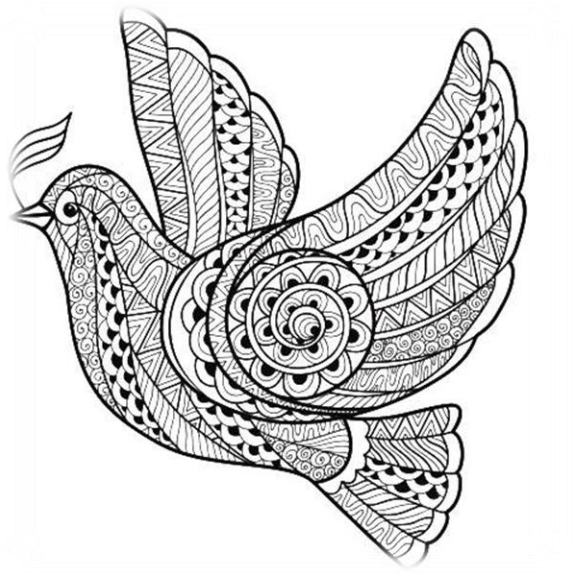

الفصل الثالث
محراب الخطأ

(١)

أنا وبيضة طاليس

رنّ جرسُ المَدرسةِ معلنا انتهاء فترة اللعب والاستراحة، وما إن عدنا جميعنا إلى الفصل حتّى صرختِ المعلّمة في وجهي بكلّ ما تملك من قوّة:

- هيّا استظهري جدول الضّرب الخاصّ بالرقم تسعة!

وفي أقل من الثانية، وبينما أحملق في عينيها إذا بي أكتشف ولأول مرّة بأنّ وجهها له شكل بيضة كبيرة سمراء، أجل بيضة سمراء بأسنان حمار، وأذني أرنب. طبعا كانت أبعاد الأشكال تبدو أكبر من حجمها الحقيقي، لأنّ المعلّمة كانت كلّما تريدُ التحدث إليّ تقرّب منّي وجهها بشكل مبالغ فيه، وشيء طبيعي، أن تكون نظرة عينيّ لها مفعول الزّوم أو البؤرة المُكبّرة. كل شيء في هذه المرأة كنتُ أراهُ ضخما؛ عينيْها الجاحظتيْن، أسنانها البيضاء والمنتظمة بشكل عجيب، ثم كعكة تسريحتها المرفوعة إلى الأعلى؛ هذه وحدها كانت فيلما سينيمائيا، فقد كنتُ أراها وكأنها عشّ لقلق هارب من قنابل قصف مفاجئ حاقَ بأرض لا توجد إلّا بخيالي الخصب...

- ألم تسمعيني؟ فيمَ تحملقينَ، هيّا تسعة ضرب واحد كم تساوي؟

ما من فائدة، أنا لا أستطيع ألا أنظر وأسمع في الوقت نفسه، أيْ أن أنظر وأفهمَ، ثمّ أسمع وأفهم أيضا، ففي النّظر والسمع فهم واستبصار، ولهما معا رائحة أيضا، ورائحة هذه المرأة كانت تشبه رائحة فم استيقظ صاحبه للتوّ، لا أعرفُ السبب! ولكنّي أعرفُ لماذا لمْ أجبها بسرعة عن سؤالها، فهي تقول لي جدول الضرب، ثم تعيدُ سؤالها من جديد بصيغة أخرى وتقول تسعة ضرب واحد، وأنا لا أستطيع ألا أربط الكلمات بالصور، فإلى جانب صورتيْ البيضة بأسنان الحمار، وعشّ اللقلق، أصبحت الآن بين عيني صورة ثالثة لمعركة طاحنة، تَضربُ فيها الأرقام بعضها بعضا. شيء عجيب والله، ما معنى أن يضرب الرقم تسعة رقما آخر غيره، وهكذا إلى ما لا نهاية، ثم لماذا جدول الضرب، ضربُ ماذا بماذا؟ إنّها كلّها أشياء تبدو وكأنها طلسم كبير، نعم طلسم عجيب، كنت أرسمه في دفتري ما إن كنتُ أجدُ لذلك سبيلا، وكانت تطّلع

عليه المعلّمة وفي كل مرّة كانت تعيدُ عليّ السؤال نفسه: ما معنى هذا الرّسم يا أسماء؟ وكانت زميلة الصف تجيب بسرعة بدلا عنّي: إنها طريقتها الخاصّة لحفظ جدول الضرب. لا واحدة منهما كانت تعرف، بأنني لم أكن أرسم سوى وجه المعلمة، وجدول الضرب، ثم المعركة الطاحنة التي كانت تندلع بين الأرقام وهي تتقاتل فيما بينها ويضرب بعضها البعض، ثم شيء طبيعي أن يصحب كل هذا أنهار الدّماء، لكن المعلمة كانت تتوقف كثيرا أمام شكل البيضة، وتقول إنّ لها شكل جنين، أو شكل بويضة، وكنت أبقى صامتة، لأنني لم يكن عندي الجواب سوى لسؤالها الأول عن تسعة ضرب واحد. وما إن أفيق في أقلّ من الثانية من كلّ هذا الكرنفال من الأفكار الذي كان يتفجر في رأسي، كلمة ولونا ورقما، كنت أجيب بسرعة فائقة:

- تسعة ضرب واحد تسعة، تسعة ضرب اثنين ثمانية عشر، تسعة ضرب ثلاثة سبعة وعشرون....

وما إن تسمع المعلمة جوابي حتى تنتقل بسرعة البرق إلى طفلة أخرى وتسألها السؤال نفسه، ويا ويلها وسواد ليلها إذا أخطأت أو تلعثمت في الجواب، كانت تنزلُ على يديها الصغيرتين بعصا رفيعة، تضربها بها إلى أن يغمى على المسكينة من الرعب والبكاء، عند ذاك فقط كنت أفهم لماذا يسمّونه بجدول الضرب، لأن حصة الاستظهار كانت تتحول إلى حصة ضرب وصراخ ودموع.

هكذا كانت تمرّ حصة الرياضيات، أما حصّة الإملاء باللغة الفرنسية فحدّث ولا حرج، كانت المعلّمة تترك جميع الفتيات يكتبن جالسات فوق مقاعدهن، وتطلب منّي دونا عنهن بأن أقوم في كل مرّة وأكتب على سبورة الفصل النصَّ الإملائي كاملا، أمام الجميع، وكان هذا الأمر يتعبني كثيرا، لدرجة أن والدتي سألتني يوما عن سبب هذا التعب والإرهاق الذي كان يبدو علي كل يوم جمعة، وكنتُ أجيبها:

- إنّهُ بسبب حصّة الإملاء
- أرى أنّ معلمتك تبالغ في الأمر، ألم تعرفي لماذا تقوم بهذا الأمر معك أنت فقط؟

- لا يا والدتي، ليتكِ تذهبين عندها وتكلّمينها في الأمر، فإنني تعبتُ والله من كلّ هذا، وكأن لا أحد في الفصل سواي، ثم أنها تطيل فيّ التحديق دائما. وعيناها الجاحظتان وأسنانها الكبيرة تثير فزعي يوميا
- لا عليكِ يا صغيرتي، هل تتذكرين اسمها؟
- الحمامة قمر

ضحكت أمي بشدة حينما نطقت لقب واسم المعلمة ثم علّقت قائلة:

- عجيب أمر هذه الأسماء والألقاب، هذه المرأة تقوم بكل هذه الأفعال الشنيعة ولقبها حمامة واسمها قمر! لا شكّ أنها قمر في مرحلة محاق، وغراب بشكل حمامة.

وذهبتْ أمي إلى المعلمة كما وعدتني، واكتشفتْ أن هذه الأخيرة كانت صديقة من صديقات طفولتها البعيدة، ولكن شواغل الحياة أنستها إياها تماما. كنتُ أراقب عن بعد في الفصل حديثهما، وحمدتُ الله على جميل نعمائه، فأخيرا سأستريح من مزاجية هذه المرأة وأمراضها النفسية، فما من شكّ ستراعي الصداقة التي كانت ذات يوم بينها وبين أمي. لكن ما من فائدة، وكأنني بعد أن أخبرتُ أمّي بأمر المُدرّسة وبعد زيارتها لها، صببتُ النار على البنزين، فالمعلمة أصبحت لا تفارق وجهي، بل كانت تأتي بكرسيها وتجلس أمام طاولتي الخشبية، وتبقى هكذا تطيل فيّ النظر، إلى أن حدث شيء طارئ في حياة المُدرّسة، بدأت بطنها تنتفخ يوما بعدَ يوم، وأصبحت لا تستطيع الوقوف، وكان عليّ أن أتحمّل جلوسها أمام طاولتي طيلة فترة حملها، فالمسكينة كانت تتوحّم عليّ وهذا ما نسيت أمّي أن تقوله لي بعد زيارتها التاريخية تلك لها.

ومن المَدْرسة الابتدائية، انتقلتُ إلى المدرسة الإعدادية، وهناك كانت قصّتي مع مادة الرياضيات تشبهُ الخرافات والأساطير، فإذا كانتْ مُدرّسة الرياضيات الأولى تحبّني لدرجة الحُمق والتوحّم عليّ، فقد كانت الأستاذة الجديدة تكرهني من كلّ أعماق قلبها الأسود، هكذا بدون سببٍ أو جريرة، وكانت كلّما دخلنا الفصلَ تفاجئني بعبارتها المتكررة على الدوام:

- هيّا، استظهري خاصّية طاليس الأولى ثم الثانية العكسية

كانت تقف أمامي وتنظر إليّ بشزر وشرر يتطايران من عينيها الضيّقتين، ومن شفتيها الملونتين بأحمر شفاه داكن، كان يجعلها تبدو كأنها مومس فرنسية على قارعة شارع الشانزيليزيه، وكان حذاؤها الأحمر الصارخ ذي الكعب العالي جدا، ورائحة عطرها النّفّاذة يزيدان من توتّري، لأنني كنتُ أرى فيهما علامات من التحدّي السّافر من أستاذة تجاه تلميذة لم تُكمل بعد سنواتها الثلاثة عشر، إلا أنني كنتُ أتظاهر بتجاهل كل هذا منها وأستظهر الخاصيتين معا بمنتهى الطلاقة والدقة وأجلسُ، وبداخلي تغلي مراجل من علامات الاستفهام عن سبب تصرفات وسلوكيات هذه المرأة معي، لكن ما من مُنقذ من بحار هذه الحيرة المتلاطمة الأمواج، إلا أنّ ما زاد الطين بلّة، هو ذاك النوع من التضامن والتلاحم الذي أصبحتُ أستشعره بين هذه الأستاذة، وصديقتي العزيزة التي كانت تجلس يوميا إلى جانبي على نفس طاولة الدرس، بل كانت أيضا رفيقة طريقي من المدرسة إلى البيت بحكم أننا كنّا نسكن في نفس الحيّ. نعم كنتُ أستشعر نوعا من التضامن، لا بل دعوني أسميه أيضا تواطؤا؛ كانتا معا تتبادلان الابتسامات، وكانت الأستاذةُ تمعن في مديحها للتلميذة، وتثني على عبقريتها في مادة الرياضيات، وكانت أعلى العلامات تذهب دائما إلى بشرى وكان هذا اسمها، وأضعفها توضع فوق ورقة امتحاناتي، وكنتُ أحدّث والدتي بالأمر، لكنها كانت تهوّن من الأشياء، وتقول لي بأنني كثيرا ما أبالغ في تقدير الأمور أو في وصفها، لكن يعلم الله أنني لم أكن أبالغ في أيّ شيء، فقد كانت صديقتي بشرى تتعمّد أن تشعرني بالإحراج دائما، خاصة في لحظات الاختبارات والامتحانات الورقية، إلى أن جاء يوم ورفعت فيه إصبعها وقالت للأستاذة وهما تتبادلان معا ابتسامة خبيثة:

- أريد أن أغيّر المقعد، فإنّي أخشى من أن تنقُل أسماء أجوبتي، وتكتبها كاملة في ورقتها.

التفتت جميع زميلات الفصل إلى بشرى، واستغربت واحدة منهن الأمر وكانت من مدينة فاس، ونظرت إليّ بعينيها الواسعتين الجميلتين، وكأنها تقول لي: لا عليك يا أسماء، لا تهتمي لأمر هذه البادنجانة، فإنها لا تساوي شيئا، ومهما عملتْ فإنّها لن تنال منك ومن تفوقك.

خفضتُ عينيّ، وكانت تلك هي المرة الأولى التي شعَر فيها قلبي الصغير بمرارة الظلم، ونزلتْ دمعة حرّى من عينيّ، وخاطبتُ إلهي في صمتٍ، وقلت له: إنك أنت وحدكَ ترى بعينك، ولا أحد سيصدّقني إن أنا رويتُ ما وقع لي اللحظة فافعل يا إلهي ما ترى فيه الخير لي وامكر لي ولا تمكر عليّ، فليستْ توجد هنا أدلة ولا أسباب مقنعة تبرر تصرّفات هذه الأستاذة الغريبة الأطوار والطفلة البادنجانة، وقد كانت جميع التلميذات يناديها بهذا الاسم، لأن لون بشرتها كان داكنا مائلا إلى ازرقاق.

وانتهت حصة الامتحانات وكانت النتيجة دائما كالمعتاد، أعلى العلامات للبادنجانة، وأقلّها لي. وكان هذا يزيد من حيرة والدتي وقلقها، وكانت تقول لوالدي:

- «مستحيل هذا الأمر، أنا لا أستطيع أن أستوعب نتائج أسماء في الرياضيات، هل يعقل أنها تحصل على أعلى العلامات في الفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية، وباقي المواد الأدبية، وفي الرياضيات التي كانت من المتفوّقات فيها، باتت تحصل على أقل الدرجات!»، وكانت كلمات والدتي لوالدي تزيد من حزني وقلقي، إلى أن حدث في يوم من الأيام أن دخلتُ الفصل، وباشرتني الأستاذة كعادتها بالسؤال نفسه حول خاصية ومبرهنة طاليس، فاستظهرتُها كاملة لكنني تلعثمت في الجملة الأخيرة بسبب ما بدأ يتراكم بداخلي من إحساس مرير بالظلم، فرفعتِ الأستاذة يدَها ونزلت بها على خدّي بكل ما فيها من قوة وغلّ وحقد، وكأنّها كانت كل هذا الوقت تنتظر مني تلك اللحظة التي يتسرّبُ فيها الألم الشديد إلى نفسي، ودون وعي منّي وجدتُني أصعدُ فوق الطاولة وأردُّ لها الصفعة بصفعتين فوق خدّيها الجميلين، فارتبكتْ من هول المفاجأة، وسقطت أرضا، وصرخت التلميذات،

وقمتُ أنا وبصقتُ فوق جسدها وفوق البادنجانة التي كانت تمسكُ بيدها وتحاول إنهاضها من الأرض وخرجتُ من الفصل لا ألوي على شيء.

ذهبتُ عندَ والدي إلى مقرّ عمله ورويت لهُ كلّ التفاصيل، فخرج من مكتبه وأخذني من جديد في سيارته إلى المدرسة وطرق باب الفصل ففتحت لهُ، ويا للمفاجأة العظيمة: كان والدي يعرف أستاذة الرياضيات معرفة جيّدة، لقد كانت زوجة صديقه الحميم الذي كان يعمل معه في نفس مكان عمله، كانت الأستاذة زوجة النائب العام، وكانت البادنجانة ابنة رئيس القضاة، وهما معا كانتا تعرفان ابنة من أكون، إلّاي أنا، لم أكن أعرفُ عنهما أيّ شيء.

ذهل والدي وقال لها:

ما الذي حدثَ يا سعاد، ما الذي جعل الأمور تصل بينكما إلى هذه الدرجة؟ لماذا ضربتِ أسماء؟

تمالكت الأستاذة الموقف وكانت ردّة فعلها أشدّ غرابة من سلوكياتها الأخرى السابقة وقالت وهي تبتسم وكأنها تخفي شيئا ما:

إنّ أسماء كابنتي تماما وإني والله لأحبّها حبّا جمّا، ولكن يبدو أنّها عزيزة نفس وأبيّة ولم تتحمل صفعتي لها أمام زميلاتها، فتصرّفتْ بهذا الشكل، وإني سامحتها فأنت تعرف، هي الآن أيضا في مرحلة مراهقة، ولا شك أنّ هذا يبرر أيضا سرعةَ غضبها، لا عليك أخي العزيز لا تهتم للأمر.

قالت سعاد لوالدي، ثم نظرت إليّ وواصلتْ، هيّا عودي للفصل فأنت ابنة الغالي، ولا تكرّري هذا الأمر ثانية، لأنني عندها سأضطر لاتخاذ الإجراءات الإدارية اللازمة معك، وأطردك من المدرسة لأنني أستطيع أن أقوم بهذا تماما.

حاول أبي قبل أن يعود إلى عمله أن يهدّأ من حدّة الأمور، وعدتُ إلى مقعدي وفي رأسي ألف سؤال وسؤال، عن سبب كل هذا الحنان المفاجئ منها وتغيّر معاملتها لي فيما بعد.

انتهت حصّة الدروس الصباحية، وعدت إلى البيت وهناك وعلى مائدة الغداء رويتُ لوالدتي التي كانت قد عادت من عملها كلّ شيء، استغربتِ الأمر هي الأخرى، وقالت:

- عجبا، سعاد سيدة راقية وابنة عائلة طيبة لا أعرف ما الذي جعلها تقوم بمثل هذا السلوك؟

كانت عبارة (ابنة عائلة طيبة) هذه التي نطقتها والدتي هي المفتاح الذي حلّ لغز هذه المرأة، أجل، فما إن سمعها والدي حتى قال:

- الآن عرفتُ السبب، وإني أظنها لن تترك ابنتنا لحالها إلى أن تدمّر مُستقبلها الدراسي، إنّها تريدُ أن تنتقم منّي أنا، وقد اتفقتْ في هذا الأمر مع زوجها ومع صديقي الآخر رئيس القضاة، ألم أقل لكِ إنّ أسماء كاشفة، فبها تتكشف الأمور، لكنّ الذي يحزنني أنها ستدفع ثمن أخطاء الكبار من براءة قلبها الجميل ودموع عينيها الطيبتين.
- لم أفهم يا عزيزي، أيمكنكَ أن توضح لي بشكل أكبر، ما شأنها بنا حتى تضمِر لنا كل هذا الحقد، وترغب في الانتقام منا من خلال ابنتنا؟
- إنني أنا السبب، وأنا المقصود، فلم أزل أتذكر أنه في أحد الأيام كنا مجتمعين معا نحن الأصدقاء الثلاثة في إحدى قاعات المحكمة، وكنا نتحدث عن أسَرِنا وما حققه كل واحد منّا من إنجاز، وبدأ كل واحد يتحدث أيضا عن زوجته وثقافتها وأصلها ومنبتها، إلى أن بدأ النائب العام يتحدّث هو الآخر عن زوجته، فقلتُ له مازحا: «يا رجل، عن أيّ منبت طيب تتحدث، فكلنا يعرف من تكون سعاد قبل أن تتزوج بك، أنت من أعطيتها الاسم والجاه والسلطان، وقد كانت تبيع البيض في إحدى بوادي فاس، ولولاك أنت لما أصبحتْ هي اليوم في المرتبة التي هي عليها الآن».

شهقت والدتي، وقالت:

- أنا أعرفك، لسانك هذا هو سبب كل المصائب التي تحلّ بِكَ، أيوجدُ شخص يتحدث هكذا لرجل عن زوجته، حتّى وإن كانت هذه الأخيرة من فتيات الليل، ثمّ مالكَ وما لها إن كانت تبيع البيض أو حتى الزّيتون؟! إلّا الزوجات، فهذا خط أحمر لا أحد عليه أن يتخطّاهُ...
- ليس الأمر كما تتصورين، فصديقي إنسانٌ جادّ وطيّب ولهُ عقل حكيم، وقد فهِم جيدا، أنني لم أكن أقصد الإهانة ولا التجريح، وإنما هو كلام جاء في سياق الحديث والدردشة، وإني لأعتقدُ أنهُ رواه لزوجته، فثارت حفيظتها هي، وملأت قلبه حقدا وألّبته ضدّي. عموما هذا الأمر سيتوضح بشكل أكبر حينما سألتقيه غدا، وأستفسر منه عن التفاصيلِ.

وذاك ما كان فعلا، إلّا أن زوج الأستاذة، أكّد لأبي أنّه لا شأن له بكل هذه التطورات، وأنه هو مثله حقا يخشى عليّ من انتقام زوجته، لأنّ طبيعتها هكذا، إذا أضمرت شيئا فلا بد ستنفّذهُ، فطلبَ منهُ والدي أن يتوسّط له لدى زوجته ويُهدّأ من روعها، ويُرجعها عن غيّها، لكن هذا الأخير أجاب والدي قائلا: «كان من الممكن جدا أن يحدثَ هذا لو لمْ تردّ ابنتك الصفعة بصفعتين». «ولكنّها سامحتها أمامي»، عقّب والدي، «يا لك من مسكين، أنت لا تعرف سعاد، لن تسامحها أبدا بعدَ الصفعة»، ردّ النّائب العام.

ومرّتِ الأيام طويلة عريضة، وأنا والأستاذة نحاول أن نتناسى هذه الواقعة، أو نتظاهر بذلك، وهي كانت تستمر في إعطائي أقل العلامات التحكيمية في امتحانات مادة الرياضيات، وأنا من جهتي كنت أحاول في ركضٍ ماراثوني أن أعوّض في بقية المواد النقصَ الحاصل في الرياضيات، حتى لا تؤثّر علاماتها على النتيجة النهائية العامّة في آخر السّنة الدراسية، وقد نجحتُ في هذا الأمر نجاحا كبيرا، إلى أن حدثتْ مرّة أخرى مشكلة لم تكن في الحسبان، فبينما كنتُ في حصّة اللغة العربية، إذا بأستاذة هذه المادة تناديني عند انتهاء الدرس وتقول لي بالحرف الواحد:

- ليتك يا عزيزتي أسماء تطلبين من والدتك القدوم عندي غدا، فثمّة أمور أريد أن أتناقش فيها معها بشأن لجنة الامتحان التي تشكلت بخصوص النتائج النهائية لهذه السنة الدراسية.

وفي الغدِ زارتْ والدتي أستاذةَ اللغة العربية، التي كانت من خيرة سيدات التعليم في المدينة كلها، وتتمتّع بجمال روح وفكرٍ، وروعة خَلْق وخُلق:

- الأمور مقلقة يا عزيزتي زهراء، لقد تشكّلت لجنة امتحانات قبلَ يومين وخُصّصت فقط لمناقشة مشكلة أسماء مع أستاذة مادة الرياضيات، هذه الأخيرة مُصرّة على ترسبيها بدعوى أنّ كل النقط التي حصلت عليها طيلة السنة هي موجبة للرسوب، وإن كانت معدلاتها في المواد الأخرى مرتفعة جدا، ومديرة الإعدادية تساندها في وجهة نظرها هذه، وأنا الوحيدة التي وقفتُ وتصدّيتُ لها، وقلتُ بأنه إذا استدعت الأمور فإني سأطالب قانونيا بإعادة تصحيح كلّ أوراق امتحانات أسماء في الرياضيات من قبل لجنة تفتيشية نستقدمها من الرباط كي تبتّ في الأمر.

ذهلت والدتي من كلام الأستاذة زينب، وكان هذا هو اسمها، وقالت لها:

- «ألهذه الدرجة وصلت الأمور، أليس أمام هذه المرأة تلميذة أخرى غير ابنتي، هي حرب كبيرة إذن؟! لم أكن أتخيّل في يوم من الأيام أن أقف موقفا كهذا، يا إلهي، الطف وارحم، فإنني أمام مخلوقة تجسّدَ فيها الشيطان، وتجبّر».

سمعتُ كلمات والدتي، وشعرت بوخزة أليمة في قلبي، وخلتُني شبتُ بين ليلة وضحاها، وعدتُ وإيّاها إلى البيت، ولمْ أنم الليلة كلها، وأنا أفكّرُ في حلّ هذه القضية لوحدي، بعيدا عن لجنة العاصمة الرباط، والتحقيقات التي كنتُ متأكدة من أنها ستقود أستاذة الرياضيات مباشرة إلى السجن، وذلك لعلمي اليقين بتزويرها لكلّ أوراق الامتحانات الخاصّة بي، فرأفتُ بحالها، وفكّرتُ في زوجها وابنها الصغير، وفكّرتُ أيضا في والدي الذي منَ المؤكد كان سيتأثر عمله سلبا بهذه الواقعة، واستيقظتُ في اليوم التالي وقد أصبح عمري فجأة ثمانين سنة، هكذا كنت أشعر حقّا، وذهبتُ إلى غرفة نوم والدي وقلت له حرفيا:

- دعوها ترسّبني هذه السّنة، وبإذن الله سأحاول أن أعوّض كل شيء السنة القادمة، لكن بشرط واحد، ألا تكون هي نفسها مرة أخرى أستاذة مادة الرياضيات للسنة الجديدة.

بكى والدي، وذهب معي بعد الإفطار عند أستاذة اللغة العربية زينب وأخبرها بقراري، ووعدَتْهُ بأن يكون لي ما شئتُ وبأنّ أستاذة الرياضيات للسنة القادمة ستكونُ كما أحبُّ وأرضى، وذاك ما كان فعلاً، كان اسم أستاذتي الجديدة مريم، وقد أحببتُها كما لم أحبّ أستاذة من قبل، وحصلتُ معها في السنة الجديدة على أعلى العلامات في مادة الرياضيات وعادتْ لي الفرحة والبهجة والسرور، ومرّت السنة الجديدة وكأنها يوم واحد، يوم واحد تعلّمتُ فيه معنى أن تحيكَ ضدّك النساءُ في الخفاء حبال المكائد، ومعنى أن تخونَك الصديقات في العلن، ومعنى أن يؤيدك الله بالنصر العزيز وإن بعد سنوات، لكنني على الرغم من ذلك كلّه حزنتُ لتلك الأستاذة الأولى حزنا شديدا، لأني علمت فيما بعدُ بأنّها جُنّت وأخذَها زوجها لتتعالج في مستوصف للأمراض العقلية، بعد سنة واحدة مرّت على ماقامت به معي، لأنها فقدت ابنها الوحيد الصغير في حادثة مروعة، إذ غرق المسكين في حمام السباحة المنزلي بعد أن تركته قربهُ للحظات بسيطة ودخلت إلى البيت كي تجلب له الفُوَط لتتشّف بها جسده الصغير، وإذا به أثناء غياب أمه ينزلق في الماء ويموت قبل أن تعود إليه والفوَط بين يديها. أمّا الصديقة البادنجانة، فقد لقيَت هي الأخرى المصير نفسه ولكن بعد ثلاثين سنة على فعلتها معي، وهي اليوم تعالج في إحدى المصحات النفسية الفرنسية بسبب إدمانها المخدرات أثناء فترة دراستها بإحدى الجامعات بالعاصمة باريس. وعلى الرّغم من هذا كلّه، فقد حاولتُ أنْ أنظر لهذهِ التطورات الأخيرة على أنها مُجرد "صدفة"، [وإن كنتُ ولم أزل لا أومن بالصُّدَف] أو مجرّد نتيجةٍ لأحداث كانت وراءها أسباب لا علاقةَ لي بها لا من قريب ولا من بعيد، وأنْ أركّز بشكل أكبر على ما أفدتُهُ من دروس من خلال هذه التجربة مع هذه الأستاذة، وعلى ما سأستفيده في كلّ يومٍ من دروس أخرى جديدة قد تشبهُ وقدْ تختلفُ أيضا في مضمونها عن الدروس السابقة،

وإن كان الوجهُ الذي يأتني بالدروس دائما هو الوجه نفسهُ: وجه المرأة حتّى حينما يلبسُ في كثير من الأحيان قناعَ وجهِ الرّجل، لأنّ الأيام كانت تثبتُ لي دائما، أنّهُ حتّى وإنْ كانتْ تخيبُ بعضُ آمالي في تعاملي بشكل أو بآخر مع وجه قد يدخلُ إلى حياتي بملامح رجل، أو كانتْ تأتيني من هذا الأخيرِ طعنة على غير ما كنتُ أتوقع، فإنني أكتشف فيما بعدُ دائما أنّ من كانَ يُمسكُ سكّينة الطّعن والذبح هي دائما يدُ امرأة ولم تكن أبدا يد رجل. والجميل في هذا وذاك، أنني في كل مرّة كنتُ أتوصل إلى هذه النتيجة، كنتُ ألتزم الصمتَ وابتسمُ، وأتظاهر دائما بأنني لا وَلم أفهم شيئا، وإنْ كنتُ أرى بعينِ قلبي كل شيء، حتى وجوه النساء اللائي يطعنّني في الخفاء وهنّ يرتدين قناع وجه الرجل في العلنِ.

(٢)

الشيخ السنّور في عيد الخليل

اليوم كانت وقفة عرفات وغدا عيد الأضحى. وأنا ككل عيد أحس بقلبي يخفق بشدة من كثرة الفرح وكأنه سيحل ببيتنا ملاك عظيم أو نبي كريم أو هما معا. رائحة البخور الذي تشتريه والدتي من حجاج البيت الحرام كل سنة تُعطّر المكان وتمتزج فيه برائحة المسك والورد، وأنا وسط كل هذا أشعر وكأنني بين أحضان حديقة من حدائق الفردوس: الموائد ملآى بما لذ وطاب من نعم الله وجرس الباب لا يكف عن الرنين: بعض من الأصدقاء والأقارب يأتون بعد صلاة العصر كي يباركون للأسرة حلول العيد، وأنا أقفز بينهم مرحة مبتهجة بفستاني المخملي الزمردي اللون والمطرز بأشكال زاهية من الزهور والطيور، وسعيدة بحذائي الأحمر اللامع وبضفائري المزينة بحبات كرز برّاق. ألتقط بين الفينة والأخرى قطعا من الحلويات وأشرب كأس شاي من هذه المائدة وكوب عصير فاكهة الرمان من مائدة أخرى، وأعد الدقائق منتظرة انقضاء فترة الزيارات كي أستعدّ قبل النوم لطقس حناء العيد.

آه كم أحب حناء العيد، بل كم أحب دراهم الحناء الخضراء بيدي التي ما إن تبزغ أولى خيوط الفجر حتى تتحول إلى شموس تجذبني بلونها الياقوتي وتأسرني بعطرها العدني فأهُبّ مستقيظة من فراشي قبل الجميع وأصعد إلى الطابق العلوي وأوقظ والدتي هامسة لها في أذنها:«لقد حضر الملاك الأعظم، هيا استيقظي. لقد حضر العيد». فتتحرك ببطء في سريرها حتى لا توقظ والدي وتقول لي بصوت منخفض: «أنا قادمة. اصعدي إلى السطح فصديقك ينتظرك كي تلقي عليه تحية الصباح».

أخرج مسرعة من غرفة نومها وأذهب كي أغسل وجهي وأطرافي، وأصعد مباشرة عند صديقي الخروف. نتبادل النظرات وتسبقه إليّ رائحة صوفه وكلمات عينيه. أقترب منه، يقترب مني. أضع يدي على قرنه يقترب بفمه من يدي الأخرى. أهمس له: «لن أحضر طقس جريك نحو جنان الخلود، فموقف الجري هذا يدخلني

في دارة الركض الجنوني ولا قدرة الآن لقلبي الصغير على الجري خلفك، يكفيني ما يصلني من ريح تلك الجنان وعطرها». أقبّلُ صوفه ثم أنزل كي أجد والدي وقد استيقظ وشغّل شريط الكاسيت القرآني الذي يحب الإنصات إليه كل عيد: سورة يوسف بصوت الشيخ عبد الصمد عبد الباسط.

تبدأ القعقعة والجلجلة ويُذبَحُ الخروف بعد صلاة العيد، وتبدأ والدتي في إشعال الفحم من أجل وجبات الشواء الأولية، أما أنا فأنتهز فرصة انشغالها بكل هذا وأذهب إلى غرفتي طلبا لنسيان ذكرى نظرات صديقي الخروف وكلامه الصّامت إليّ. أقترب من نافذة الغرفة، أفتحها وأطل على تلك الساحة الكبيرة القريبة من مقر سكة الحديد بمدينتي علّني أشغل نفسي بمنظرها ويا لعظم ما أرى، فالساحة لم تكن فارغة كالعادة، لقد كان بها ما لا يخطر على فكر بشر وما لا يصدقه لحظ أو بصر: أمم من القطط.

تحجرتْ عيناي من غرابة ما رأيتُ وبقيتُ واقفة لفترة من الزمن وكأن صعقة كهربائية أوقفت الدم بعروقي، ثم نزلت بعد هذا مسرعة إلى الخارج وذهبت إلى الجانب الخلفي من بيتنا علّني أفهم أو أستوعب سبب وجود كل تلك القطط بذاك المكان. كنتُ أحس برهبة شديدة وأنا أخطو نحو الحضرة الكبرى لقطط مدينتي. لم يساورني شك آنذاك وأنا الطفلة التي لم تتجاوز سنواتها الثمانية بأنني على وشك أن أعيش أقوى لحظة وأغرب وقفة في حياتي كلها. وكلما تقدمت نحوهم كبر السؤال بداخلي: «من الذي جمعهم في هذا المكان ولماذا؟ وربّ الكعبة لو صَرفَ مُحافظ المدينة كلّ ما في البلد من مال وقوة ومركز وجاه على أن يجمع كل هذه القطط في مكان واحد وساعة واحدة لما استطاع لذلك سبيلا ولو كانت أغرب قوى الطبيعة المرئي منها وغير المرئي له ظهيرا». اقتربت أكثر وأكثر وكلما اقتربت ازدادت الرؤية وضوحا ورأيت منهم الجنس الأسود والأبيض والأصفر والرمادي والبني والمرقّط. كانوا كلهم في حالة جلوس وصمت عميق. كنت أحسني في تلك اللحظة بألا أحد يوجد في

المدينة كلها سوى هم وأنا، وبينما أنا مأخوذة بهذا الشعور إذا بواحد من هذا الحشد الهائل من القطط يقوم ويتقدم بخطى ثابتة نحوي ويقول بلغة القلب:

- السلام عليكم يا شمعة كل اِسم، وعيدك مبارك سعيد.
- وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته. أجيب صامتة في خوف وتردد
- أنا السنور السبّعُ. أنا شيخ هذه الأمة من القطط بمدينتك.
- لماذا أنتم هنا؟ أردّ وقد بدأ الخوف يذهب عن خاطري وبدأ قلبي يدخل مقام الأمان.
- إنه يوم ملك الملوك وخليلُه. أترُانا إذا حضر الملك وذُبحت له وباِسمه أعظم وأكمل الأكباش، أترى قبل أن يلمسها عباده ويتشاركون معه فرحة إيمانهم به في هذا اليوم، يَحقّ لنا أن نلمس ولو قطعة صغيرة من لحم هذه القربان؟ لا وألف لا. إنها قدسية الأُضحية ومعناها العظيم عند الخالق، لذا لا يحق لأيّ هرّ أو سنور أن يقترب منها ولا أن يشم ريحها قبل أن يأتيه الإذن من صاحب الشأن وقبل أن يمرّ هذا اليوم. ولأجل هذا ترينا هنا وقد اجتمعنا ننتظر أن تنتهي ساعات الذبح وتوزيع اللحم على الفقراء والمعوزين والمحتاجين من الناس. احفظي هذا وتذكريه جيدا لأنك لن ترين مثله بعد اليوم في حياتك كلها. وعودي الآن إلى البيت فقد قضي الأمر وأوصلت لك بعضا مما وجب عليك معرفته، وكل عام وأنت بألف خير، وكل عيد وأنت العيد يا شمعة كل اِسم.

عدتُ إلى البيت بسرعة البرق ثم صعدتُ إلى غرفتي كي أغلق النافذة، وبعدها قصدت والدتي لأجلس معها وباقي أفراد الأسرة حول مائدة الغداء. أكلتُ وإياهم مما أعدته يداها الطيبتان ثم خرجنا معا بعد صلاة العصر وقد حملنا بين أيدينا صحنا ضخما من المفتول المغربي كي نأخذه إلى مسجد الوليّ أحمد بن صالح دفين المدينة وشيخها الأكبر .

(٣)

قائد أوركيسترا الماء

مدينة بني ملال هي من أجمل المدن التي بهرتني خلال أيام الطفولة البعيدة القريبة، والتي قضيتها ببلدي الحبيب ومسقط رأسي المغرب. هذه المدينة لها من السحر ما يأسر القلوب. لم أولد فيها و لكني أقمتُ بها وأسرتي لمدة سنة كاملة وذلك بسبب ظروف عملي أبي التي كانت تضطره إلى التنقل من منطقة لأخرى وخاصة في فترة السبعينيات والثمانينيات من حياة الأسرة برمتها. أحبُّ هذه المدينة لأسباب عدّة؛ فبها ولدت أختى الصغرى، وبها سحرتني الطبيعة بجمالها الفاتن. لا أذكر الكثير عن سكانها وتقاسيمهم الجسدية، ولكني أذكر كل شيء عن المدينة: لون التراب بها بل رائحته. ولون ضياء الشمس بها بل صوته، أجل فللضياء صوت ورائحة أيضا، أسمعه وأشمها عند الفجر، وعندما تصبح الشمس عمودية في السماء، وعندما تشرف على المغيب مساء. رائحة الضياء في هذه المدينة لها طعم الملح وصوته يشبه نغم تبرعم النبات تحت الأرض الندية. أما هواء المدينة فله طعم الثلج المحلّى وهو يذوب بين شفاه يبسّها الظمأ. جبالها شامخة في صمت مهيب، وأشجارها باسقة تتدثر خضرتها ببعض من المشيب بشكل يجعل لونها يشبه لون أوراق الحناء عند فصل الصيف. أما مياهها فهي منبع كل هذا الحب الذي مازال ينبض بداخلي حتى لحظة كتابة هذه الكلمات. ماء بني ملال سرّ إلهي عظيم. رقراق عذب لذة للناظرين والشاربين والسائحين والهائمين والذائبين في ملكوت ملك المُلك رب العالمين. ومن هذا الماء كانت رحلتي الطويلة القصيرة مع شيخ من شيوخ هذا البلد أسميته منذ وقع بصري عليه "قائد أوركيسترا الماء". كنت آنذاك لم أتجاوز بعد سنواتي التسع وكان الفصل صيفا وكان الشهر رمضانا مباركا وكان المكان جنة من جنان الله بهذه المدينة اسمها "عين أسردون".

كان والدي يُحب هذا المكان كثيرا، ولا أعرف كيف خطرت له في ذاك الشهر المبارك فكرة أن يأخذنا قبل آذان المغرب لنتناول وجبة الإفطار الرمضاني بين

أحضان الخضرة وخرير المياه وشدو العصافير. الفكرة كانت طبعا بالنسبة لي أكثر من عبقرية فبهذه العين شعرت أنني خارج الزمان والفصول والأماكن. حينما وصلنا إلى هناك لم يكن بهذه الجنة أحد سوى ثلاث عائلات أُخَر أحضرت إفطارها وجلست فوق زرابي الله الخضراء على الأرض تستمتع بسحر المكان وموسيقاه، وعندما انتهينا من إرواء الظمأ وسدّ حاجتنا من الأكل استأذنتُ أمي في الابتعاد قليلا عنها بحجة الذهاب للّعب مع أطفال الأسَر الأخرى التي كانت لا تفصلنا عنها سوى بضعة أمتار، لكن السبب الحقيقي كنت أعرفه أنا فقط. مذ دخلنا الجنة وأنا أصيخ السمع لمختلف عطور النباتات ولأصوات الطيور والحشرات، لكن ثمة صوت ميزته بين كل هذه الأصوات واجتذبني وكأنه كان يبحث عنّي فهببت ألبّي النداء، وتبعت مصدره، وكلما اقتربت من الماء كلما ارتفعت ذبذباته، ولم أتوقف إلا عندما بدأت أطيل التحديق في الساقية وجريان الماء وخريره وسط سريرها، وبينما أنا مأخوذة بالبحث عن صاحب الصوت إذا بقدمي تفقد توازنها وتقذف بي أرضا فوق مساحة من العشب المبلل، عندها فقط رأيتُ مخلوقا غريبا يقفز بشكل بهلواني ويستقر مباشرة فوق صدري: يالله ماهذا المخلوق الغريب؟ إنه لا يحرّك ساكنا. ينظر إليّ وأنظر إليه، وأنا خائفة منه، ولا أستطيع أن أحرّك إصبعا من جسدي الواقع على الأرض الندية. أحاول أن أهدّأ من روعي أو هكذا خيل لي، لكنه مازال ينظر إلي وكأنه يدعوني إلى الكلام معه أو التجاوب مع نظراته. لكن بدون جدوى فشكله الغريب وجلده البرّاق وعيناه الجاحظتان وأطرافه العجيبة، كل هذا كان يثير في نفسي الكثير من القلق وبالرغم من ذلك بدل القفز والهرب منه، لا أعرف لماذا كنت أشعر وكأن شيئا يشدني إلى الأرض ويقيّدني أمامه، ولا أعرف لماذا وبفعل كثرة إطالته التحديق فيّ بدأتُ أألف شكله وأتشجع على النظر إليه بشكل أكثر سكونا وهدوءا، ذلك أنه لم يكن في الحقيقة بشعا كما ظننت أول لحظة. إنه نوعا ما ضخم، ولكنه ليس بثقيل الوزن.

شيء آخر لم أقله عنه. إنه أيضا خفيف الروح ويميل إلى الدعابة. أو ربما هكذا خيل إلي، فبينما هو على صدري الصغير إذا به يبدأ في نفخ وجنتيه وإصدار

ذاك الصوت الذي جذبني إلى هذا المكان بشكل جعلني أتأكد من أنه هو من كان يبحث عني، وهو من أرادني أن آتي إليه. لم يعد شكله بعد ما استخلصته من صوته يشغل بالي، ولكني عدت من جديد أركز على صوته. كنت أحاول أن أفهم ما الذي يقوله أو مع من يتواصل ويتحدث، ونسيت الأرض المبللة تحتي، ودخلت وإياه في حضرة الصوت والسمع، ويا لعجيب ما رأيت وما سمعت!

كان المخلوقُ العجيب يلْقي كلمات أعجب. كان يلْحنها ويُغنيها، وكان كل من حوله يُردّدُها من بعده. المخلوق العجيب كان يقول في نشيج شجي: «عرشُه على الماء. وأنا خليلُ الماء. أنا به وفيه ومنه وإليه. عبدٌ يسجدُ لصاحب العرش. ويُسبّحُ باسمه، ويَسْبَحُ في نسغه العظيم الأعظم. لا حياةَ لي إلا في الماء. رمادا أصيرُ إن أنا عنه ابْتعدتُ أو أنا منه حُرمتُ. فلا تبْعدني عنك ولا تحرمني منك. ياربّ ياربّ ياربّ» وكان كلما ردد كلمة "ياربّ" انتفختْ وجنتاه. "ياربّ"، كلمةٌ سمعتُ الطيور في هذه الجنة تشدو بها وسمعتُ الشجر بحفيفه يغنيها، وسمعتُ النسيم العليل وهو يدغدغ أوراق الزهور ينطقها حرفا حرفا وحركة حركة وهو ذائب في حالة من العشق، والهيام العظيم، حالة لم أجدْ بُدا أمامها من أن أمُدّ يدي إلى هذا الكائن الغريب داعية إياه إلى الجلوس فوقها، وأدخل معه بصوت خافت في مدار السين والجيم:

- ما أسعدني بك اليوم يا خادما من خدام العرش وناسكا من نساك الماء. هلا تفضلت وقلت لي ما اسمك؟

قفز الكائن العجيب فوق يدي في سكون وهدوء ثم قال بالنقيق ذاته الذي جذبني إليه مذ دخلت "عين أسردون":

- أنا الضفدع. فيّ تتَضَفْدعُ الحياة، ومتى تضفذعتُ في الماء خرجتْ منّي مئات العناقيد من البيض، وخرجتْ منها آلاف الشراغيف تلهج كلها بالحمد والشكر لصاحب الماء والكرسي والعرش. وأنا الأخ التوأم لزهور الزنبق واللوتس، من النيل والغانج إلى دجلة والفرات. هي مثال وجودي وأنا مثال وجودها، كلانا له أصل

واحد ومكان عوْدٍ واحد وشكل واحد أوحد للعبادة: جلوسنا للذكر والتسبيح والتهليل فوق الماء.

سمعتُ بقلبي كل حرف نطق به الضفدع وأحسستُ كأنّ الأرض تدور تحت قدمي، والسماء تتساقط قطعا قطعا بنجومها وكواكبها فوق رأسي، ولم يكن لي أمام كل هذا سوى أن آخذ الضفدع بين يدي وأحمله إلى أقرب حوض ماء في تلك الجنة البديعة. وعدتُ أدراجي وكل أطرافي ترتعش من برد شديد أحسستُه يهبّ بداخلي بالرغم من أن الليلة كانت صيفية دافئة. وصلتُ عند أمي التي ما إن رأتني حتى بدأت تعاتبني عن القلق الذي سبّبه لها غيابي عنها لكل هذا الوقت فطلبت مني أن أريح جسمي وأنام إلى أن يحين موعد العشاء فأجبتها بألا توقظني إلا عندما يقررون مغادرة المكان والعودة إلى البيت من جديد.

هكذا كان أول لقاء لي مع ناسك الماء، لقاءٌ تلته لقاءات أخرى في مراحل أخرى من حياتي الدراسية، إذ كنتُ كلما حلّ فصل الشتاء أذهب للبحث عنه في كل مستنقع ماء كان يصادفني وأنا في طريقي إلى المدرسة الإعدادية أو الثانوية بالمدينة التي رأيت فيها النور. وكنتُ أخصّصُ لجولاتي الاستطلاعية هاته قنينات من الزجاج أضعها خفية عن أمي بحقيبة كتبي، وأعودُ بها إلى البيت ممتلئة بالماء والشراغيف، وأضعها تحت سريري حتى لا ينتبه أحد للأمر، أو على الأقل هذا ما كنتُ أعتقده إلى أن حدث أن عدتُ يوما من المدرسة ووجدتُ والدتي وقد أعدّتْ لي بغرفتي رفا خشبيا كبيرا وضعت فوقه كل زجاجات الشراغيف وقد غيّرتْ ماءها وثقبتْ أغطيتها من الأعلى حتى تضمن لضفادعي الصغيرة العيش بغرفتي لفترة أطول. هكذا كنتُ أرى أمام عيني كيف تكبرُ الضفادع وكم هي بعض أنواعها وألوانها، وكم هي عجيبة رسائلها المتعددة، رسائل كنت أستمتع بها جميعا، إلى أن أتى ذاك اليوم الذي وصلتني فيه من أكبر شراغيف غرفتي رسالةٌ حدثني فيها طوال الليل عن وحدة البحيرات والمستنقعات، وحزنها ووحشتها بدون ضفادع تُسبّح للخالق بداخلها. كم أبكاني هذا الشرغوف البديع وهو يحدثني عن زمن سيأتي وتحصد فيه الآلات البشرية

طحالبَ الماء وأعشابه وزنابقه، وتُقطّع فيه أوصالَ الضفادع بدون رحمة أو شفقة. كم أبكاني وهو يحدثني عن أيام ستجفّ فيها البحيرات من الماء وتموت فيها الضفادع من هول ما سيصيب نفوس الناس من جفاف وقحط. كم بكيتُ وبكيتُ، وتمنيتُ لو أجعل من قلبي بحيرات تَسَعُ كل ضفادع الكون كي تبقى به هناك آمنة تَسبَحُ وتُسبّحُ للخالق كيف ومتى شاءت وأرادت، لكن يبدو أن شرغوف غرفتي الحكيم كان ألطف وأرأف منّي، فقد سمع أمنيتي ودعائي، وقفز من الزجاجة واستقر إلى أبد الآبدين في قلبي.

(٤)

محرابُ الخطأ

أنا لا أتحدّثُ اللغةَ العربية، أيعقلُ هذا: أديبة عربية مسلمة ولا تتحدثُ لغتها الأمّ؟! أجل، فاللغةُ التي أتحدثُ بها في البيت وفي الشارع هي الإيطالية. ذلك أنني لا أخالط الناس كثيرا، وأولئك الذين أتحدّثُ معهم نادرا كلهم إيطاليون. وفي البيت أتحدثُ مع زوجي باللغة الإيطالية وإن كان هو أيضا عربيّ المسقط والمنشأ. كلّ سنواتي الدراسية كانت باللغة الإيطالية، وكلُّ أطاريحي كتبتُها أيضا باللغة الإيطالية: أكتبُ عن القرآن والإسلام باللغة الإيطالية، وأفكّر أيضا باللغة الإيطالية، ولا أعني هنا طريقة التفكير وتحليل الأمور والنظرة إلى الحياة وإشكالياتها الكبيرة، وإنما لغة التفكير والخلوة بالنفس ليس إلّا. والأدهى من هذا كله أنني أحلم باللغة الإيطالية! نعم، نعم، أحلم باللغة الإيطالية، ومعظم شخصيات أحلامي تتحدث معي باللغة الإيطالية، فقد يصادف مثلا أن أرى أبي يحدثني بالإيطالية، وهُو الذي لم يدرس في حياته أبداً حرفا منها، كما يمكن أيضا أن أرى وليّاً من أولياء الله وأصفيائه الرّاحلين يخاطبني باللغة الإيطالية، وهلمّ جرّ من هذه الأمثلة. ماذا قلتَ: شيء يحيّر؟ أعرفُ أنه كذلك، لكن علم النفس عنده الأجوبة لكلّ مثل هذه الظواهر، إلّا لظاهرة واحدة هي لصيقة بالجرح الرّوحي الدّفين الذي يُحدثه فطام الإنسان عن لغته الأمّ، إنه يشبه لحدّ ما فطام الرضيع عن حليب أمّه، لكن مع فارق كبير: الرضيعُ يَكبُر ويستغني عن حليب الأمومة تماما، لكنني أنا كبُرْتُ وفي كلّ يوم أكتشف أنني لم أستطع ولو ليوم واحد أن أستغني عن لغتي الأمّ، التي هي لغتي العربية.

مشكلتي الكُبرى ليستْ في مسألة الفطام هذه، ولكنَّها تكمنُ حقيقةً في كوني حاولتُ أن أداوي الجُرحَ بالعودة إلى لغتي واسترجاعها كتابةً، وأعتقدُ أنني وأنا في طريق عودتي هذه، استطعتُ لحدّ ما أن أفهم أيضا لماذا يكتبُ معظم أدباء المهجر العرب باللغة العربية، وليس بلغة البلد الذي يقيمون فيه؟ إنها قضية انتماء، وجذور دفينة. وعدم القدرة على الاستغناء تماما عن اللغة الأمّ يعني الشيء الكثير، لكنه لا

يعني قدرة الإنسان على الاحتفاظ منها بكل تفاصيلها، لا سيما منها النحوية والإملائية والصرفية. ولعلّ هذا هو السبب الرئيس الكامن وراء بعض أخطائي النحوية على سبيل المثال في العديد من نصوصي الأدبية التي أكتبها باللّغة العربية. فاللغة تطبيق شفوي أكثر منه كتابي، والعربية هي لغة سماعية بالدرجة الأولى، وإذا توقّفَ الإنسان لفترة من الزمن عن عدم الحديث بها وبالتالي تطبيقها في الحياة اليومية فإنها تضيع منه تماما ولا يبقى له منها سوى ذكريات بعيدة تعود إلى أيّام الكُتّاب والفصول التحضيرية الابتدائية.

أجل يا صاحبي في الحرف، أيّها المتلقي الحالم الصبور، أخطائي بما فيها النحوية متنوّعة، والّذي يزيد الطين بلة هو أنه يمكنكَ أن تجد في هذه الأخطاء بين ماهو عربي وآخر إيطالي وثالث فرنسي! فما الذي تنتظره من إنسان يحلم باللغة الإيطالية، ويكتب باللغة العربية، ثم يتحدثُ أيضا باللغة الفرنسية؟ إنه مصحّة عقلية متحركة بكلّ ما في الكلمة من معنى، وليس بالبعيد أن تجدَ عزيزي القارئ في كتاباتي "الشمسَ" بصيغة المذكر، و"القمرَ" بصيغة المؤنث، وعليه فمن المحتمل أيضا أن تجد في نصوصي جملةً من قبيل: "غاب الشمس وبزغت القمر، يا للروعة إنهما معا في غاية السِّحر"، وكلّ هذا مردّهُ إلى كون الشمس وفي كلا اللغتين الإيطالية والفرنسية تُنطق وتُكتبُ بصيغة التذكير، أمّا القمر فبصيغة التأنيث (il sole/ le soleil/ la lune / la luna)، وبما أنني أفكر باللغة الإيطالية، فإنني أكتبُ بها أيضا وإن كانت الحروف فوق الورق عربية. إنها مهزلة المهازل، فحتّى كلمة "الناس" قد تجدها في كتاباتي بصيغة المؤنث المفرد، لأنها كذلك في اللغة الإيطالية. أنتَ تضحك، نعم. لكن صدّقني عزيزي القارئ إنها مأساة حقيقية لا سيما وأننا كأدباء مهجريين، لا نجد أبداً من يرحمنا، إنّ الغيرَ يطالبنا بالدقة والتدقيق والتركيز، وعلماء النفس يعرفون جيدا أنكَ كلما دقّقْتَ وركّزتَ، كانت نسبة الوقوع في المحظور أعلى. أعتقد أن المسألة بحاجة إلى فنان مسرحي كوميدي مقتدر كي يجسّدَ فوق الخشبة للناس هذه الكارثة. تصوّر معي أنكَ وأنت تكتبُ تظطرُّ أولا إلى تغيير لغة لوحة مفاتيح الحاسوب، ونقلها من

اللغة الإيطالية أو الفرنسية، أو حتى من الإنجليزية إلى اللغة العربية دون إهمال ما يتبع ذلك من تغييرات أيضا على مستوى الأرقام وأدوات الترقيم العربية وما إليها. ثم وأنتَ تركّزُ في هذه الأشياء، عليك أيضا أن تُركّزَ على تدفق الأفكار الشلالي من دماغك وأنت بصدد كتابة قصة ما، أو مقالة نقدية أو قصيدة شعرية، فيبدأ كلّ شيء يرقصُ أمامك: الشخصيات، الأرقام، الفواصل وعلامات الاستفهام والتعجّب، ثم الأفكار. ويا ويلي من الأفكار: هذه وحدها طامّة عظمى، فأنت تريدُ أن تكتب شيئا معينا وتجد أصابعك تمحوه لأكثر من مرّة، لأنّ عقلكَ الرقيب غير راض عنه. وقد يبقى في النصّ أثر ممّا محوتَ، حرفا ما هاربا، أو كلمة بقيتْ مخبوءةً بين السطور ولا تراها تماما لأن عقلك الباطن قد قام بمحوها، وإن كانت هي مازالت ترقص فوق الورقة.

أنا شخصيا أتسلى كثيرا بمثل هذه الأمور، فغالبا ما يحدثُ أن أكتب نصا من عشر صفحات في مدّة وجيزة من الزمن، ثم أطبعُه ورقيا وأبدأ في قراءته وتنقيحه لأكثر من مرّة، وكم من الكوارث أجدُ فيه؛ الجمع بصيغة المفرد مثلا، والمؤنث بصيغة المذكر، ناهيك عن بعض من التعابير التي لا تكون سليمة إلّا في إطار لغوي إيطاليّ محض، ولكن من الممكن جدّا أن تجدَها في جُمَلي وتعابيري المصوغة باللغة العربية، وكثيرا ما أبدأ في الضّحك بصوت عال، لا سيما حينما يدخلُ في الخطّ صوت مكالمة هاتفية، أو صوت زوجي وهو يناديني من الغرفة الأخرى، أو صوت الإشعارات القادمة من صفحتي على الفيسبوك بأن فلانا علّق على نصك المنشور، أو أنه ثمة رسالة لك من "علّان" وهلمّ جرّ من هذه المصائب المعلوماتية الجديدة، التي لا أستثني منها ما فعلتْه الهواتف والحواسيب الذكية بالأدباء وخاصة المُسنّين منهم، فالحروف صغيرة جدّا، والألف المهموزة لا توجد تماماً، والشدّة غائبة، وشيء طبيعي أن تكون في نصوصهم بعض من هذه الهفوات الصغيرة التي تُشَيّب المُنَقِّحَ وهو بصدد تشذيبها وتهذيبها كي تأتي في أحسن حُلّة وصيغة وتعبير. خلاصة القول، ما من مفرّ وأنت في مرحلة التنقيح والتصويب، عليك أن تنعزل عن كل شيء. ولكن هبني أيّها القارئ

انعزلت عن كل شيء، كيف سأصوّبُ ما أخذه الزمان مني وسرقته السنون من لغتي العربيـة، وأنـا لا أتحـدثُها ولا أطبّقهـا مـع أحـد: الحـلّ الوحيـد هـو العـودة إلـى عهـد العصامية، وكما تعلمتُ لوحدي اللغة الإيطالية ولم يساعدني في ذلك أحد، فعليّ أن أستعيدَ لغتي العربية وبمجهودي الشخصيّ. وذاك ما قمتُ به فعلا منذ سنوات عدّة، إذ كثَّفتُ قراءاتي من جديد لكتبِ النّحو وما إليها، وابتعدتُ ما أمكنني ذلك عن تلك الكتب النحوية المُملّة المكتوبة بأيد فقهاء أكلَ على فكرهم الدّهر وشرب، وأصبحتُ أكثر براعة وقوّة من ذي قبل. لكن قبل الوصول إلى هذه المرحلة حدثتْ لي وأنا في طريق صقل لغتي أشياءٌ ومواقفٌ طريفة كثيرة لا يمكنني أن أنساها أبدا. فمثلا أذكُر أنني عند الانتهاء من صياغة ديواني الشعري الثاني، بقيتُ لفترة طويلة من الزمن أفكّرُ في اختيار عنوان يليقُ به ويتناسبُ وخطّ القصائد ونهجها الصوفيّ، إلى أن استقرَّ رأيي على جعل عنوان قصيدة من قصائده العنوانَ الرئيس للديوان كاملا. وما زلتُ أتذكّر كيفَ بقيتُ لفترة ليست باليسيرة محتارة فيما إذا كان عليّ أن أكتُبَ العددَ [١٥] في العنوان على هذا النحو (مقام الخمس عشرة سجدة) أو (مقام الخمسة عشر سجدة)، أو (مقام الخمسة عشرة سجدة)؟ وكانت النتيجة أن اخترتُ الصيغة الأولى، إلا أنني عدتُ من جديد إلى تأتأتي الأولى ووجدتُني أتذكَّرُ صديقا لي مُلمّاً بشؤون اللغة العربية ونحوها وأبجديتها العرفانية، فكتبتُ لهُ سائلةً إيّاه أن يحدد لي يقينا من بين تلك الصيغ الثلاث، الصيغةَ الصائبة، فارتبكَ الرّجلُ، (وكان آنذاك ولم يزل لليوم من المقيمين في المهجر)، وأرسل لي ملفا كاملا عن الأعداد في اللغة العربية، وما إن فتحتُه حتى بدأتُ أضربُ كفّا بكفّ لأنني لمْ أفهمْ منهُ شيئا، ووجدتني ولا أعرفُ كيف ولا لماذا أختار من الصيغ الثلاثة الصيغة الخاطئة كعنوان لديواني، وكانت النتيجة أن صدرت المجموعة الشعرية بخطأ نحوي فادح، أيْ هكذا: (مقام الخمسة عشرة سجدة)، وبدأتْ تهلّ عليّ رسائل الأصدقاء من كل صوبٍ وحدب يؤكدّون لي فعلا وحقيقة وبالحجّة والبرهان الدّامغ ما في العنوان من خطأ، ولم أدرِ كيف حملتُ نسخة من الديوان وطبعتُ قبلة فوقها، وأنا أهتف ضاحكة: شكرا لك أيتها اللغة

الإيطالية، شكرا لكَ أيّها المَهْجَر، شكرا لك يا لغتي العربية المرتبكة، شكرا لكل هذا الجنون الذي كشف لي بأنني كنتُ أعرف الجواب فغالطتُ نفسي ولجأتُ لمن كنتُ أظنه أعرفَ مني فإذا بي أحصل على جواب واحد لا غير: ما على العارف أبداً أن يسأل عارفا مثله قطّ، فما بالك إذا كان مهجريا مثله، تلك كارثة عظمى، لأنها تعني أنّ الغريق إذا تمسّك بغريق مثله فمن الممكن جدّا أن يغرقا معا، إذ لكلّ عارف بحر هو أدرى بموجه وعطشه ومواقف الغرق والنجاة فيه، وإذا اختلط البحران قد تكون النتيجة إمّا محيطا لا ينفد ماء علومه، وإما طوفانا يأتي على الأخضر واليابس، والحمدُ لله أن منّ عليّ بالكرامة الأولى وأنجاني من الطوفان والغرق بعد طول صبر وجَلَد. ذلك أنني منذ ذاك الحين تعلمتُ ألّا أسأل أحدا سوى الكتب، وألّا أثق بأحد سوى بقلبي حينما تختلط الحروف والأوراق، لأنه هو وحده عنده الجواب لكلّ الأسئلة.

لا أعتقدُ أنه مرّ عليّ في التاريخ كاتبٌ يتحدث هكذا عن نفسه ويعرّيها أمام الملأ: فالكلّ اليوم يدّعي الكمال والعرفان، أما أنا، فلا أدّعي شيئا سوى أنني أعترفُ أمام الجميع بأن الوقوع في الخطأ هو سيد العارفين جميعا ومعلّمهم الأكبر، وأنّ كلّ الحقائق الكبرى كانت في الأصل أخطاء تمّ تصويبُها. وحده الخطأ محرابنا الذي نلجأ إليه لنخلو بأنفسنا ونتعلّم كيف نُجدّد طاقتنا وقوتنا، وكيف نستمرّ في المضي قدما بدون خوف أو وجل. ولأنّ الخطأ على عكس ما يشاع عند الكثير من الناس فضيلة من أرقى الفضائل، ولأنّ الإنسانَ كامل ليس لأنه لا يخطأ، ولكن لأنه سيّد الخطّائين. لذا فإن قوتنا تكمُن في السعي نحو فهم طبيعتنا الإنسانية عبر ميكانيزمات الخطأ نفسه، لأنها تريدُ أن تقول لنا: إنّ الإنسان مهما بلغ من درجات التفوق فهُو ضعيف أمام كمال الله المطلق، لأنه هو صاحب العلوم كلها وإن كان هذا الإنسان قد بلغ من العمر عتيّا مصداقا لقوله جلت قدرته: ((وَاللَّـهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّـهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)). فلسنا في هذه الحياة نسابقُ رياح الزّمن والناس لنعرف من هو الأفضلُ أو الأكمل أو الأحسن، فكلّ إنسان عارفٌ، وإن بالشيء القليل الذي يملكُه، وإن كنتُ هنا لا أتحدث عن الخطأ بمفهومه

السلوكيّ، ولكني أتحدث عن الجرح الذي حدث بداخلي فقط لأنني أضفتُ لغة أو لغتين أخريين لقاموسي الأبجديّ. العيبُ ليس في اللغات وإنما في الكأس التي تُصبُّ فيها هذه اللغات الجديدة، إذ هناك مجموعة من الميكانيزمات الشديدة التعقيد والتي يعرفُ عنها الشيء الكثير أصحابُ العلوم المختصة في دراسة الإبداع والتعليم ومشاكله عند الجيل الجديد من أدباء المهجر، على الرغم من أن معظم الدراسات تشهدُ لليوم أنَّ أفضل الأدب والإبداع الفكري هو ذاك الذي يأتي من الضفة الأخرى، ويكفينا فقط أن نتذكر جيل جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وكذا إيليا أبو ماضي، وغيرهم كثيرون، كي نعيَ جيّداً عبقرية أبناء المهجر المبدعين في كل الميادين وليس فقط في مجال الكتابة والحرف.

هل بعد هذا يمكنُ القول إنّ أخطاء الأديب المهجري النحوية مثلا مبررة؟ طبعا لا، ولكن هناك سؤال آخر أريدُ أن أطرحه وإنْ بشكل عكسي: لماذا تضجُّ بالأخطاء اللغوية والنحوية الفادحة روايات ودواوين الأدباء العرب المعاصرين الذين نشأوا وترعرعوا ومازالوا مقيمين في أراضيهم الأمّ، ما مُبررهم في هذا: هل يعانون من جرح فطامي هم الآخرون؟ أمْ أنّ الكارثةَ أكبر بكثير من تلك التي من الممكن جدّاً أن يعانيَ منها أديب مهجَريّ؟

هل بتنا حقا نعيش في زمن بدون انتماء وهوية: ليس لأننا لا نكتب باللغة العربية، ولكن لأننا نكتب بلغة عربية ركيكة لا تماسكَ ولا معنى فيها؟

عموما خذها مني نصيحة أيها القارئ الكريم، لا أحدَ يُصحّحُ خطأ أحد، إلّا من رحم ربّي، وإذا حدثَ وصادفت إنساناً يصحّحُ لكَ أخطاءَكَ الكتابية في نصوصك الشعرية أو القصصية، هذا إذا كنت طبعا من أهل الكتابة والحرف، فاعلمْ أنّه ليس بالبعيد جدا أن يكون النصُّ يعنيهِ، إمّا لأنكَ كتبتَهُ عنهُ، أو لأنّ اسمهُ ورد فيه بشكل أو بآخر. أو من المحتمل جدّاً أن يكونَ خبيث النيّة ويريدُ أن يقهرك ويقول لك بشكل مباشر أو غير مباشر: إنك جاهل ودعيّ لا تعرفُ حتى التمييز بين الفاعل والمفعول به مثلا. غير هذا، ما عليكَ سوى أن تُشمّر عن ساعد الجدّ، وتتعلّم من أخطائك،

وتصقل موهبتك وفنّكَ، وتدرس كلَّ يوم أكثر فأكثر حتى تصلَ إلى مدارج الرقيّ والسّمُو.

الخطأ النحوي كالخطأ في الحياة تماما: ليس ثمّة فرق بينهما، ذاك يعلمك والآخر يعلّمكَ أيضا. الأول يعلّمك كيف تتعامل مع نفسك وتدرّب مهاراتك الفكرية وبالتالي كيف تنمّي قدراتك الشخصية والثقافية، والثاني يعلّمك كيفَ تتعامل مع الآخرين، وكيف تنمو سليما معافى وسط مجتمع من المهووسين بالكمال. معادلة صعبة أليس كذلك؟ لكن تأكد عزيزي القارئ أن أكثر الأدباء الفرنسيين عبقرية كمارسيل بروست مثلا: كانت كتاباته الأولى تضجّ بالأخطاء النحوية، لكن أهل زمانه فقهوا أنّ مواطن العبقرية عنده لم تكن في هفواته اللغوية ولكن في طريقة كتابته، وفي الجديد الذي جاء به فقلب موازين الأدب الفرنسي كافة، وبات الناس يتخاطفون كتاباته وإن كانت طويلة وممتلئة بالأحداث والتفاصيل: لكن طريقة جذبه وشدّه للقرّاء كانت مميزة، صنعتْ منذ ذلك الحين ما يسمّى بالأدب البروستي.

فاتني أن أقول لكَ عزيزي القارئ: إنّ ديواني الذي صدر هنا في إيطاليا باللغة العربية وبعنوان خاطئ، صدرَ في العراق بنسخة ورقية جديدة أنيقة، وقد تداركتُ فيه كلّ ما كان في نصوصهِ من هفوات، ومن يدري فلعلّهُ يصبح بعد هذا أكثر الكتب قراءةً في كافّة أرجاء المعمورة.

صحيح أنّ الأمر فيه كان يتعلّق بمجرّد خطإ نحوي ليس إلّا، لكنني تعلمتُ منه الكثير والكثير، سواء على مستوى جودة قاموسيّ اللغوي العربي الجديد، وطريقة عملي على نصوصي، أو على مستوى مهاراتي في كيفيّة التعامل مع أصدقائي الجدد من عالم الأدب والأدباء، أو على مستوى حياتي الشخصية، فشكرا لله الذي خلق الخطأ غوثا عظيما يعلّمُنا نحن العرفاء أنّ أكثر الناس رقيّا ومكانة عند الخالق، أقدرهم على التعرّي، لأنّ التعرّي تواضع، والتواضع رفعة والرّفعةُ لا يمكنها أن تأتي إلا من باب الاستيقاظ من الغفلة، واحترام الإنسان لنفسِه وقدراته، والاعتراف بعبقرية تلك الروح التي نفخها البارئ بين جوانحه، فجعلتْ منهُ الحمامةَ، والسمكةَ والنّسرَ والغزالة.

(٥)

أنا والنبيّ دانيال

وأخيرا جاء رمضان، شهر البركة والغفران، وهبّت لقدومهِ أنوارُ البهجةِ والسعادةِ في قلبي، شأني شأن كلّ طفل يرى البيتَ وقد تحوّل إلى فردوس من الألوان والروائح الزكية، بين موائد مزخرفة بكل ما لذّ وطاب، وغُرف مُعطّرة بأجود أنواع البخور، ومُضاءة بالشموع الخضراء، ومُزينة بالورود الحمراء، الطريّ منها والمُجفّف، وبالزرابي المبثوثة في كلّ مكان. كلّ هذه الطقوس، كانت تدخلني إلى أجواء رائعة منَ السّحر والجمال، وتأخذُ قلبي الصغير إلى ملكوت ما بعدهُ ملكوت، خاصة بعد تناول وجبة الإفطار، إذْ كنتُ عادة ما أصعد إلى الطّابق العلوي وأختلي فيهِ بنفسي، وأخلدُ إلى صمت دفين، وتأمّل عميق إلى أن يأخذني النوم إلى جنان الأحلام الرضيّة الهنية، وهُوَ السلوك الذي كانَ كثيرا ما يثيرُ قلقَ أمّي المسكينة، التي كانت لا تغفلُ عنّي أبدا، وتراقبني في كلّ شيء، وتجعلُ من كلّ حبّة تتعلق بيِ قُبّة يراها الغادي والبادي، وحينما فاضَ بها الكيلُ، قرّرتْ أن تُخبر والدي بالأمر فاستغلّت وقت الإفطار في ثالثِ يوم من أيام رمضان، وقالت له بعد أن رأته قد روى ظمأه، وسدّ رمقه:

- ما رأيكَ يا عزيزي في أن نأخذ ابنتنا أسماء في هذا الشّهر المُبارك إلى أحدِ الأولياء الصالحين القريبين هنا من مدينتنا، علّها تطمئن وترتاح وتبتعد عن خلواتها الليلية، وتبدأ في الاستمتاع بطفولتها كباقي أطفال العالمين؟

تفاجأ أبي من كلماتها، ثم ابتسم وقال لها:

- أستغرب أمرك يا امرأة، لو كنتِ غير متعلمة، وسيّدة من خيرة سيدات التعليم والتربية في مدارس هذه المدينة، لقلتُ إنّهُ قد أصابتك لوثة من لوثات الجنون. كيف تطلبين مني هذا الأمر، وأنت تعلمين أنني لا أومن لا بالأولياء الصالحين ولا بغيرهم؟

- إنني في حيرة من أمري عزيزي، ألا ترى أنها تكرهُ حتى الذهاب إلى الأفراح والأعراس معي؟ وأنها لو صادف أن أقنعتُها بشكلٍ أو بآخر للذهاب معي للاحتفال بقران صديقة لي أو حفلة عقيقة، أو عيد ميلاد ابن أو ابنة من أبناء صديقاتي، فإنها تقلبُ الحفلة همّا وغمّا ببكائها وصراخها المستمر. أرأيتَ كيف أنها تتحاشى دائما مخالطة الناس، أنا لا أريد لابنتنا أن تكون انطوائية أو انعزالية، هذا لا يليق بها وهي لمْ تتجاوز بعدُ سنواتها التسع، حتى كتبُ علم النفس تقول هذا، وقد حدّد فرويد وكذلك جان بياجه العديد من العلامات التي تدلّ على الطفل الانعزالي، وإني لأراها كلها موجودة في ابنتنا؟

وضع والدي كأسَ عصير الجوز بعد أن شربه كلّه فوق المائدة، ثم بدأ يضحك بصوت عال وعينه على طبق التين المجفّف المغموس في زيت الزيتون، وقال:

- طيّب ومن منهُما قال لك أن تأخذيها إلى أحد أولياء المدينة الصالحين، هل هو بياجه، أم المعتوه الثاني فرويد؟

أنتَ تستهزأ بي؟ أنتَ تعلم أنني محقة في كل ما أقول، وأنّي حقا فكّرتُ أن آخذها إلى بعض أطباء الأطفال، ولكن قبل هذا أحبّ أن آخذها أولا إلى سيدي دانيال.

لم يرفع أبي عينيه إلى أمّي، ولكنه ظلّ ينصتُ إليها وقد صبّ لنفسه كأسا من الشاي وبدأ يدخن سيجارته المحبوبة، ثم قال لها وهو ينفث الدخان في فضاء الغرفة الشاسعة:

- ولماذا سيدكِ دانيال بالذات؟
- لأنه وليّ لهُ بركات وكرامات عديدة ويحبّ الأطفال كثيرا، هكذا كانت تقول لي والدتي، وأنا قد جرّبتُه في أكثر من شيء حينما كُنتُ طفلة وحينما أصبحتُ فيما بعدُ شابّة في مقتبل العمر.

- ولم تزالي بعدُ طفلة يا صغيرتي، وأحلى طفلة بهذا القلب الأبيض الكبير المعطاء العاشق. لكن قولي لي: أنا لا أفهم أولا لماذا هذا الإسم، ألا يبدو لك دانيال اسما أعجميا، إنهم يقولون إنّه لأحد الأنبياء الذين قدموا إلى منطقتنا في العصور السحيقة الغابرة وأنقذها من الجفاف والقحط ثم قضى نحبه فيها، أليس كذلك؟ ثم ماذا تقولين في كون هذا الولي له في الدولة نفسها ضريحان واحد في مدينتنا البحرية والآخر في مدينة طاطا الصحراوية، والأنكى من هذا أن لهُ أكثر من ضريح في مناطق أخرى من العالم العربي، صراحة أنا لا أفهم أيّاً منهُم جميعاً النبي دانيال الحقيقي؟ ثم ماذا عن قبره الطويل، صحيح أنني لم أزره من قبل، ولكني سمعت الناس يحكون عن طوله العجيب.

برقت عينا أمّي، لأن والدي بدأ يشاركها الحديث عن دانيال، ثم قالت وهي تبتسم:

- طبعا أنا أعرف لماذا؟ لأن جسده كان جسد نبي عملاق، كان فارع الطول وكبير القدمين، لذا فإنه من الطبيعي جدا أن يكون قبره طويلا أيضا.
- ألمْ يخطر ببالك أن ابنتنا قد تكون أكثر حكمة مني ومنك، وأن أجواء الثرثرة تتعبها، وأجواء الصخب والاحتفالات تزعجها، ولذا فهي تفضل الابتعاد عن هذا كله وكفى؟ لماذا تصرّين على نظرياتك العجيبة. لن أذهب معكِ إلى أيّ وليّ، إني أرى في هذا الأمر إهانة لعقلي، ولإنسيانيتي، ما الذي سأذهب لأفعله هناك مع المعتوهين الذين يحومون حول قبر طويل، لا يعرفون أصلا حتّى إذا كان في ترابه جسد رجل ميت أم لا؟ أرجوك حبيتي لا تصرّي علي، وإذا كان لا بد من فحصٍ لطفلتنا فإني أفضل أن تأخذيها إلى طبيب الأطفال، ولو أني أرى أنها ليست في حاجة سوى لأن تتركيها وشأنها، وسترين أنها حينما ستكبر ستصبح أكثر الناس حيوية وسيدور العالم كله من حولها. من يدري؟ فإني أرى فيها علامات فنانة، أو أديبة، أو رسامة، وهي كلها صفات يحبّ أهلها الصمت والسكون، حتى يتمكنوا من الإنصات إلى ما بداخلهم من فنّ خلاق.

احتقن وجه أمي من الغيظ والغضب، ثم انفجرت باكية وهي تقول:

- أنت لا تحبّني، وتحاولُ دائما أن تقلل من شأن إحساسي الأمومي، ومن طريقة تفكيري، لا عليكَ، سآخذها لوحدي إلى سيدي دانيال، وسترَى أنها ستتغيّر وستصبح أكثر مرحاً من بقية الأطفال.

أطفأ والدي سيجارته ثم رفع عينيه إلى أمي وقرّبها منهُ وهو يضحك:

- ألم أقل لكِ إنّك ما زلتِ طفلة؟ لماذا البكاء الآن؟ أتريدين أن تأخذيها إلى دانيال، خذيها ولكن أنا لن أذهب معك، كلّمي أخاك في الهاتف، وحدّدي معه يوما من هذا الشهر، وسيارتي ستكون رهن إشارتكما متى أردتُما ذلك. غير هذا فلا أستطيعُ خدمتك بشيء آخر.

كفكفت والدتي دموعها ثم قالت:

- أنا لا أعلم لماذا تستهزأ بالأولياء الصالحين، فالعيبُ ليس في الوليّ، لكن فيمن يسهر على شؤون الولي، فهُم هؤلاء من يشوهون سمعة الأضرحة، ويسرقون أموال الناس ويكذبون ويحتالون عليهم، أنا معك فيما تعتقده، لكن نيّتي فوق نواياهم، وأنا أذهب لبركة الوليّ وكراماته، لا لمن يحيطُ به، ولا لمن يسهر على جدران ضريحه، وما التوفيق والصلاح إلا من عند الله، لا أريدكَ أن تبتعد عن حلاوة الإيمان بطغيان تفكيرك العقلي على الجانب الروحي فيك، ثم ماذا ستقول لي عن زيارة قبر النبي؟ أخشى أن تقول لي إنّ هذا أيضا لا يجوز، وأنّكَ ستقضي بقيّة عمرك دون الذهاب إلى حج بيت الله الحرام؟!

- طبعا لن أذهب إلى حج بيت الله الحرام؟ وهذا أمر آخر لا علاقة له لا بدانيال صاحبِ كرامات الماء، ولا بقبره الطويل الغريب، هذا إذا كانَ حقا يوجد نبيّ هناك تحت ذاك القبر، ولكن حالة البيت الحرام تختلف تماما، فأنا أعلم أن هناك يوجدُ حقا قبرُ حبيبي وسيدي محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وأعرفُ أن قلبي متعلق بقلبه رغما عن بعد المسافات، والله يشهدُ عليّ أنني أناجيه في كل يوم وأصلي عليه في كل لحظة وحين، لكني لن أذهب إلى مكان أعرف أنه سيأتي

يومٌ وتصبح فيه أموال الحجّاج والسقاية هي الأموال نفسها التي ستُفتح بها دور الدعارة والقمار في الدول العربية والغربية، وهي الأموال نفسها التي ستُموّل بها الحروب لقتل دين محمد وأهل بيته وأتباعه في كل مكان. أرجوك عزيزتي لنغلق هذا الموضوع، ودعيني صامتا، هذا أفضل لنا جميعا.

أنصتُّ بعمق إلى كلمات والدي، وأذهلتني العبارات الأخيرة منه، فحاولتُ أن ألطّفَ الجوّ المشحون بينه وبين أمّي، وقلت له وكلّي يقين بأنه لن يرفض لي طلبا لما يكنُّه لي من عميق المحبة والاحترام:

- ألا ترى يا والدي، أن الأمر سيكون أكثر متعة لو ذهبتَ معنا إلى صاحبنا دانيال؟ أليس عندك فضول لرؤية قبره الطويل هذا؟ لن تخسر شيئا، سنذهب معا فقط كي نعاين هذا القبر. ثمّ ألمْ تسمع ما قالته أمّي عن حُبّه للأطفال، لنذهب وسترى كيف أنني سأبادل هذا الولي الصالح نفس الحُبّ، وسألعب كثيرا وسط ساحة الضريح وكذلك قرب قبره الطويل، أرجوك يا والدي، وافق من أجلي، أرجووووك.

انفرجت أسارير أبي، ثم قال وهو ينظر إليّ بعمق، وكأنه فهم ما كنتُ أقصده من وراء هذه الزيارة، فقال:

- على بركة الله سآخدكما معا بعد غد إن شاء الله، وسنُفطر هناك.

جُنّ جنون والدتي من الفرح، ثم قامت وقبّلتْ والدي، وعانقتني بحرارة وحبّ عميقين ثم قالت:

- سأشتري منذ غد الشموع وقوالبَ السُّكّر وأكياس الحليب، كي آخذها بركةَ زيارةٍ إلى حبيبي دانيال.

نظر إليها والدي نظرةَ عشق ثم قال لها:

- يبدو أنّك أنتِ من يودُّ الذهاب إلى دانيال كي تسترجعي ذكريات طفولتك، وليس فقط بسبب ما ترينه في ابنتنا من حب للعزلة والاختلاء بنفسها.

- هذا وذاك أيضاً، سأذهبُ الآن، فلديّ الكثير مما أقوم بهِ استعدادا لهذه الزيارة الميمونة بإذن الله.

قالت والدتي ثم قامت فرحة تركض كطفلة إلى المطبخ، كي تكمل بقية تحضيرات وجبة السحور لليوم التالي.

وذهبنا أخيرا إلى ضريح الولي الصالح دانيال، كان يوجد قريبا من البحر الأطلسي المهول، فوق تلة من الرمال، وحيدا إلا من صوت هدير الأمواج التي تتكسر على الصخور. تركنا السيارة بعيدا، ومشينا فوق الرمال مسافة طويلة قبل الوصول إلى عتبته، وعند دخوله، وجدنا القبر كما تصورته تماما: طويلا غريبا لحدّ الدهشة. جلست بقربه، ورفعتُ بسرعةٍ غطاءه الأخضر، ثم أدخلتُ رأسي تحته وبدأت ألامس بأصابعي الصغيرة ترابه، كي أتأكد إذا ما كان تحت الغطاء فعلا قبر لجسد ميت هناك منذ زمن طويل، لكنني لم أجد شيئا، فالإسمنت غلب على التراب والرّمل، ولم يعُدْ من الممكن أبدا معرفة ما إذا كان ثمة رفات بالأسفل أم لا. وبقيتُ هكذا تحت الغطاء الأخضر أفكّر وأفكّر، إلى أن داهمني نوم عميق، فنمتُ، ولم توقظني والدتي إلى أن حان وقت الإفطار. أما والدي فبعد أنْ عاين الضريح والقبر، تركني ووالدتي داخل الضريح ثم ذهب في جولة طويلة يستكشف من خلالها المنطقة التي يوجد بها هذا الضريح.

كانت لحظة الإفطار جميلة رفقة والديّ الحبيبين في هذا المكان الرائع، وبينما أنا مأخوذة بهذه الأجواء الرحمانية الرمضانية المباركة، إذا بي أرى سيّدة شابة تتحرك وسط باحة الضريح وتتجه نحو الباب الرئيس الخارجي، كنتُ أراقب حركاتها من بعيد بعينيّ وقد كان في الضفة الأخرى ينتظرها زوجها استعدادا للوصول إلى سيارتهما من أجل مغادرة المنطقة. لم تمض لحظات قليلة حتى قفزتُ من الكرسي، وذهبتُ أركض وراء السيدة وبين يديّ حقيبة جلدية حمراء كانت قد نسيتَها في الباحة:

- سيدتي، أرجوكِ توقّفي، لقد نسيتِ هذه الحقيبة في ساحة الضريح

بدأتْ تُسرع في المشي أكثر وأكثر وكأنها تفرّ من شيء ما، إلى أن وصلتْ حيث كان يقفُ زوجها، وبدآ يركضان معا، وأنا أركض خلفهما وأصرخ:

- توقفا، توقفا، لقد نسيتمَا هذه الحقيبة.

رآني والدي، ثم بدأ يركض هو الآخر، لكن ما من جدوى، وصلا معا إلى السيارة، ودخلاها على عجل ثم انطلقا، واستمرّيت وأبي في الركض، وأنا ألوّح بيدي، إلى أن رآنا الزوج فوق زئبق مرآة السيارة الداخلية، فوقفَ، وفتحت السيّدة الباب.

- لقد نسيتمَا هذه الحقيبة
- لا، لمْ أنسَ أيّ شيء، وهذه الحقيبة ليست لي

نظر زوجها إليّ مُندهشا ثم قال:

- أيّة طفلة أنتِ؟ لا شكّ أنّ الله هو من بعثكِ لي كي ترحميني من هلوسات زوجتي!

قال ثم واصل وهو ينظرُ إلى زوجته ويخاطبها:

- ألم أقل لكِ يا امرأة، إنني لا أومن بالأولياء والأضرحة وما إليها، ارحميني إذن من أفكارك المريضة هذه، أرأيتِ الآن؟ حتى صاحبكِ دانيال يُريدني أن أستمرّ في شرب الويسكي والبيرا! صدّقيني، حينما ستحينُ لحظةُ العفو والشفاء فإن الله هو الذي سيقدّرها لي وليس دانيال، خذي الحقيبة من الطفلة إذن بكل ما فيها من زجاجات الخمر، واعتذري لها عمّا سببناه لها ولوالدها من تعب وإرهاق، وارتاحي، فالله وحده هو من بيده مقاليدُ الأمور، ولا أحد غيره.

صعق والدي من كلمات الرجل، وأخذ الحقيبة من بين يديّ وكان قد كُتب فوقها الإسم التجاري لشركة كوكا كولا، ثم فتحها ويا لهول ما وجدَ: قنينات من البيرا والويسكي. أغلقها بسرعة ثم نظر إلى الرجل نظرة استفسار طويلة إلى أن نطق الرجل وروى لنا قصته كاملة:

- يا سيدي الفاضل، أنا إنسان ابتلاه الله بشرب الخمر، ولا يمرّ يوم إلا وأشرب فيه أكثر من نصف قنينة بينَ ويسكي وبيرا، لكنّي والله إنسان طيب، لا أؤذي أحدا،

ولا أرفضُ لزوجتي طلبا، ولا أقوم بأيّ عمل قبيح، سوى هذه البليّة، فزوجتي لا تقبلها فيّ، وتظل تؤنّبني صباح مساء إلى أن أصبحت حياتي معها جحيما، وقد خيّرتني لأكثر من مرة بينها وبين الخمرة، لكنّي لا أستطيع لها شيئا، ما باليد حيلة، فأنا أدمنتها ولا يمكنني الإقلاع عنْها هكذا بين ليلة وضحاها، وقبل يومين قالت لها إحدى صديقاتها المهووسات مثلها، إنّ الحلّ الناجع للقضاء على آفة الإدمان هذه هُو أن تذهب إلى وليّ الله دانيال ومعها حقيبة تضع فيها بعضا من زجاجات الخمر فارغة من تلك التي أشربُها وتبقى مرمية في قبو البيت، وتتركَها هناك في الضريح بعد أن تُخلِصَ النيّة وتطلبَ حاجتها من الوليّ، وترجوه بحرارة بأن يساعدني على تركِ آفة شرب الخمرة، وهذا الذي قمنا به فعلا، إلى أن أتت ابنتكَ يا سيدي وأعادتْ لنا الحقيبة، وظهر معها الحقّ وزهق الباطل، فحتّى سيدي دانيال يـُريدُنِي أن أبقى هكذا صاحبَ مزاج و"كيفٍ" عالٍ، طالما أنني لا أؤذي أحدا.

صمتَ والدي صمتا عميقا، ثم نظر إلى المرأة وأعاد إليها حقيبتها في صمت أيضا. وغادرت السيارةُ المكانَ، وبقي والدي متسمّرا لما يزيدُ عن النصف ساعة ويدُه بيدِي، وقبل أن يتحرّك لنعود حيث تركنا والدتي، قال لي:

- أأنتِ من قال لدانيال أن يقوم بهذا الأمر، أم العكس؟ قولي، لقد رأيتكِ وأنت تتحدثين إليه ورأسك تحت الغطاء الأخضر؟!

لمْ أجبْهُ، فالقبرُ لم يكن فيه النبي دانيال، وإنما رجل آخر، وعدنا إلى والدتي التي قررتْ مُنذ ذلك اليوم ألا تطأ قدمُها عتبةَ ضريح أو وليّ وإن قالوا لها إنّه يُفرّق المالَ والكنوز بين الناس، وكفّت عنِ التذمّر من حبّي للاختلاء بنفسي وعزوفي عن سهرات الأفراح والأعراس.

(٦)

مشهدياتٌ رمضانيّة

المشهدية الأولى:

السنة: ١٩٨٢، الشهر: رمضان، اليوم: الاثنين، الساعة: الرّابعة بعد الزوال، المكان: المطبخ حيثُ كانتْ والدتي مُنهمكةً في إعداد أطباق الإفطار، وكنتُ أدورُ حولَها كنحلةٍ نشيطة أمدُّها بكلّ ما تحتاجُه من ملاعق وكؤوس وتوابل وفواكه وما إلى ذلكَ، وأتحدّثُ معها في كلّ شيء يهمُّ الطّبخ وقواعد ترتيبِ المائدةِ، وفجأةً تناهى إلى سمعي منْ خارج البيتِ صوتٌ صدّاح يُعلنُ عن برنامج سهرة الليلة في حيّنا المجيد. توقّفتُ للحظة أُنصتُ إلى ما يقولُ، ولمعتْ عندئذ في رأسي فكرةٌ ناقشتُها فوراً مع والدتي: «أسمعتِ يا أمّي بالسّيرك الذي أقاموا خيامَهُ حديثا في الحيّ؟ لماذا لا تأخذينِي إليه ولو لمرّة واحدةٍ؟ أنتِ تعلمينَ أنه لم يسبق لي أن ذهبتُ بعدُ إلى السيرك في حياتي. أريدُ أن أراهُ وإنْ من بابِ الفضول، أريدُ أنْ ألعبَ هناك. ما رأيكِ أن تأخذيني إليه هذا المساء بعدَ الإفطار؟ لقد سمعتُ أنّ الألعابَ والسّهرات تبدأ مباشرةً بعد الإفطار، أرجوك أمّي»، «ليس الآن أسماء، دعيني أوّلاً أناقشِ الأمرَ معَ والدكِ وإذا وافقَ ذهبْنَا معهُ جميعا فالسيرك على بعد خطواتٍ من الحيّ». وفعلاً وافق والدي على طلبي ووعدَنا بأنه سيأخذنا جميعاً إليهِ في اليوم التالي. حينما وصلنا مساءَ الثلاثاء إلى المكانِ كانت البهجةُ باديةً على الجميع، وكانَ قلبي يرقصُ فرحاً، وطلبتُ منْ والدي أنْ يدخلَ معي إلى أيّ مكانٍ أختارهُ في هذا السيرك العجيب، فذهبنا أوّلا عندَ صاحبِ الدّرّاجة الناريّة الكبيرة التي تدورُ على الجدار الخشبيّ العظيم، ثمّ إلى خيمة عجلةِ الحظّ، وبعدَها إلى الأرجوحاتِ الخشبيّة الهودجيّة الشّكل، وعرجنا بعد ذلك على المرأة/العنكبوتِ، وحينما غادرنَاها تناهى إلى سمعي صوتُ حفلٍ شعبيّ راقص فدخلنَا إلى المكانِ إلا أنّني شعرتُ هناكَ بألمٍ غريبٍ في قلبي الصغير. وقفتُ وبدأتُ أنظرُ إلى وجوهِ الجالسين وإلى الرّاقصاتِ أمامهُم فوق الخشبة وهُنّ يهزُزْنَ أردافَهُنّ ذاتَ اليمين وذات الشمال، كنتُ أتأمّلُ كلّ تفاصيل المكان بشكل دقيق، وكنتُ كلّما

غصتُ بعينيّ في أجسادِ الراقصات وعيونِ الجالسين ارتفعَ نبضُ قلبي وازدادتْ حدّةُ الوجيبِ فيه، كنتُ كمَنْ دخلَ غرفةً منْ غُرف الجحيم، وشعرتُ بنار المكان ترتكزُ في وسط جبهتِي، واتّسَعتْ رؤيتي وضاقتْ عبارتي، فرأيتُ ما لا يراهُ أحدٌ هناكَ، وشَعَرَ بِي والدي فخرجَ مُسرعاً منَ المكانِ وقد بلغَ منهُ الاضطرابُ مداهُ. عُدنَا إلى البيتِ وكأنّ على رأسي الطّير. لمْ أنطقْ بكلمة واحدة لمدّة أسبوع ووالدتي تسألنُي عنِ السبب ولا أجيبُ. لا شيء كنتُ أقوم به في تلك الفترة سوى أنْ أذهبَ كلّ مساءٍ إلى غرفتي وأغلقَها عليّ بإحكامٍ لأسالَ خالقي: «لماذا ترضى بكلّ هذا؟ أعني لماذا تتهيّجُ غرائزُ الناسِ في رمضان ويزدادُ جنونُهم؟ أليسَ هو شهر الغفران؟ أيّ غفرانٍ وأيّةُ عبادةٍ هذه؟ ثمّ قُل لي ألا تُصفّدُ الشياطينُ في هذا الشهر الفضيل، فلماذا في ذاك السيركِ رأيتهُم جميعا يمرحونَ ويسرحونَ بكُلّ ما أوتوا مِنْ قوّةٍ وسلطانٍ؟ لماذا المُدنّسُ يمشي والمقدّسَ جنباً إلى جنبٍ، لماذا ضريح الوليّ وبيتُ الدّعارة؟ لماذا النبيّ والفاجرُ، لماذا الملاكُ والشّيطانُ؟ لماذا الخيرُ والشّرُّ؟ لماذا أنتَ ونحنُ يا إلهي؟ ما جدوى كلّ هذه المشهدياتِ المتناقضة في سيرك هذهِ الحياة العجيبة الغريبة؟!»

المشهدية الثانية:

السنة: ١٩٨٧، الشهر: رمضان، اليوم: الخميس، الساعة: العاشرة والنّصف صباحا، المكانُ: زقاق قريب منَ المدرسةِ الثانوية التي كنتُ أدرس بها آنذاك في المغرب. كلّ شيءٍ كانَ روتينيا في هذا اليوم؛ تغيّبَ أستاذ الفلسفة عن الدّرس فخرجتُ على غير العادة باكراً. لا أحدَ في طريق عودتي إلى البيت، يبدو أنّ معظم الناس مازالوا نياما، وأولئك الذين خرجوا قبلي من بيوتهم مازالوا في العملِ. كنتُ أمشي الهوينى، بحذاء رياضي أبيض وبنطال جينز أخضر فاتح، وقميص قطني طويل مِشمشيّ اللون، وبشعر ممشوط إلى الأعلى وعلى كتفِي علّقْتُ حقيبةً مدرسية سوداء خفيفة، لا شيئ فيها سوى بضعةِ كُتيّبات عن تاريخ المغربِ وعن فلسفة السّعادة، ودفترٍ لتدوينِ الدروسِ. كعادتي كنتُ أنظر في كلّ شيء وفي لا شيء، أتأمّلُ البيوتَ من حولي؛ ثمّة بعضٌ من الفيلات الفاخرة، وبعضٌ من المنازل العادية، وورودٌ

وبضعةُ أشجار تُزَيّنُ الرصيفَ. كان كل شيء يبدو كأنهُ لوحةٌ فنّيّةٌ، وأنا وحدي أمشِي وسَطَ ألوانِهَا، إلى أن حدثَ شيءٌ غيّرَ كلَّ هُدوء المَشْهَدِ وألوانه البديعة: صراخٌ مفاجئ؛ امرأةٌ أربعينيّة العُمْرِ ترتدِي جلباباً مغربيّا أزرق خفيفاً، يظهرُ عليها البؤسُ والشقاء. كانتْ نحيلةً جدّاً، شعرُها أسود منفوش، عينَاها غائرتان، ووجهُها حفره الزمانُ حفراً بمِعْوَلِ الألم والقَهْرِ. كانت هذه المرأة تُمسكُ بين يديْها رأسَ امرأة أخرى أكثر شبابا وحيويّة وجمالا: جسمٌ معافى ينبضُ بالحياة، عينان مُشرقتان، وجهٌ نضر ومتورّد، وشعر أشقر طويل ناعم وجذّاب. توقفتُ من هول المفاجأة وارتفاع الصّراخ وقلتُ في خاطري: [اللهم لطفكَ يارب، لماذا الصراخ في هذا الصباح؟] وبما أنّهُ لمْ يكُنْ أحدٌ في الطريق غيرنا نحن الثلاثة، اقتربتُ منهما علّي أفهم ما سببُ هذه المشاذاة الكلامية والشَّعْرِيّة بينهُما، ويا لصدمة الموقف! كانت المرأةُ ذات الجلباب الأزرق تصرخُ بعلو صوتها وتضربُ الفتاة بيديْها وتركلُها بقدميْها وهي تقول: «منْ ذاكَ الشابُّ الذي كنتِ تقفِين معهُ؟ سأذبحُكِ وأشربُ منْ دمكِ إذا لم تخبريني من هُو؟ ألا يكفيكِ ما أنا فيه من ذلّ وقهرٍ؟ ألَمْ تتّعِظِي بعدُ؟ ألا تفهمينَ أنّ الرجالَ ذئابٌ بشريّة لا يبحثونَ إلا عن جسدِ أنثى حمقاء مثلكِ يأكلونَ منهُ ما يشاؤون وما إن يقضونَ وطرهُم فإنهم يرمونَها كالكلبةِ الجرباء، ولا أحد بعد ذلك سيجرؤ على الاقتراب منها؟ لماذا تفعلين بي هذا؟ أنا أبيعُ جسدي منْ أجلكِ يا أختي الصغيرة ومن أجل أبنائي اليتامى، هذا الجسد الذي احترق وذاب من الهمّ والغمّ، وأمشي في طريقِ الضياع لأنني أخْبِرُهُ جيّداً، أخْبِرُ آلامه ودموعَه وشَوْكَهُ وقطرانَهُ، أمّا أنتِ فعليكِ أنْ تدرسي في أحسنِ المدارس، وأن تكبري أكثرَ فأكثر لتُحرّرِي نفسكِ من هذا الوحل. لكن ما عساي أفعلُ وأنا أراكِ الآن تبحثينَ عن "الحُبّ" مع كلبٍ فاسق؟ سأذبحكِ يا فاجرة. قولي، ماالذي ينقصكِ؟ ألا ترين كيف أنني ألبّي كلَّ طلباتكِ واحتياجاتك؟ هيّا انطقي...» كانتِ المرأة هائجةً وتبدو كالمجنونة منْ شدّة الغضب، وفي حُمُوَّةِ الصّراخ سقطتْ فجأةً وهي تمسكُ قلبَها بيدها وتبكي بحرقة، هببتُ لمساعدتها، وكانت الفتاة تبكي هي الأخرى وتقولُ: «سامحيني يا أختي، إنّني فتاة صالحة والله، وذاك الشاب لا أعرفُه لقد

كان فقط يسألني عن المكان الذي يتواجدُ فيه، يبدو أنه كان غريبا ويبحث عن عنوان صحيح... لمْ أقصد أبدا أنْ أخيّبَ آمالك، لا شيءَ ممّا تُفكّرين فيهِ قدْ حدثَ، ثم أنني لا أعرفُ أحدا، إنني أمامَ ناظريك صباح مساء فهل رأيتِ منّي ما يزعجكِ؟ لماذا كل هذه القسوة عليّ؟». توقفتِ الفتاة عن الكلام والبكاء، ولمْ تنتبه إلى أنّ أختَها كانتْ تصارعُ في تلك اللحظة أعراض النّوبة القلبية. التفتُّ إليها وقلتُ لهَا: «لا ينفعُ الآن هذا الحديث، هيّا قومي واركضي فإنّه على الطرف الآخر من الزقاق توجدُ عيادة لطبيب مختصّ في الجهاز الهضمي، اذهبي واطلبي المساعدة، أختكِ ستموتُ إذا لمْ يأتِ أحدٌ لنجدَتهَا الآن، أطلبُ من الله عزّ وعلا فقط ألّا تجدي العيادة مغلقة الآن في هذا اليوم الرمضاني». وما هي إلا دقائق معدودة حتى عادتْ ومعها الطبيبُ والممرّضون، أخذوا المرأةَ إلى العيادة وقاموا بالإسعافات الأولية في انتظار أنْ يأتي الطبيب المختصّ. تركتُهُما معا هناك، وعدتُ إلى البيت وقد شختُ ألفَ سنةٍ من عمري. دخلتُ إلى غرفتي واستلقيتُ على السرير وبدأتُ في البكاء المرير وأنا أخاطبُ ربّ العزّة والجلال: «لماذا تسمحُ بحدوث مثل هذه الأشياء؟ ما ذنبُ تلك المرأة؟ أليستْ أجلَّ منْ كلّ قديسات الأرض؟ أيّ قلبٍ وهبتَها كي يتحمّلَ كلّ هذا العناء، وأيُّ جسدٍ منحتها كي تبيعهُ فوق أرصفة الوجعِ؟ وأيّةُ روحٍ أعطيتَها كيْ تصونَ بهَا عرْضَ أخْتِهَا وأبنائها رغما عن الذلّ والألمِ وسكّين القيل والقال التي يغرسُها الناسُ في ظهرها صباح مساء. آآآه إلهي إنّ قلبِي يؤلمني، كمْ كان قاسياً مشهدُ هذا اليوم على روحي؟ ليتكَ تشرحُ لي لماذا كلّ هذا؟ لماذا المرأة، ولماذا الشابّة؟ وما مصيرهُما بعد الذي حدثَ؟ لماذا لا ترفعُ عنهما يدَ الابتلاء وتَقْلِبَ وجعهُمَا إلى صلاح وفلاح؟ أنتَ تستطيعُ ذلكَ، فافعل يا إلهي ما أطلبُه منكَ».

المشهدية الثالثة:

السنة: ٢٠٠٢، الشهر: رمضان، اليوم: الجمعة، الساعة: الثالثة صباحا، المكان: إيطاليا في حافلةِ المطار الخاصّة. كنتُ أجلسُ مباشرةً خلف السّائقِ، أسندُ رأسي على زجاج النافذة الجانبية وأنظرُ بعينين غائصتيْن في الشوارع الخاوية ولساني

رطبٌ في صمتٍ بالهيللة والحوقلة والسبحلة. المدينةُ نائمة، والحافلةُ تمشي في جوفِها وتقفُ منْ حينٍ لآخرَ عندَ إشاراتِ المرور الحمراء، وكلّ شيءٍ كان يبدُو على قدرٍ عالٍ من القُدسيّة وسطَ هذا الفيض الهائلِ من أنوار المصابيح التي كانت تزيدُها جمالاً، لكن شيئا ما حدثَ، جعل النورَ يختفِي، والجمالَ يندثرُ، فدوامُ الحال منَ المحالِ؛ ذاك الشّيءُ كانَ عندَ إشارةِ مُرورٍ معيّنة بذاتها، والمكانُ في وقفة الحافلة هذه لمْ يكنْ نائماً ولا فارغاً ولا مهجوراً، كانَ عبارةً عن مُفترقِ طُرقٍ يُعلنُ بدايةَ الأوتوستراد. وكانَ ممتلئاً باللّحْمِ، لحمٍ بشريّ مُكوَّمٍ فوقَ الرّصيفِ: رجال ونساء، نساء عاريات، يبعنَ أجسادَهُنّ للعابرين؛ عيونٌ كحيلة، باروكات شقراء وسوداء وحمراء وزرقاء، أحذيةٌ بكعب عالٍ جدّا، أرداف، أثداء، سيقان طويلة، أظافر حمراء، ابتسامات، التفاتات، إشاراتٌ وسجائر مشتعلة. وقلبي في الحافلة بدأ يعتصرُ من شدّة الألم، شيء ما في جبهتي اشتعلَ، وبدأتِ النيرانُ تسْتَعِرُ واتّسعتِ الرؤيا لما يزيدُ عن الثانية، ثُمّ رُفعَ كلّ شيءٍ. اشتعلتِ الإشارةُ الخضراء وتحرّكتِ الحافلة منْ جديدٍ. وصلتُ إلى المطار واستقلّيتُ طائرةَ الفجر المُتّجهَةِ إلى روما. هذه المرّة لمْ أعُدْ طفلةً يا إلهي، لنْ أذهبَ إلى غرفتي الصّغيرة وأغلقَ على نفسي وأنخرطَ في البكاءِ الحارقِ الطّويل، لنْ أسألكَ لماذا تسمحُ بوقوع مثل هذه الأشياء؟ لن أقولَ لكَ لماذا لا ترأفُ بأحوالِ النّاس، ولنْ أقولَ لكَ لماذا كُلّ هذا الجحيمِ المُستَعرِ فوقَ الأرضِ؟ لأنني بكلِّ بساطَةٍ رأيتكَ. فأنتَ كنتَ تلك المرأةَ ذاتَ الجلبابِ الأزرق في طفولتي البعيدة، وأنتَ كنتَ تلكَ الراقصات اللائي كُنّ يهززنَ أردافَهُنّ وسطَ المخمورينَ في السّيرك، وأنتَ كنتَ كلّ ذاكَ اللّحْمِ المرميّ بالقربِ من الإشارة الحمراء، وأنتَ هذا القلبُ الذي يتألمُ ويبكي بشدّةٍ بداخلي، وأنتَ هذهِ العينُ التي تسكنُ جبهتي، بلْ أنتَ الآن أنَا وقدْ توقّفْتُ عنِ السؤال حتّى لا أفقدَ عُذريّتِي وسطَ زخمِ نيران الأرض، وأترُكُكَ تتصرّفُ في مُلْكِكَ ومَلَكُوتِكَ وتتجلّى بهِ وفيهِ كمَا تشاءُ وتريدُ، وفي كلّ الحالات والمشاهدِ والصُّورِ.

(٧)

حوارُ الحضارات على طريقة أمّي

كنتُ أبلغُ من العُمر سبعَ سنوات، وكان الطقسُ حارّاً، واليومُ قائظاً من أيام شهر آب المجيد. وكانت الساعةُ تشير إلى الرّابعة زوالا، وكان كّل من في البيتِ نائما إلّاي، ذلك أنني كنتُ عند عتبة المنزل منهمكة في تجديد ماء الخابية التي كانت قدْ وضعتْها والدتي من أجل عابري السبيل العطاشى. وكما العادة كنتُ أحرص أيضا على وضعِ بعضٍ من قطَعِ الثّلج في الجرّة الكبيرة ليظلّ الماءُ بارداً ومُنعشاً: تلك كانت مهّمتي في كلّ يوم، وأذكر أنني كنتُ أقوم بها بقلب مبتهج ونفس رضيّة.

أذكرُ أيضا أنني وبينما كنتُ منشغلة بالماء والخابية، إذا بها تقفُ أمامي، سيّدةٌ في غاية الجمال: شقراء طويلة القامة بسروال وقميص أسودين، وحذاء أبيض وبين ذراعيها طفلة صغيرة كأنها دُمية نائمة نوما ملائكيا بديعا. رفعتُ إليها عينيّ، وإذا بها ممتقعةَ الوجه بعينينِ قد تعكّر لونهما الأزرق بمسحة من الخوف والارتباك دفَعَاني إلى أن أضعَ كوزَ الفخّار فوق غطاء الخابية، وأدفع بالسّيدة بسرعة هائلة إلى بيتنا وأُغلقَ الباب بقوة مع الحرص على وضع المزلاج الحديدي من الدّاخل بإحكام شديد. لا أعرفُ كيفَ ولا لماذا قمتُ بذلك على الرّغم من صغَر سنّي، لكني أعرفُ جيدا أنني كنتُ أريدُ أن أحمي المرأة الشابة من خطر ما كانَ يحدقُ بها في تلك اللحظات، وبالفعل كان إحساسي في محله، فالمرأة حينما رأتْ ما قمتُ به قالت لي بلسان فرنسي إنها هاربة من زوجها الذي كان قدْ أشبعها ضرباً قبل الوصول أمام بيتنا، وإنه الآن يترصّدُ خطواتها لأنه يريدُ أن يخطفَ منها رضيعتها.

لقد كانت السيدة فرنسية، ومتزوجة برجل إيرلندي من هواة السفر على متن الدراجات النارية السّود الضّخمة ، وكانا قد وصلا إلى شمال المغرب منذ قرابة شهر وقررا معا رفقة أصدقاء رحلتهم السياحية أن يزوروا مدن المغرب كافة ويجوبوها بدراجاتهم تلك. كان زوجها سيء الطباع ومدمنا للكحول، ذاك ما فهمته منها وهي تحاول أن تروي لي قصتها بلسان يعقده الخوف، وعينين تربكهما الدموع. أصابني

الذعر، ولا أعرفُ كيف بتّ أشعر بمخيلتي الطفولية أنني أعيش أحداث فيلم من أفلام الأكشن الفرنسية، وقلتُ في نفسي لا بد من إيقاظ والدتي وإخبارها بكل شيء، فالأمرُ خطير ولا يستحقُّ المزيد من التأخير.

صعدتُ إلى الطابق العلويّ، وهناك حاولتُ أن أوقظها بهدوء، لأروي لها بصوت منخفض حكاية السيدة، وقبل أن أكمل كلماتي، قفزت أمّي من سريرها ونزلتْ بسرعة الضوء عند السيدة. احتضنتْها ثم قالتْ: «اعذرينا سيدتي، فابنتي صغيرة ولمْ تقدّر خطورة الموقف جيدا. كان من الأجدر بها أن توقظَني فورا ولا تنتظرَ كل هذا الوقت. عموما حصل خير: أنتِ الآن في بيتك، ولن يجرؤ أحد على أن يلمس منك شعرة واحدة وإن كان زوجك. اطمئني فلكِ بيننا الأمنُ والأمان، والسّلمُ والسّلامُ». قالتْ كلماتها تلك وذهبتْ إلى المطبخ وأحضرتْ صينية فيها بعضٌ من المشروبات والحلويات وكوزا كبيرا من الحليب. وضعت الكلّ فوق المائدة وصبّتْ فجأةً كأس ماء صغير (كانت تخفيه وراءَ ظهرها) على وجه المرأة الشابة، وقالت لها ضاحكة: «فقط قفزتكِ هذه من مكانك ستُذْهِبُ عنكِ خوفَك السابق من زوجك». ضحكت المرأة أيضا، وقالت لها بكلمات الشكر والامتنان: «أنت سيدة طيبة جدا، وأعتذر عما سبّبتُه لك ولعائلتك الصغيرة من إحراج. لم أكن أقصد ذلك». «تقصدين أو لا تقصدين، أنت هنا ضيفة معززة مكرمة، وانسي زوجك الآن، فهو ما إن سيفيق من تأثير الخمرة على رأسه، سوف يندم على فعلته ويعود ليطلب منك المغفرة والسماح». «إنه لا يفيق يا سيدتي، إنه مدمن للكحول». «إذن لا يسعني سوى الدعاء له باللطف والهداية الإلهيين، وأن يرأف الرحمن بك وبطفلتك. واعذريني الآن سأغيب عنك بعض الشيء لإعداد عشاء يليق بمقامك، وإذا أحببتِ يمكنكِ أيضا أن تأتي معي إلى المطبخ».

ذهبت آن ماري كلير، – وكان هذا اسمها – مع أمّي إلى المطبخ، وبقيتْ معها هناك تنظر إليها بعين الفضول تارة، وعين الاحترام والمحبة تارة أخرى، ولا أدري كيف شعرتُ لوهلة أن السيدة نسيتْ كلّ شيء: نسيَتْ خوفَها، ومأساتها، وبكاءَها وبدأتْ تتحدثُ مع والدتي عن المغرب وجماله، وعراقة عاداته وطيبة سكانه وكرمهم

الباذخ، وبينما هما كذلك، إذا بي أسمع صوت مفاتيح والدي وهو يحاول عبثا فتح الباب لأنني كنت قد أغلقته بالمزلاج الحديدي من الدّاخل، وحتى لا تتكرر محاولاته ويفقد صبره، ذهبت بسرعة لأسعفه ممّا هو فيه، وأحظى منه بقُبْلة رضا الوالد، وحضن دافء كعادته دائما حينما أذهب لاستقباله. وفعلا ذاك ما كان، إلا أنني وأنا بصددِ مُساعدته على خلع حذائه، ارتأيتُ أنه من الأفضل أن أروي له حكاية السيدة الفرنسية وابنتها الرضيعة التي كانت غارقة في نومها الهنيّ بالغرفة الأخرى من الطابق السفلي. فابتسم وقال: «ألمْ أقُلْ لكِ إنك صاحبة الجرّة الخضراء. ها أنت بدأتِ تجلبين إلى البيت حتى أهل عيسى، لنتبادل وإياهم طقوس الخير والمحبة وأنت بعد صغيرة يا ابنتي الحبيبة. اطمئنّي يا صغيرتي، سوف نقوم بواجب الضيافة، والأهمّ في هذا وذاك، سوف أسعى جاهدا حتّى تعود إلى بلدها آمنة سالمة من كل خوف أو ظلم أو ضرر. دعيها الآن مع والدتِك، وعند العشاء إن شاء الله سوف، أتناقش وإياها سبل الوصول إلى حلّ أمثل لمشكلتها».

واجتمعنا أخيرا حول مائدة العشاء، ووعد والدي السيدة آن ماري كلير بعد أن استمع إلى تفاصيل قصتها كاملة بأنه سيرافقها بعد غد إلى السفارة الفرنسية، لتنظر في مشكلتها وتساعدها على السفر وابنتها بدون أدنى مشاكل مع زوجها، خاصة أن هذا الأخير كان يعرف أنها ببيتنا، لأنه كان يراقب تحركاتها من بعيد على دراجته النارية. وذاك ما كان فعلا، فلقد عادت السيدة إلى بلدها بعد أن قضت معنا أسبوعا كاملا، شعَرتْ فيه كأنها واحدة منّا، وأحبّتنا وأحببناها، وأحببنا لُطفها وخُلقها الرفيع وثقافتها العالية، فلقد كانت من أسرة طيبة الأعراق في فرنسا، لكن يحدثُ في كثير من الأحيان أن يرتكبَ الإنسان بعض الأخطاء التي يتعلمّ منها الشيء الكثير، كخطأ سوء اختيار شريك الحياة مثلا، الذي هو من الأخطاء الشائعة بين الناس، ويتكررُ في الكثير من التجارب الإنسانية.

عادت آن ماري كلير وكتبتْ لنا بعد ذلكَ العديد من الرسائل تشكرُنا على حسن صنيعنا معها، وأرسلتْ لي أيضاً العديدَ من الهدايا ولعب الأطفال. وكبرتُ

ومرّتِ السنون على هذه التجربة اللطيفة في حياتي، وذهبتُ للدراسة في الضفة الأخرى، وهناك احتضنَني مرة أخرى سيدنا عيسى وأهله الكرام بمحبة عميقة ونادرة، وبدأتْ تطفو على الساحة العديد من القضايا على ضوء مستجدات الحياة العالمية، وظهرَ في النقاشات الإعلامية والسياسية والأكاديمية شيء اسمه "حوار الحضارات"، وآخر اسمه "المثاقفة"، وثالث اسمه "حوار الأديان"، ورابع اسمه "صراع الحضارات"، وبدأ الطلبة يستمدون مواضيع أطاريحهم الجامعية من وحي هذه المواضيع، لكني لا أعتقدُ أنّ أحدا منهم انتبه لليوم، أنّ كل هذه القضايا هي أوهام مُفتعلة. كيف ذلك؟ مجرّدُ وقفةِ تأمّل في سلوكيات أمّهاتنا وجدّاتنا الطيّبات، وآبائنا الأفاضل في تعاملهم مع الأجنبي والغريب وعابر السبيل كيفما كان نوعه ستؤكّدُ لنا جميعا ما ذهبتُ إليه من نفي لما يسمّى مثلا بـ"صراع الحضارات"، أو "المثاقفة" أو "حوار الأديان". ذلك أن الذي يعي تماما المعنى الإيديولوجي والدياليكتيكي لمصطلحي "الصراع" و"الحوار" أو لكلمتي "حضارة" و"دين"، فإنه لن يقول أبدا ما يقوله اليوم الآخرون على سبيل الموضة والتقليعات الجديدة. فروح كلّ الأديان السماوية الحقّة واحدة ولا يمكنها أن تتصارع أبدا، وواحدة ومنسجمة ومتكاملة هي المبادئ التي تنبع منها كل حضارة ما أو تمدن ولا يمكنها هي الأخرى أن تتطاحن أو تتحارب فيما بينها. ذلك أنّ الصراع الحقّ لا يأخذ شكل الحرب أو يتجلى عبر الشرّ، وإنما عبر المحبة التي قد تتحول إلى مخاض ثم ولادة بنّاءة لا هدّامة، فأنا مثلا حينما احتضنتُ السيدة آن ماري كلير وأدخلتها إلى بيتنا في طفولتي البعيدة، لم أسألها عن دينها ومعتقدها، ولا حتّى عن لغتها! ولم أتعامل معها من مبدأ اختلاف لون بشرتها أو شعرها عن لون بشرتي أو شَعْري، بل تعاملتُ معها بفطرتي الإنسانية المحضة. والشيء نفسه قاما به أمّي وأبي، ذلك أنني لا أعتقدُ أن والدتي حينما استضافت السيدة الفرنسية في بيتنا لسبعة أيام تقريبا كانتْ تفكر فيما خلّفته الحروب الصليبية مثلا من أضرار، أو أنّ آن ماري كلير حينما كانت تنامُ في سريري، وتأكلُ من أكلنا وتشرب من مائنا، كان يخطرُ على بالها شيء اسمه الفتوحات الإسلامية! لا شيء من هذا كان يحدثُ، لأن الذي حدث

ببساطة هو تجلّي المحبّة الفطرية لدى كل واحد منا، وهذا هو حوار الحضارات على طريقة أمّي الطيّبة، وأمّهاتنا الجميلات جميعا. إنّ الأمرَ كان فيه شيئ أشبه بـ"حديث الروح للأوراح يسري وتدركه القلوب بلا عناء"، حديثٌ لا يعترفُ بالخلافات العرقية ولا الدّينية، حديثٌ من القلبِ إلى القلب، يسعى إلى بثّ الأمن والأمان عبر الكلمة الطيبة، والخُلق الحسن، والكرم والإيثار. فليتنا نعودُ جميعا إلى ما علمته إيّانا أمهاتنا منذ الأزل، وسوف ترون أنّ الحروب والصراعات وتلك الإيديولوجيات الرنّانة سوف تختفي تماما ويحلّ محلّها السلم والسلام، هذا السلام الذي به أعيشُ اليوم وسط أهلي وأحبابي الجُدُد هنا في إيطاليا، لا أحاكمُ شخصا على ملبسه ومأكله أو مشربه أو دينه، لأنّ كلّ ما أفعله هنا، هو ما علمتني إياه أمي بالفطرة: أن أملأ خابية قلبي العتيقة بماءِ المحبة المُعتَّق وأسقي به عطش قلب من يطرق بيتي، ولا أسأله عن شيء أبدا لا يخصّني، بالضبط كما فعلتُ قديما مع آن ماري كلير، فأنا لليوم مازلتُ لا أعرفُ إذا كانت حقّا مسيحية أو يهودية أو ربما مُسلمة، فالدينُ لله يا سادتي الكرام، وكلّ ما لله محلّهُ القلبُ، وكلّ ما في القلبِ لا يطّلِعُ عليه سوى صاحب القلوب، خالقها ومُثَبّتها ومُقَلّبها، لا إله إلا هو: السّلام الرؤوف الودودُ، الرحمن الرحيم، اللّطيف بالعباد والخَلْقِ جميعا.

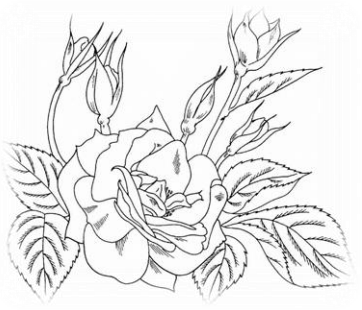

(٨)

درس طير الحمام

عن يميني قبّةُ البرلمان، وعن شمالي فندقٌ من فنادق مدينة الرباط الفاخرة، وعلى بُعد خطوات مني محطّةُ السكك الحديدية الكبرى، أمّا قلبي فكان يسبحُ وسط فضاء هذا المكان الآهل بالناس، أناس من كل لون وجنس، يتقاطرون من كل صوب وحدب ويتكلمون لغات مختلفة بين لهجة مغربية وأخرى فرنسية عربية فصحى وأخرى أمازيغية، وبين الناس شبابٌ وشيوخ وأطفال، وكل منهم في عالمه الخاص ويقصد وجهة خاصة، إلّا امرأة مُسنّةً ضاعت ملامحها بين هدير الأمواج المتدفقة من البشر، كانت تكتبُ وتكتبُ وتكتبُ فوق قصاصات بالية من الورق، وتُلوّح بيديها وتغني كلمات لم أفهم منها سوى أنها كانت للراحل عبد الحليم حافظ. وللحظات خيل إلي أنها كانت أسعد الناس في ذلك المكان بحروفها المتقاطرة إلى ما لا نهاية و بـ "أيّ دمعة حزن لا، لا ، لا" التي كانت تكررها على مسامع الجميع.

استغربتُ أمر هذه المُسنّة وأمر وجودها في هذا المكان، وأمر القصاصات التي كانت تكتُبها بعناية فائقة، واستغربتُ أكثر حينما علمت بأنها ممّن نالوا سعادة فقدان العقل أو ممّن يسمّون بالمجانين، وحينما أعياني السؤال والتفكير في حالها، تركتُها لقصاصاتها ولإبداعها الأبديّ الذي لا يطّلع عليه جنس مخلوق. تركتُها منهمكة تحت المطر وهي تؤرجح قدميها المتدليتين من أحد مقاعد الحديقة التي كانت تأويني في تلك الأثناء، واتجهتُ صوب سرب من الحمام كان يضفي على فضاء هذه الحديقة مسحة من الأمان والبراءة والصفاء في هذا اليوم الماطر من أيام مدينة الرباط الغالية.

اقتربتُ من السّرب بخفر وحذر وبين يديّ فتاتٌ من خبز كنتُ قد اشتريته خصيصا لهذا الحمام، وقفت وأشرت للمصوّر الذي كان قبالتي أن يلتقط لي صورة حالما يتجمع السرب من حولي، وبينما أنا مأخوذة بحلاوة الإحساس ومنظر هذه الطيور الأخاذة إذا ببصري يقع على شخص كان يتجه نحوي كالسّهم وبين يديه كيس كبير من الخبز اليابس، وهالني كونه ظهر هكذا فجأة لا أعرف من أين، بقوامه الفارع

وبنيته القوية، وعوده النحيل وحركته السريعة. وقد شدتني إليه نظراتُ عينيه الخاطفة، الجامدة واللامعة ككرات من زجاج أو ماس أسود. لبضعة أجزاء من الثانية كنت أحسني مأسورة ومأخوذة به وبمنظر ثيابه الرثة وبمسحة شظف العيش البادية عليه، وإذا به يقتربُ مني قائلا بصوت حازم وبلهجة مغربية سريعة وكأنه يعرفني منذ زمن بعيد:

- تواضعي للحمام، هذا النوع من الطيور رمز للأمان، وكي تكسبي ودّه عليك أن تجلسي القرفصاء، لا تبقي هكذا واقفة وبيديك فتات الخبز، اقتربي منه أكثر فأكثر، واجلسي، ابتعدي عن الرصيف ولا ترمي الخبز هناك كي لايطأه المارّة بأقدامهم، فهذه نعمة الله علينا، هيا ادخلي حيث العشب الأخضر واجلسي وخذي هذا الخبز اليابس مني واطعمي الحمام بمحبة.
- ...!

ألجمتني كلماته، ولم أردّ بأيّ حرف، بل لم يكن لديّ أيّ أدنى وقت للرد، لأنه كما ظهر اختفى كالسهم وسط الناس، وبقيت هكذا وسط السرب بعينين غائبتين، أفكّر في أمر هذا الرجل وأبتسم، فقد فهمت درسه لي.

ودّعتُ المكان وعدت إلى البيت وكلمات الرّجل تتردد بين ثناي قلبي: تواضعي للحمام، ولا تلقي بفتات الخبز على الطريق، ادخلي حيث العشب الأخضر.

وفكرت كيف أن الله، جعل من كل لحظة بسيطة في حياتنا وخاطفة لحظة تعلُّم ولحظة درس إلا أن الكثير منا لايفقه هذا الأمر، ولا يركز إلّا على ما في حياته من سواد دون أن يعلم أنه لو توقف ولو للحظة بسيطة لاكتشف أنّ السواد هو أعلى درجات البياض، وأن البياض هو أخف وأبهت درجات السواد بشكل يشبه لحظة انبلاج الصبح من الليل، وولوج الليل في الصبح.

(٩)

ليلو والحادي عشر من أيلول

«ليلو» هو الاسم الذي أطلقتُه على صديقتي الإيطالية «آنجلا» فسعدَتْ به أيّما سعادة. أطلقتُه عليها لأنها تشبهُ كثيرا بطلة الفيلم الكرتوني الشهير «ليلو وستيتش». هي جميلة وناعمة، و«آنجلا» أيضا. «ليلو» مشاغبة ومرحة، وصديقتي الإيطالية أيضا، هي شعرها طويل وأسود فاحم، وشعر «آنجلا» أيضا، هي تحبّ البحر وصخب الألوان من حولها وصديقتي أيضا، أما اتساع عينيها وسوادهما الشديد فكان أكثر شيء تشبهه فيها بشكل غريب: «آنجلا»، لها عينان تشبهان في سحرهما صمت الليل وحزن الغسق وعذوبة الفجر. «ليلو» كان لديها رفيق ملأ عليها حياتها وآنس وحدتها أسمته «ستيتش» أما صديقتي فحبيبها كان اسمه إلياس؛ شاب عربي مسلم ولد ونشأ بالولايات المتحدة الأمريكية، ويعمل فيها الآن كطبيب للعيون، وكانت «ليلو الإيطالية» تحبّه إلى درجة الجنون رغم معارضة ذويها لرغبتها في الزواج منه بسبب قلقهم على حياتها معه في بلد الغربة، والذي ازدادت حدته بعد الأحداث المهولة للحادي عشر من أيلول، هذا القلق الذي كانت كثيرا ما تحكي لي عنه «ليلو» وعن تطوراته في كل مرة تأتي لزيارتي فيها.

زياراتها كانت عزيزة على قلبي، وبينما هي الآن تنعم بحياة العشق والمحبة التي اختارتها مع إلياس والذي أصبح اليوم زوجها، أنا هنا بإيطاليا، أتذكّرُها بعد مرور أربع سنوات على لقائها الأخير بي، وأكتب عن ذاك اليوم الذي زارتني فيه –وكانت أثنائها لم تتزوج بعد– كي تستشيرني في أمور تخصّ بعضا من دراساتها وأبحاثها الجامعية. يوم لن أنساه أبدا ما حييتُ، كانت «ليلو» فيه سعيدة إلى تلك اللحيظات التي غادرتُها فيها إلى المطبخ كي أعدّ لها بنفسي الشاي المغربي الذي كانت تحبه، والذي كنت أعطره لها بوريقات من زهر الليمون والياسمين. كانت سعيدة قبل أن أنتهي من إعداد الشاي، وحينما عدتُ إلى غرفة الضيافة وجدتها وقد تغيّرت ملامحها وظلّلت عينيها الجميلتين سحابةٌ كثيفة من الحزن والخوف، سألتُها عمّ أصابها وغيّر

حالها هكذا فجأة، وإذا بها تشير بإصبعها إلى شاشة التلفاز ببراءة طفولية وتقول بصوت متشنج:

*I musulmani si sono arrabbiati un'altra volta, hanno attaccato l'America, ora li ho visti in tv. Ho paura, ho paura e penso a quel poverino di Elia che non so cosa gli sta succedendo adesso in America. Gli l'avevo detto di lasciare lì e di venire a vivere con me, qui, in Italia, ma lui non vuole, non vuole sentirsi straniero, l'America è la sua terra, lì è nato e lì è cresciuto.

[غضب المسلمون مرة أخرى، لقد هاجموا أمريكا، رأيتهم الآن على شاشة التلفاز. أنا خائفة، خائفة وأفكر في ذلك المسكين إلياس ولا أعرف ما الذي يحدث له الآن بأمريكا، كم مرة قلت له بأن يترك ذاك البلد ويأتي للعيش معي بإيطاليا ولكنه لا يريد أن يشعر بالغربة معي وفي بلدي، فهو هناك ولد ونشأ].

كانت كلماتها ودموعها المتهاطلة تنزل على رأسي كالسهام، ولأنني كنت أكبر منها سنّا وكانت هي بمنزلة أختي الصغرى وجدتُني أقوم من مكاني واقتربُ منها راجية إياها في هدوء أن تشرح لي سبب دموعها، وإذا بها تصرخ من جديد بعينين جاحظتين:

*Eccoli di nuovo sulla tv, non sono loro? E quelle non sono le torri gemelle?

[هاهم من جديد على الشاشة، وتلك الصور، أليستْ لبُرجي مركز التجارة العالمي؟].

حاولتُ أن أركّز انتباهي مع ما تقوله المذيعة وما قالته «آنجلا» وإذا بالأمر يتعلقُ ببرنامج وثائقي عن صناعة الموت، أعدّته القناة بمناسبة مرور ثلاث سنوات على أحداث الحادي عشر من أيلول. التفتُّ إلى صديقتي الصغيرة وضممتها إلى صدري وقد رسمتُ ابتسامة على شفتي وقلت لها: ((يبدو أنك يا «ليلو» لم تتعلّمي بعد وبشكل جيّد اللغة العربية، بالرغم من أنه لم يبق سوى القليل على يوم تخرجك وحصولك على الإجازة في هذه اللغة، ثم أنك تتكلمين عن عودة "المسلمين" لتدمير البرجين، قولي يا طفلتي الصغيرة، كم يوجد في أمريكا من برجي مركز التجارة

العالمي؟ أليسا برجان فقط وهما اللذان تمّ تدميرهما قبل ثلاث سنوات مضت؟ ثم أن هؤلاء "المسلمين" أليس لهم من أمر يشغلهم غير أمريكا و"الغرب" وأهله؟ أولَا تدرين يا حبيتي أنّ اليوم هو الحادي عشر من أيلول وأنه من الطبيعي أن يقدم التلفزيون برامج كهذه، ولو فكّرت الآن بالتوجه إلى أيّة قناة إيطالية ستجدين القصة والحكاية نفسها، وربما تضخيمات أخرى عنها أدهى وأمرّ؟ هؤلاء يا «ليلو» ليس لهم من همّ، سوى إعلانها حربا نفسية على الجميع وخاصة على أبنائهم في "الغرب"، انظري إلى نفسك، فأنتِ الدليل القاطع على ما أقول، وعلى هذا الرعب الذي يزرعونه فيكم حتى لا تفكروا في شيء غير الخوف من الآخر، الذي هو اليوم "عربي" أو "مسلم" وغدا ربما يصبح "روسيا" أو "صينيا" وقد يصبح حتى جنّا أزرقا، هذا لا يهمّ. المهم أن يكون ثمة كيان يرهبُكم ويدفعكم للتوجه إلى المزيد من المغريات ووسائل المتع والثقافة الاستهلاكية المتميّعة والجوفاء من أي معنى وفائدة. أما شباب الجهة الأخرى فيكفيه ما فيه من تدمير نفسي على جميع المستويات، ويكفيه ما نال ثقته بنفسه وبقدراته من اهتزاز وانفصام. هيّا عزيزتي، حاولي الآن أن تفكري بأيّ شيء آخر، وهذا الجهاز الملعون سوف نطفئه الآن)).

وببراءة «ليلو» بطلة الفيلم الكرتوني، مسحت «آنجلا» دموعها وعادت إلى الابتسام من جديد ثم هتفت قائلة:

*Come sono stupida, ho avuto un attacco di panico! Non sai come mi sentivo, stavo per fino chiamando Elia, lui avrebbe sicuramente pensato che fossi impazzita. Sono stupida. Si vede come hai detto tu, che ancora non capisco bene l'arabo.

[كم أنا بلهاء، لقد أصابتني حالة شديدة من الرّعب! لا يمكنك أن تتصوري كيف كان شعوري، إلى درجة أني كنت سأتّصل هاتفيا بإلياس. تخّيلي، من المؤكد أنه كان سيظن بأنني جُننت. أنا حمقاء، ويبدو حقا، وكما قلتِ، إنني مازلت لا أفهم جيدا اللغة العربية].

عادت للضحك وكأن شيئا لم يكن، وعاد لعينيها البريق والابتهاج، وبدأت تتلذذ بشرب الشاي، وكنت أراقب في صمت براءتها. كانت تقرّب الكأس من أنفها كي تستمتع بعطر الشّاي ثم تشربه ببطء شديد، كانت تبدو كأنها أميرة مسحورة، والشاي الذي كنت أعدّه لها في كل مرة كانت تزورني كان بالنسبة لها عطرا، وكان شربه عبادة. كانت تقول إنّها في بيتي تشعر وكأنها في كنيسة، وكنت أفهم قصدها جيّدا. كنت حاضرة معها بفكري وبروحي، وكان بصري تارة يقع عليها، وتارة على كتبها المبعثرة فوق المائدة، كتبٌ تتحدث كلها عن بابلو بيكاسّو وعن لوحاته، وكانت «ليلو» أقصد «آنجلا»، قد حملتْها معها كي تستشيرني بشأن اللوحة التي ستكون مناسبة أكثر لتزيين غلاف أطروحتها التي كانت تعدها حول هذا الفنان وعن تأثير الحضارة العربية على إنتاجاته التشكيلية. كنت أنظر إلى كل هذا وأفكر كيف أن ثلة قليلة من أشرار هذا العالم ما زالوا مصرّين على تسميم حياتنا باسم الدين والله، والله براء منهم إلى يوم البعث، وكيف أن الأمر لا يتعلق بحروب دينية بقدر ما هو نوع من استراتيجيات اقتصادية تجارية واستخباراتية محضة لا قدرة للمواطن البسيط عليها ولا على فهم ميكانيزماتها. وكنت أستغرب أيضا كيف أنهم يدرسون خططهم بمهارة ويدرسون بالذات العواقب النفسية الوخيمة لها على المدى البعيد لدرجة أنه الآن وحتى بعد مرور سبع سنوات على هذا الحدث ما زلنا نتحدثُ ونكتب عنه ونحاول تحليله بالرغم من أن الأمر لا يحتاج لا إلى تحليل، ولا إلى أيّ شيء آخر، لأن الإرهاب على مرّ الأزمنة لم يكن له أبدا جنسية محددة، ولا يمكن أن يُسمى أبدا بالعربي أو حتى بالإسلامي أو حتى بالمسيحي أو اليهودي، طالما أن التاريخ وأرشيفاته، أظهرا دائما أن أعمال التدمير التي طالت وما زالت تطول العالم من الممكن جدا أن تتحد فيها كل الجنسيات وكل التوجهات، والإيديولوجيات، لذا فقد يكون المُخطّط أمريكيا أو غربيا بشكل عام أو عربيا، وقد يكون المُنفذ عربيا أو غير عربي، وأقصد هنا بالمنفذ ليس ذاك الذي يفجّر نفسه، ولكن ذاك الذي لا يدين حتى بنفسه، ولا يعرف سوى أنه يريد أن يخرج من عالم الحاجة والفقر والعوز الذي هو فيه، ولا يهم إن كان الثمن

أجسادا منتحرة تتطاير أشلاؤها في الهواء، وأناسا تُقبر تحت حطام البنايات، وحتى وإن لم يكن معوزا، فقد يكون من المنحرفين أو المجرمين أو من الفاسدين، ثقافيا وإيديولوجيا، أي من أولئك الذين يرغبون في الزيادة من رؤوس أموالهم ونفخ حساباتهم البنكية المفتوحة هنا وهناك بغض النظر عن الانتماءات الجغرافية أو العقائدية. وغالبا ما قد يكون أمثال هؤلاء ممّن لا يعرفون عن الديانات السماوية الحقة شيئا ولا يهمهم لا محمد ولا موسى ولا المسيح الحيّ ولا حتى اللادينية، بقدر ما تهمهم هُم ومن يخطط لهم، المليارات من الدولارات التي ستذرها صناعة الموت كي تُستخدم في تحريك عجلة الاقتصاد والسياسة الجهنمية!

الكثير من هذه الأشياء لم تكن تعرف عنها «آنجلا» شيئا ولكنها كانت تعرف أنّ اللقطات الأخيرة من الفيلم الكرتوني "ليلو وستيتش"، والتي كان من المفترض أن يظهر فيها البطللان على ظهر طائرة بوينغ ٧٤٧ وهما يجوبان السماء بين ناطحات سحاب "هونولولو"، قد تمّ تعديلها مباشرة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول.

الفصل الرابع
ذات القلب الأخضر

(١)

قـــلـــب الأرض

أنا الأميرة التي رأتِ النور ببوابة الإله الأعظم، أنا الطفلة الحالمة التي خرجت من أرض حمورابي وبلشاصر، أبلغُ من العمر اثنتي عشرة ألف سنة. منذُ فجر الإنسانية كانت الحروب ببلدي وما تزال جحيما لا يبقي ولا يذر، بل سعيرا التهمت نيرانها كلّ أهلي وأحبتي من الموحدين الذين كانوا أول من هداهم الله إلى وجوده وإلى أبجديته وحروفه، ولم تترك لي حتى زمن ليس ببعيد سوى جدّتي، الراهبة الحافظة لسرّ القدسية والوحدانية. جدّتي التي قبل أن تلفظ أنفاسها من شدّة حزنها على فقد أبي وجدّي، أوصتني بأن أترك هذه الأرض وأرحل إلى بلاد بعيدة مغرقة في الظلام والنور، بلاد يطلع فيها البدر لستة أشهر، وتشرق فيها الشمس لستة أشهر أُخَر، كانت هذه وصيتها التي لم أكن قادرة على فهمها آنذاك لصغر سني، إلا أنه وبعد مضي سنين قليلة يَسَّر لي الله لقائي بشيخ كانت تنزل الأحرف بصدره كالشهب فتخرج حكما مقفّاة وأخرى مسجّعة، شيخ شرح لي ما كانت تقصده جدّتي بتلك الأرض، وقال لي إنها من الممكن أن توجد إما بالجزء العلوي من هذا الكوكب، أو بالجزء السفلي منه، وربما تكون أرضا بعيدة ونائية لن ينفعني في الوصول إليها إلا ركوب بحار من الظلمات. وحينما بلغتُ التاسعة عشر من عمري اخترتُ الرحيل إلى أرض ماوراء بحار الظلمات، الأرض التي صارت لي وطنا جديدا ومنبتا خرجتْ منه ذريتي، وترابا أعطاني عبد الواحد زوجا من أشدّ الخلق محبة لله ومعرفة به، وهو ذاته الذي قال لي يوماً إنّ جدّتي لم تكن تقصد في وصيتها تلك، أرض ماوراء بحار الظلمات ولكن أرضا أخرى يدوم فيها النهار لستة أشهر والليل لستة أشهر أخرى ويغطيها بياض يشبه بياض القلوب العابدة، وتحتها لهب يشبه نيران الأرواح العاشقة.

كيف تكون تلك الأرض يا ترى وهل توجد حقا؟ سؤال ظل يقضّ مضجعي لزمن طويل ولم أجد له جوابا حتى حلّ يوم ما زال موشوما بذاكرتي كالألم، يوم كنت قد جمعت فيه كل بناتي كي أقصّ وإياهن خصلات شعرهن وأعتني به بكل أنواع

النباتات العطرية الصالحة لنموه وكثافته وحياته كما هي عادتي وإياهن مرة في كل شهر، إلا إنني ما إن لمس المقصّ خصلاتي حتى خرج الدم منها فياضا وكأنه سيل من سيول دجلة أو الفرات. فزعتْ للأمر بناتي وذهبن بسرعة البراق لنداء والدهن الذي ما إن أصبح في حضرتي حتى وجد كلّ الدماء قد جفّت ونصف خصلات شعري الطويل ساقط على الأرض وقد بدأت الديدان تخرج منه وكأنه جسد تعفن بمجرد أن فارقته الروح.

أرعبني المنظر وذهبتُ توا لغسل شعري أربعين مرة ولفّه بعد ذلك في سائل الحناء علّ الأمر يعيد إليه رونقه وحياته من جديد، وذاك ما صار، فقد أنعشت الحناء شعري وأعادت إليه نموه الطبيعي، وما إن مرت ثلاثة أشهر حتى أصبح يتماوج فوق ظهري ويتجاوز قدميّ من شدة طوله وملمسه الناعم الحرير، واحتفالا بهذا الحدث السعيد اقترح عليّ زوجي أن يصحبني وبناتنا الصغيرات إلى نزهة بين الحقول والمروج الغنّاءة التي حباها الله لهذه الأرض الساحرة الخلابة بطبيعتها وبجبالها ومياهها، لكن هيهات هيهات ما إن صرنا بالخارج وما إن صدفت عيني نور الشمس حتى فرّت خصلات شعري من فوق رأسي، ووقفت متمردة وكأنها أسلاك كهربائية رقيقة كستنائية اللون تعانق السماء. ذهل الجميع من أمري وحاول زوجي عبد الواحد أن يتدارك الأمر ويعيد الخصلات إلى مكانها لكن دون جدوى، إنها هناك، تعانق السماء واقفة شامخة متحدية للجميع، خجلت من نفسي ومما أصبح يسببه لي شعري من أحداث غريبة خيالية وفوق كل تصور بشر، واجتمع الناس من حولي بعضهم ينظر إلي في استغراب والبعض الآخر في تخوف وآخرون يضحكون من منظري الغريب، وبقيت هكذا لا أستطيع الرجوع إلى البيت ولا أقدر على المضي قدما أو على الاختفاء حتى لا أظل هكذا أضحوكة لجميع من في القرية. وعندما غابت الشمس وبدأ الليل يرخي بستاره علينا، حدث أمر أشدّ غرابة من الأول، نزلت خصلات شعري من السماء وعادت إلى وضعها الأول!

كانت الليلة عصيبة علي، لم يغمض لي فيها جفن وطالت محنتي ودامت أياما وأياما وشهورا، فهمتُ خلالها بأن شعري أصبح أخا حميما للنور والظلام، يتحرك بحركتهما ويسكن بسكونهما، إذا أشرقت الشمس وقف وعانق السماء، وإذا حلّ الليل عاد مطواعا إلى سكونه ونعومته وهدوئه، ولم يكن من حل سوى أن أقفل بإحكام كل فتحة أو نافذة بالبيت كان من الممكن أن تدخل منها أشعة الشمس نهارا تفاديا لتمرد خصلات شعري، وبدأت الأيام تجري وتمر هكذا وأنا أعيش وسط الظلام لا أرى نور الشمس ولا أخرج كما كنتُ في السّابق للعمل رفقة زوجي بالحقول، ولا أتنزه وبناتي الصغيرات، إلى أن وصل إلى حاكم هذه الأرض خبري فأرسل لي من يأخذني عنده.

خرجنا ليلا ووصلنا رفقة الحرّاس مع أول خيوط فجر اليوم الآخر. وجدتُ الحاكم في انتظاري وقد أغلق كل نوافذ القصر حتى لا ترى خصلاتي أشعة النور التي سترسلها الشمس بعد ساعات من الشروق. دعانا إلى الاستراحة وبعد ذلك أخبرني بأنه سيرسل عند منتصف النهار في طلبي من أجل مقابلة رسمية وخاصّةٍ وسط وفد من كبار مستشاريه. وذاك ما حدث، ذهبت وقد لبستُ أحسن ما عندي من الأثواب وغطيت شعري بثوب أخضر سندسي برّاق وجلست قبالة الحاكم الذي بادر إلى سؤالي قائلا:

- ما اسمك وكم عمرك ومن أين أتيت وما قصة خصلات شعرك المتمرّدة؟
- اسمي ياسيدي آية، أتيت من أرض بعيدة تجري بها عينان دامعتان من السماء، اسم الأولى دجلة والثانية الفرات، وهذا زوجي عبد الواحد وهؤلاء بناتي، اسم الأولى إباء، والثانية جهينة، والثالثة حوراء، أمّا عن عمري فبعد أيام قليلة سأبلغ بإذن ربّي أربعين سنة، وقصّة شعري ياسيدي غريبة حدّ الموت ومازلت لم أقف على كنهها إلى اليوم.
- غريب ألّا تعرف السيدة سبب وقوف خصلاتها ومعانقتها السماء بمجرد رؤيتها لخيوط الشمس وضوء النهار، ألا يبدو هذا أمرا خرافيا !

قال الحاكم مخاطبا أحد وزرائه.

- إنني أقترح ياسيدي أن نعطيها الأمان ونخرجها إلى النور كي نقف على الأمر بأنفسنا بدل التخمين والتخيل، فقط بالتجربة يامولاي يمكننا أن نفهم قصة هذه السيدة.
- ما رأيك يا آية في اقتراح وزيرنا؟
- الرأي رأيك يا مولاي.
- إذن فلتفتحوا أبواب القصر ونوافذه ودعوا الشمس الحامية المشرقة تدخل إليه من كل جانب.

دخلت الشمس ووقفت كل خصلة من خصلات شعر آية وذهل الجميع من المشهد العظيم ومن ذاك الشعر الذي كان يقف معانقا أطراف السماء.

- لا تخشي شيئا يا آية، إن هذه والله علامة لشيء لا شك وراءه سر من الأسرار، فهلا وصفت لنا ما تشعرين به الآن؟

قال الحاكم في استغراب.

- ليس ثمة من سرّ، ولا أشعر بأيّ شيء سوى أنني أصبحت أضحوكة أمام الملأ، لا أستطيع لشعري حُكما وليس لي عليه سلطة ولا أمرا.
- إذن فلتقصّيه حينما يعود ليلا إلى سكونه؟
- ليس لي ذلك يا سيدي فسيمتلأ القصر بالدماء وستصبح الخصلات المقصوصة وكأنها جثث متعفنة وملأى بالديدان والهوام.
- ألهذه الدرجة يا آية؟ فلتأخذوها إلى غرفة الضيافة ولتعطوها ما يكفيها من المال والهدايا ودعوها تعود إلى بيتها هي وعائلتها إلى أن ننظر لاحقا في أمرها.
- ما رأيك يامولاي أن تجعل منها ومن شعرها أعجوبة هذا البلد والزمان وتأمر بإحضارها كي يتسلّى ضيوفك من حكام البلدان البعيدة وينبهروا بحكاية خصلاتها الطويلة الثائرة، ما رأيك أيضا في أن نريها لكل أطفال القصر، لعلّهم يجدون فيها ما يروّح عنهم ويحملهم إلى عالم الخيال والأحلام؟

- على رسلك، اتركوا السيدة تعود إلى حال سبيلها وامُرْ بألا يتعرض لها أحد سواء أكان من الرعية أم من رجال القصر، أفهمت أم أحتاج إلى إعادة الأمر بصيغة أخرى؟
- فهمت ياسيدي واعذر طيشي وتهوري وسطحيتي في تقييم الأمور.

عادت آية من جديد إلى بيتها وأقفلته بإحكام وعادت إليها أيام الظلام والوحدة والحزن والاكتئاب، أما قلب زوجها فكان ينفطر في كل يوم ألف مرة على ما أصاب زوجته من محنة أجبرتها على الانعزال وهجر الدنيا ومتعها والبكاء ليلا ونهارا. وفي ليلة مقمرة هادئة وعندما أنهت آية صلاتها ومناجاتها لله، إذا بزوجها يسألها في تودد رغبة منه في مساعدتها للوصول إلى حل أو أمر يخرجها مما هي فيه:

- لدي إحساس دفين ياحبيبتي بأن جدّتك كانت على علم بأن هذا الأمر العجاب كان ولابد سيصيبك. ثم ألا يمكنك يا آية أن تصفي لي ولو بشكل بسيط ماالذي تشعرين به أثناء فترة وقوف خصلات شعرك ومعانقتها السماء؟
- أعتقد أن السؤال نفسه قد طرحه عليّ سابقا حاكم هذه البلاد الحكيم والعادل، لكنني لحظتها لم أجبه بكامل الصدق، خوفا على البلد من الفتنة وخوفا عليّ من الخطف أو أن أصبح محطّ تقديس من طرف الناس وعامتهم البسيطة.
- كيف ذلك يا آية، أتريدين أن تقولين لي بأن وراء الأمر سرّا على هذه الدرجة من الأهمية؟
- أجل يا عبد الواحد وأعتقد أنني سأرحل قريبا من هنا، أنتظر فقط أن يأتيني الأمر العلوي.
- الأمر العلوي؟
- أنا سيدة آلام الناس المحترقة أفئدتها فوق كل بقعة قريبة أو بعيدة من الأرض، حينما يرخي الليل سدوله أسمع تحت وسادتي آلام الضعفاء وأحزانهم وأرى دموعهم ودماءهم وأحسّ بكل الظلم والقهر الذي يكوي قلوبهم وبكل الطغيان الذي يقهر إنسانيتهم. وبتلك الأيام المشرقة التي كنتُ أرى فيها الشمس، لم تكن

خصلات شعري تقف معانقة السماء كي تثير ضحك الناس وسخريتهم ولكن لشيء أكثر أهمية وجدّية، إنها كانت تنقل ما كنتُ أراه وأسمعه تحت الوسادة من آلام الناس وتوصلها عبر شحنات كهربائية قوية إلى خدام الله، وأمراء الاستغفار. كل خصلة يا عبد الواحد من شَعْري تمثل أمّة من أمم هذه الأرض الحاضر منها والآتي، وكلّ خصلة هي مكلّفة بنقل آلام شعوبها وهذا ما يفسر تلك الدماء التي كانت تخرج كالسيول الهادرة عندما قصصتها في الماضي.

- هذا يعني أنك...
- أنني أحمل ثقل الجبال فوق رأسي، وأنني لن أضيف إلى ماقلته كلمة، إلى أن يجعل لي الله مخرجا.

قالت آية وقد استرخت عضلات وجهها بعد أن كشفت لزوجها بعضا مما كانت تحمله في قلبها وخلدت بعد ذلك إلى نوم عميق لم يوقظها منه إلا صوت جوهري غريب كان يأتيها من أعماق قلبها وهو يقول:

- قلب الأرض، أنت يا قلب الأرض، هيّا استيقظي، لقد حان وقت الرحيل.
- أتهاتفني أنا؟ من أنت يا سيدي؟

قالت وقد أذهلها ما رأته عيناها، فقد كان الرجل شديد الشبه بجدّها.

- أنا لستُ بجدّك، أشبهه نعم، لكنني أشبهكِ أيضا، لعلّكِ لم تنتبهي لطول خصلات شعري البيض!

قال ثم حلّ شعره وأرسله وكأنه سجاد من الحرير الأبيض اللامع.

- أجل، كم هو جميل هذا الشعر الذي تحمل على كتفيك، أتريد أن تقول لي إن حكايته تشبه حكايتي، أتقف خصلاته أيضا كي تعانق السماء وتوصل إلى الإله آلام الناس؟
- مع فارق بسيط، أنا أستطيع طيّه والخروج به نهارا وذلك بفضل هذا الشريط السحري الأخضر، أما أنت فلا، ولأجل هذا أنا هنا، كي أهديك شريطين يشبهان شريطي وأساعدك على لفّ شعرك الطويل وعقده ولن تخشين بعد اليوم من وقوفه

أو ما يماثل ذلك، حتى وإن خرجت تحت ضوء النهار وأشعة الشمس الحارقة ، هيا انهضي ودعيني أشدّ خصلاتك.

نهضت آية وأسلمت شعرها للرجل ذي الخصلات الثلجية، الذي مشّط شعرها بمشط من خشب النخيل وقسمه من الخلف إلى جزئين، ثم لفّ الجزء الأول وعقده بالشريط الأول وكان أسود اللون ووضعه على الكتف اليمنى، ولفّ الجزء الثاني بالشريط الثاني وكان أحمر اللون ، ووضعه على شكل سجاد ملفوف على الكتف اليسرى، ثم طلب منها الوقوف، إلا أنها ما إن قامت من سريرها حتى سقطت أرضا من شدة ثقل شعرها الملفوف على كتفيها.

- أرأيت كم هي ثقيلة آلام الناس يا قلب الأرض؟
- أجل ياسيدي، إلا أنني لا أفهم لماذا تناديني بقلب الأرض؟
- لأنني منذ الآن سأحملك كي تعيشين بأرض ستكونين أنت القلب فيها. الأرض التي تشرق الشمس فيها لستة أشهر ويسطع فيها القمر لستة أخر.
- وأين توجد هذه الأرض يا سيدي، أرجوك أخبرني حتى أستطيع أن أطمئن أهلي؟
- لا تخشي شيئا، سيأتي من خدّامنا من يطلع زوجك بالأمر ويطمئنهم عليك، ومع ذلك يا سيدتي فالأرض توجد في القطب الجنوبي من هذا الكوكب، ويكسوها طيلة السنة بياض يشبه بياض قلبك. هيّا الآن أوصلي جزءا من شعرك بشعري وأذيبي سواده في بياضي، وعنفوان عمرك في عمق سنيني وقولي: بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.

وما كانت إلا لحظات قصيرة حتى وصلت قلب الأرض إلى القطب الجنوبي، وحيدة إلّا من شعرها الملفوف فوق كتفيها والذي كان يشدّ باستمرار جسدها النحيل إلى الأرض من شدة ثقله. لم يكن ثمة أحد، ينقذها من هذا البياض الخالي من الحركة والمفعم بالسكون، شعرت بالخوف والوحشة وأجهشت بالبكاء في لحظة من الحزن الشديد، ويا لهول المفاجأة، فدموعها المتساقطة أذابت جليد المكان الذي كانت تقف فيه وأخرجت إلى الوجود أزهارا وثمارا في غاية الروعة والجمال واللذة، بدأت قلب

الأرض في تذوق ثمار هذه الأرض الكامنة والغريبة وهي تفكر في كيفية حلّ مشكلة العيش هنا والأكل والشرب والمسكن، فدموعها لن تكون أبدا رهن إشارتها في كل مرّة تحس فيها بالجوع، ولا شك أن بياض هذه الأرض لن يقبل أبدا بدموع مفتعلة وكاذبة ، إلا أن خاطرا أوحى لها بألّا تطيل التفكير في هذا الأمر وتتركه إلى الغد. الغد؟ أيّ غد هذا الذي تتحدث عنه؟ فهنا الأيام لا تحسب بالشروق والغروب، فلا الشمس تشرق بالشكل الذي اعتادت عليه ولا القمر يهلُّ بنفس الطريقة، إلا أنّها حلّت الأمر بشكل أكثر بساطة: ستنام كلّما شعرت بحاجتها إلى ذلك. هكذا خلدت قلب الأرض إلى نوم عميق، لم يفقها منه سوى صراخ كانت تسمعه قادما من أعماق الثلوج، أفاقت مذعورة وحلّت شعرها علّها تستطيع أن تفهم شيئا مما كان يحدث لها، وجلست تمشّطه وتزيح عنه حزن الوحدة في هذا المكان الموحش، إلا أن الصرّاخ بدأ يزداد ويزداد بشكل مرعب كلّما اتصلت خصلاتها بثلج المكان الذي كانت تجلس فيه، استشعرت بأن الأمر له علاقة بآلام الناس في مناطق أخرى نائية عنها، فغرست جزءا من شعرها في الثلج بشكل أكثر عمقا وعمقا، ويا لهول ماحدث! تفجرت الدماء وانهالت طلقات وفرقعات لم تكن لتسمع بها من قبل أبدا، وبدأت تصرخ هي أيضا وتبكي وتبكي إلى أن أغمي عليها من شدة الألم. كانت لحظات قاسية على قلبها المرهف، ودامية على جسدها الذي أنعم الله عليه بجمال فاتن، إلا أنّ صوتا بداخلها يشبه صوت جدّها كان يهون عليها هول ما تراه في كل يوم ويخبرها بأن شمس الغد ستسطع وتسطع أكثر وأكثر، وأن هذه الأرض التي قدمت إليها من أعماق أعماق هذا الكوكب ستصير جنة لكل المقهورين والمظلومين.

ومرّت السنون طويلة وموحشة عليها في هذا المكان وهي على صبرها وقوة جلدها في تحمّل مناظر ألم الناس ومعاناتهم إلى أن صارت ستة ألف سنة، بدأ الشيب فيها يعرف طريقه إلى شعرها الكستنائي الطويل وبدأت فيها هذه الأرض تطرح خيرات بعدد كل المحن التي رأتها خصلات شعر قلب الأرض وعدد الدماء التي كانت تنزل كالشلالات من الجهة التي كانت تلفّها دائما بذاك الشريط الأحمر، وصار القطب

الجنوبي جنة الإله الموعودة، جنة لأهل سومر وبابل ولكل المعذبين من كل جنس ولون، فقط في هذه الفترة جاء لزيارتها الملاك ذو الشعر الحريري الأبيض ليزيّن رأسها بإكليل الصبر، ويعدها بالعيش ستة ألف سنة أخرى منحها لها الله من العمر كي تحيا وترى كيف سينشر العدل على الأرض وكيف سيعيد لكلّ ذي حق حقه وينصر المظلومين والمقهورين ويجعل من جنوب الكوكب جنة في الأرض، قلبه اسمه آية وعرشه في السماء، فهي هكذا دماء الأبرياء والضعفاء، والرضع والشيوخ والأطفال والنساء، لن تضيع عبثا يا آية، وقد رأيت بعينيك كيف أن الآلام التي كانت توصلها خصلاتك وأنت في ريعان الشباب إلى السماء وإلى عمق الأرض وأنت فوق منتصف السراط بالقطب الجنوبي. وكيف أن كل هذا قد أحال أبعد منطقة في الكوكب وأكثرها نسيانا إلى جنة وعد بها الله عباده الصالحين.

كانت هذه الكلمات آخر ما سمعته آية من الملاك ذي الشعر الفضي، ولو أنّها نسيت أن تسأله عن الآلام التي كان يوصل صداها إلى السماء وعن أيّة جهة من الأرض كان مسؤولا؟!

(٢)

أنا والبحر

أنا بائعة الورود والعطور، هكذا حلمت منذ طفولتي أن أكون، وشاء الله لي ذلك فكنته. أعشق العطور الجميلة والروائح الزكية والطيبة، وعشقي هذا حبّبَ إلى قلبي الأنواع النادرة من الزهور والورود والنباتات البرية، التي كنتُ أعبر من أجلها الفيافي وأذهب للبحث عنها في الأماكن البعيدة داخل وخارج الوطن كي أبيعها لمن يتمتعون بحاسة شمّ راقية.

أغلب زبائني كانوا من الأجانب الذين اتخذوا مدينتي العريقة سكنا لهم منذ سنين طويلة، ومعظمهم من النساء المُسنّات، بينهن مسيحيات ويهوديات وأخريات مسلمات من إفريقيا السوداء، منهن منْ كُنّ من الصومال ومنهن منْ كنَّ من ساحل العاج والسودان.

كنتُ أعيش في مشتلي الصغير هذا عابدةً زهدت في كل شيء وفطمت نفسها عن ما في الحياة من ملذات واهبة إياها للورود التي تعتبرها عطر الله على الأرض، تقطفه وتمنحه للناس الذين لا يستطيعون الحجّ إلى الأقاصي كي يستنشقوا هذا العبير المقدس بين السهول والروابي والصحاري والوديان. ظلّت هكذا حياتي إلى أن أتاني في يوم من الأيام زائر غريب؛ شيخ مُسنّ، فقير، ملتحفٌ بسلهام مغربي صوفي أسود ثقيل، وبقدميه نعل سوداء وقديمة جدّا، وبدون تحية أو سلام، وجدته يجلس فوق السّور الحجري المنخفض الذي يحيطُ بالمشتل من الجهة المقاربة مباشرة للباب. ابتسمتُ في استغراب، ثم قلت في نفسي: من يدري ربّما جذبته رائحة الورود والزهور، أو ربما يبحث عن قسط من الراحة وبعدها سيذهب إلى حال سبيله، إلا أنه لا شيء مما اعتقدته كان صحيحا، لأن زبوني الجديد اختار لنفسه هذا المكان وصار لا يبارحه إلّا مساء، عندما كنتُ أقفل المشتل وأعود إلى بيتي.

كان حيائي من شيخوخته وفقره يمنعني من الاستفسار عن سبب تواجده خاصة وأنني بدأت أُحسّ في داخلي بأن روحي بدأت تألف حضوره وإن كان بعضٌ

من الزبائن يتذمرون من وجوده هذا، إلا أنهم عندما بدأوا يلحظون اقترابي منه ولطفي معه، كفّوا عن التذمّر، إلى أن جاء ذاك اليوم الذي دخلت فيه زبونة صديقة وكانت من أصل فرنسي، فقالت لي:

- أنا لا أعرف يا سيّدة خديجة كيف تسمحين لهذا المتسوّل بالجلوس هنا بجانب المشتل، ألمْ تنتبهي أنه يُغطّي حتى وجهه، من يدري ربما يكون سارقا أو محتالا يخطط لشيء ما، ولنفترض أنك لم تنتبهي إلى كل هذا؟ ألم تُثر اشمئزازك هذه الرائحة الكريهة والقذرة التي تنبعث من جسده ومن قدميه؛ غريب أمرك، مشتلُك لم يعد مصدرا روائح وعطور زكية، بل ما إن يقترب منه الإنسان حتى يشمّ رائحة هذا العجوز الغريب، اعذريني، فأنا أعتبرك مثل ابنتي وأرى أن تجارتك هذه وعلى قلة ربحها، فإنها ستكسد بسبب هذا الرجل الذي تحيطينه بعنايتك وتقدّمين له بغباء الشاي والحلويات.
- ربما تكونين على حق، أنا أيضا انتبهتُ إلى وجهه المختفي تحت قُبّ سلهامه وعينيه المحجوبتين بشعره الأشعث الكثيف، إلا أنني لا أستطيع فعل شيء أمام رائحته التي تزكم الأنفاس، ولا أستطيع طرده من هنا، لا أعرف لم لا أقوى على ذلك؟ من يدري ربما ليس لديه مكان يذهب إليه؟
- أنت جُننت رسميا يا خديجة، لن يأتيك أحد بعد اليوم، ولن يشتري منك أحد الزهور والورود طالما هذا الرجل هنا.

خَرجتْ "جانيت" وتركتني في دوامة من فكر وحيرة لم أُفق منها إلا على الشيخ المسن وهو يدخل إلى المشتل ويقترب من مكتبي وقد أزاح قُبّ السلهام عن رأسه، فبدا شعره الكثيف الأبيض ومنكباه العريضان اللذان قوستهما الشيخوخة، وبحركة سريعة من يده، أزاح الشعر الأشعث عن جبينه وقال لي:

- ما بك يا سيدة خديجة، أراك قد نسيت موعد الشاي والحلوى، أتعتقدين أنّي لا أستحق ذلك، أمْ أن السيدة "جانيت"، ذهبت دون أن تسدد ما عليها من ديون؟

رفعتُ وجهي إليه وإذا بزرقة عينيه تملأ المكان، وتغمر قلبي بسعادة وصفاء روحيٍّ غريب، ولم أدر بنفسي، إلا وأنا أقوم من مكاني، وأبتسمُ في أمان عجيب وآخذ بيده وأُجلسه فوق أحد كراسي المكتب، وأقول له:

- لحدّ الآن لم تخبرني ما اسمك ياحاجّ، وماهي قصتك؟ ومن أين أتيت؟
- اسمي رضوان، وقصتي هي قصتك، أنا أيضا أحبّ عبير الله على الأرض ولهذا قصدتُك، كي أبقى قريبا من هذا العطر القدسي وممّن يحبّونه ويرعونه.

ذهلتُ لجوابه، وبدأتُ أنظر إليه بتفحص وإمعان، وذهني شارد في كيفية تطهيره من هذه الرائحة الكريهة التي كانا يصدراها جسده وملابسه لكونه رجلا يعيش حياته بالشارع، يفترش الأرض ويلتحف السماء، ولم أرتح حتى اهتديت إلى أنّه عليّ أن أبدأ من قدميه وأن أرعاه كما ترعى الحفيدة جدّها. وبعد إقفالي المشتل قصدت محل بيع الملابس الموجود في نفس الشارع الذي أقطن به واشتريت بعضا من الملابس الرجالية والجوارب وحذاء طبّيا كي أخلّصه من تلك النعل الكريهة الرائحة، ثم قصدتُ بيتي وأنا أعُدُّ الساعات كي تطلع شمس يوم آخر أذهبُ فيها محمّلة بالملابس إلى الجدّ الجديد، هديةَ السماء لي بعد أن فقدت كل أهلي في حادث سير مريع.

وهلّ نورُ اليوم الآخر وذهبتُ إلى المشتل وهناك وجدته على السور ينتظر عودتي وقد بدت علامات معاناته من البرد القارس على تجاعيد وجهه. أعددت له الشاي بالمكتب ونسّمتُه بوريقات البنفسج والبرتقال كما طَلب، وبينما هو يشربُ شايهُ، إذا بي أقترب منه في لطف وأُقدم إليه الملابس الجديدة وأطلبُ منه أن يذهب إلى مكان ما كي يغير ما عليه من ملابس رثة ومتسخة، مقترحة عليه أن يقصد بعض المراحيض العمومية، إلّا أنه ابتسم وأخذ بيدي بين يديه الخشنتين وقبّلهما كعلامة شكر وامتنان منه، وقال لي إنه سيفعل، ولكن ليس الآن، بل في الغد، وحينما رأى أنني لا أوافقه الرأي على تعابير وجهي، وعدني بأن يغيّر فقط الجوارب والنعل، فوافقتُ مسرعة وقلت له بأن يتركني أفعل ذلك بدلا عنه، لأنه لن يستطيع الانحناء

وفِعْلَ كلّ هذا لوحده، وافق بابتهاج طفوليّ ثم ربّتَ على كتفي ومسح بيديه على شعري.

نزعتُ النعل السميكة بصعوبة شديدة إلا أنني كلّما أردت نزع الجوارب عن قدميه اشتدت الرائحة الكريهة، وبالرغم من أني كنت أحاول إخفاء تقززي، إلا أنني لم أفلح فالرائحة كانت أقوى من أيّ إحساس آخر باحترام شيخوخة هذا الرجل وفقره وبؤسه، ولم يُخرجني من حالة غثياني، إلا صوته وهو يقول لي:

دعيني أساعدك يا ابنتي، إنها أكثر من جورب واحد، لقد راكمتُها مع مرور السنين، في محاولة مني لاتقاء البرد القارس ولسع الحشرات.

رفعتُ عينيّ السوداوين إلى عينيه الزرقاوين وقلت له:

لا تهتم، اعذرني هي فقط الرائحة ولكن سترى سوف نتخلص من هذه الجوارب المتعفنة.

وما إن جررتُ جوارب القدم اليمنى بحركة آلية عنيفة وقوية حتى وجدتني أسقط أرضا، وطالعتني قدمه البيضاء وقد غطتها الديدان التي كانت تأكل لحمه في نهم. لم أدر بنفسي إلا وأنا أقوم راكضة إلى الداخل وأتقيأ بكل ما أوتيت من قوة، كان المنظرُ عنيفا على قلبي ونفسي، إذ لم يسبق لي أن رأيت دودا على جسم بشري ولا لحما آدميا متعفنا بهذا الشكل، كنتُ أحسب أن ذلك يحدث فقط حينما يواري التراب أجسادنا، وفاجأني قلبي وهو يفيض بسيل عارم من الأسئلة حول هذا الشيخ الغريب وكيف أنه باق على قيد الحياة وقادر على المشي بالرغم من هذا الدود الذي يعيش ويقتات على قدميه، ومن يدري ربما على كامل جسده ؟ لا أدري...لا أدري، كيف أساعد هذا الرجل؟ كيف أطهّره وأعالجه من كل هذا، يا للمسكين، إنه وحيد، كم هي قاسية الحياة علينا، من يدري كيف سأكون أنا عندما أشيخ في وحدتي ووسط ورودي، لا، عليّ أن أقوم بشيء، عليّ أن أطلب مساعدة أحدهم، أجل هو فقط يستطيع القيام بهذا، خادم المشتل الأمين وحارسه القديم، نعم، سأذهب إلى بيته وأخرجه من بين أهله وأحكي له قصة الشيخ، لا، لا لن أحكي له قصة الديدان وإلّا فإنه لن يقبل

باصطحابه إلى حمّام الحي. وذاك ما كان، اتفقتُ وخادم المشتل الذي تقاعد عن عمله منذ سنين بأن يصطحبه في الصباح الباكر إلى الحمّام ويغسله ويطهّره قبل أن يأتي زبائن الحي، ثم ذهبت مباشرة إلى السيد أمين حمّام الرّجال وزوّدته بكل المواد المطهرة والمعقمة اللازمة لتطهير الغرفة التي سيغتسل فيها الشيخ المُسنّ ثم عدت إلى المشتل كي أخبر جدّي الجديد بكل شيء، فاغرورقت عيناه من الفرح والحزن ووعدته بأنني سأصطحبه إلى المستشفى كي يتم فحصه والوقوف على سبب هذه الديدان، إلا أنه أجابني بصوت متشنّج:

- إنه الشارع يا ابنتي، والفقر والعوز، أنا لم أُغيّر ملابسي هذه منذ أزيد من عشر سنوات، لم أُغيّرها لا في الحرّ ولا في القرّ، والنتيجة أنّها تعفنت وعفّنت جسمي معها.
- ألمْ تطلب مساعدة أحد في يوم من الأيام؟
- إن سؤال غير الله مذلة يا ابنتي، ثم أن حالي باد للعيان، ولو شاء الناس مساعدتي، لفعلوا دون أن أطلب منهم ذلك.
- لا تهتم، منذ الآن لأيّ شيء، فيمكنك اعتباري ابنتك الجديدة، وسأحاول أن أناقش أمرك مع إحدى الدور الخاصة بالمسنين كي يجدوا لك غرفة تأويك، وإذا اقتضى الأمر استضفتك عندي في بيتي، حتى يرى الله أمرا كان مفعولا.

ابتسم فجرُ اليوم الآخر، وما إن كانت الساعة السادسة صباحا حتى كنت أنا وعبد الرحمن، خادم المشتل السابق عند الشيخ رضوان، اصطحبناه إلى الحمّام ودخلا هُما وبقيت أنا في السيارة انتظرهما وما إن صارت السابعة والنصف حتى رأيتُ الشيخ رضوان وقد خرج من الحمّام وهو شخص آخر، بثيابه الجديدة ومحيّاه ورأسه الحليقين وجسمه النظيف. ابتسمتُ في خشوع من بهاء التغيير وتبادلتُ نظرات الفرح مع الخادم عبد الرحمن الذي كان غارقا في البكاء ولسان حاله يقول: كيف نستحقّ الحياة وغيرنا من بني البشر يعانون ما لا يخطر عال بال جنّ ولا إنس؟

أجبته في صمت: لا تحزن يا عبد الرحمن، فمقامك بعد الذي قمت به اليوم عند الله كبير، ولعله طهّرك من كل ذنوبك كما طهّرتَ جسم هذا الشيخ من الدرن والديدان.

رفعت رأسي من جديد ورأيت الشيخ رضوان يبتسم ويقول:

- أين زجاجة عطري، ألمْ تحملي لي عطرا بنكهة البنفسج؟
- كيف عرفت يا شيخ رضوان؟ إنها بيدي وكنت أنتظر أن نصعد إلى السيارة كي أعطيك إياها، خذها إذن وتعطّر كما تشاء، وجهّزْ نفسك لأننا بعد ذلك سنذهب إلى الطبيب كي يفحص القروح المتعفنة.
- ما رأيك أن يكون ذلك غدا بإذن الله يا ابنتي، لأني أريد أن أقضي بقية اليوم هناك، فوق سور المشتل وأستمتع بالقرب منه أطول وقت ممكن وأنا على هذه الحال من الطهارة، إنني هناك أُحسني وكأني متعبد داخل محراب جدرانه من ياسمين وأبوابه من بنفسج.
- اتفقنا إذن، غدا نذهب إلى الطبيب، ولكن لك أن تعرف أنك منذ اليوم ضيفي، إلى أن أرتّبَ أمر دار المسنين، لن أدَعكَ بعد اليوم تنام فوق السور أو على أرصفة الشوارع.
- الليلة بالشارع وغدا ببيتكِ يا ابنتي، دعيني على الأقل أودّع حياة الشارع والرصيف، فلها أسرار لا يخبرها إلا من أحبه الله وابتلاه.
- ليكن لك ذلك إذن، ومن الغد فأنت ضيفي.

عاد عبد الرحمن إلى بيته بعد أن أوصيته بألّا يخبر أيّ مخلوق عمّا قمنا به اليوم حتى لا تصيبه شائبة الرياء، وذهبتُ أنا والشيخ رضوان إلى المشتل، حيث قضيتُ بقية اليوم ولم أهجره سوى عند المساء مودّعة الشيخ وواعدة إيّاه بالعودة إليه غدا كي آخذه إلى البيت بعد أن أكون قد جهّزت له غرفته الجديدة.

سطعت شمس يوم جديد وما إن كانت الساعة الثامنة حتى كنتُ بالمشتل، لكن الشيخ رضوان على غير عادته لم يكن هناك بانتظاري، بحثتُ عنه في كل مكان

ولكن دون جدوى، عدتُ إلى داخل المشتل وجلست بمكتبي أنتظر وأنتظر ولكن حلّ المساء ولم يعد الشيخ رضوان بعد، خرجتُ وجلست فوق السور حيث كان يجلس دائما الشيخ، أتذكّرهُ وأستعرض كل لحظة من لحظاته منذ حلّ عليّ زائرا غريبا إلى أن غادرني وهو جَدّ قريب، وأستعيدُ كلماته وما قاله عن "جانيت" وكيف عرف أنها لم تسدد ديونها لي بل كيف عرف اسمها، وأمر عطر البنفسج بيدي، وبينما أنا شاردة في كل هذا إذا بعيني تقع على رزمة صغيرة جدا من ثوب أخضر اللون، أخذتُّها وفتحتُها وإذا بي أجد بداخلها حُبَيْبات بدا عليها أنها بذور لشيء ما، استغربت الأمر وقرّبت الرزمة والحبيبات مني راغبة في اكتشاف المزيد وإذا برائحة زكية وقوية تفوح من جوانبها، وفكرت في نفسي أنها لا شك أثرٌ تركه لي الشيخ رضوان في نفس المكان الذي يجلس فيه وأنه لا يمكنني فكّ حروف هذا اللغز إذا لم أزرع هذه البذور بمشتلي وبالفعل، ذاك ما قمت به في اليوم الموالي، وما إن مرّ شهر على وقت زرع البذور حتى تفتقّت الحبيبات عن ورود غريبة، داكنة اللون، تتفتح عند الصباح فتكون بنفسجية غامقة وعند منتصف النهار تصبح زرقاء وعند الليل تصبح سوداء ولا يفوح عطرها القوي الأخّاذ إلا عند السّحَر كي يدوم فواحا قويا طيلة اليوم وبكل أرجاء المدينة، التي أصبح كل سكانها يتقاطرون عليّ، كي يشاهدون ورود رضوان، هكذا سميتها دون أن أحكي تفاصيل القصة لأحد.

(٣)

ذاتُ القلب الأخضر

الجو جميل اليوم يا زهرتي الليلكية، وروحي بعد فراقك بدأت تتماثل للشفاء. أصبحت أشعرُ بكلام الناس من حولي، أفهمهم وأراهم، وبدأتُ أسعى إلى لقائهم كي أسمعكَ في أحاديثهم وأراك في ابتساماتهم وهم يتذكرون كيف كانت حياتك وإياهم. الكلّ هنا يا زوجتي الحبيبة يتحدث عنك: بناتك، أحفادك وتلاميذك بالمدرسة، وناس المدينة والقرية وناس كل مكان زرته بل حتى أهل السماء يتحدثون عنك، أجل يا زهرتي، رأيت ذلك بعين قلبي في حلم الليلة الماضية!

كان إلى جانبك شخص نبتتْ فوق جسده أوراق الرمّان وتوج رأسه طائر من نور وعلى يمينه يتدفق نهر من حناء، كان يغرفُ منه كميات قليلة في إناء من فضة ثم يصبّها على جسدك العاري البلوري، وكنتِ تبدين في حضرته كأنك حورية لم تتجاوز الثالثة والثلاثين من عمرها، وكان الرجل الأخضر كلما مرّر يده على جسدك كي يمدّد الحناء المصبوبة فوقه إلا وكرّر الكلمات التالية: [خضراء ستكونين يا ذات القلب الأخضر، ورحيمة ستكونين هنا في السماء كما كنت في الأرض]، كلمات ما إن أنهاها حتى أدخل يده إلى حيث قلبه وأخرج منه حبيبات ياقوت بدت عن بُعد كأنها حبيبات سقطت من فاكهة الرمان التي كانت نابتة فوق جسده، ثم بدأ يرصّها الواحدة تلو الأخرى فوق جبينك وهو يقول:[مغفورة ذنوب من أساء إليك في الأرض يا سيدتي، مغفورة، لأنك أردت هذا يا ذات القلب الأخضر] وعندما أنهى أحرفه هذه، قمتِ والأشعة الياقوتية اللون المنعكسة من جبينك تنير خطاك، وبقيتُ أنا دهشا أنظر إليك وإلى هذا البهاء الذي يكسو محياك وجسدك الذي خيل إلي من شدة شفافيته وكأني رأيتُ بداخله حتى النخاعَ الذي كان بعظام ساقيك ويديك.

قمتُ من نومي وكانتِ الساعة تشير إلى الثالثة والنصف صباحا، توضأتُ وصليت بخشوع كما لم أصلّ من قبل، وبعد قراءة ما تيسر من القرآن جلستُ أتدبر في تلك الرؤيا الغريبة وذاك الرجل وطائره النوراني الأغرب ووجدتني بعد ذلك

ألبس ثيابي وأتناول وجبة الإفطار، ثم أخرج لزيارتك في المقبرة، خاصة وأن اليوم جمعة وجوّه رطب ونديّ في هذا الشهر الصيفي الذي أعلن عن نفسه حارّا منذ البداية.

حيّيْتُ كل القبور وأجداثها وبدأت أخطو قاصدا قبرك كي أتبادل وإياك حديث ومشاعر كلّ يوم جمعة، وكم شعرتُ بسعادة كبيرة حينما تراءى لي عن بعد، طفل صغير رثّ الملابس وأشعث الشعر وبيده الصغيرة إناء من ماء كان يسقي به تربة قبرك وإلى جانبه والده الكفيف وقد غطى رأسه بمنديل أبيض، طويل وعريض وجلس أرضا مفترشا جلبابه الصوفي المتآكل وهو يردد: «وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». اقتربتُ من الطفل وحييتُ والدَه بتحية الإسلام ثم شكرت صنيعه وأخرجت بعضا من النقود علني أفرِح بها قلب هذا الطفل المسكين الذي ولا شك يتواجد هنا كي يسقي قبور الناس علّ البعض من زوارها يجود عليه ببعض المال أو الهبات كي يساعد بها والده، ولكني ما إن هممتُ بوضع المال في يده الصغيرة التي كانت تحمل سابقا إناء الماء حتى رأيتُ في يده الأخرى رمانة كبيرة! ألجمتني المفاجأة ولم أعرف كيف أني وجدتُ نفسي أتأمل هذا الطفل بتركيز شديد لمْ تخرجني منه سوى كلماته التي نطقها بلهجته الطفولية البريئة: «ماذا؟ هل تريد الرمانة؟ إنها لي، وجدتها هنا على هذا القبر، ربما سقطت لشخص ما زار هذه السيدة يوم أمس». لم أنبس ببنت شفة ولم ينقذني من دهشتي سوى الأب الكفيف الذي أزاح الغطاء عن رأسه وقال له: «هيا افتحها يا إدريس ولنأكلها نحن الثلاثة». التفتُّ إلى الأب بعد أن سمعتُ كلماته هذه، وإذا به يشبهُ الرجل الأخضر، الذي رأيته أمس يغرف الحناء من ذاك النهر المتدفق، حاولتُ ألا أخلط الحلم بالواقع، وأن أعتبر كل ما حدث مجرد صدفة ثم قررت أن آكل معهما الرمانة وأعود إلى البيت وذاك ما كان: أعطيتُ ما تيسر من النقود إلى الطفل الذي انفرجت أساريره ولمعت

عيناه الجميلتان من شدّة الفرح، أما الأب فعبّر عن امتنانه بكلمات قالها لابنه ولم أزلْ أذكرها حتى الآن وما أظنني إلا وحاملها معي إلى الرمس: «اشكر يا إدريس السيد، ألم تتعرف عليه بعد؟ إنه زوج السيدة ذات القلب الأخضر والياقوت المرصوص فوق الجبين!».

(٤)

حرقة الضمّ وبكاءُ النّصب والكسر

- هل ترغبين اليوم في القضاء على ما بقي بداخلي من صبر وعقل؟ هيّا قولي لي، لمَاذا لا تكتبين ما آمرك به؟ هيّا ضعي علامة الكسر في آخر الاِسم بهذه الجملة وفي الجملة الثانية أيضا، وعلى الاِسمِ نفسه دائما علامةَ النصب. هيّا لن أضيّع معك اليوم كلّه كي أشرح لك الكسر والجرّ في اللغة العربية!

صرختْ مُدرسّة اللغة العربية في الصغيرة هُدى بكلّ ما أوتيت من قوة وجنون. لكن على عكس المتوقع ظلّت هُدى مصرّةً على عنادها واستمرت في كتابة الاِسم مرفوعا لا مجرورا ولا منصوبا مما زاد من حنق المُعلمة بشكل لمْ تستطع معه تمالكَ نفسها فصرخت من جديد بشكل هستيري:

- غدا لن تدخلي الفصل إلا ومعك والدتك. أتفهمين! هيّا قومي الآن واغربي عن وجهي، وعقابا لك اكتبي الاسم ببيتك مئة مرة منصوبا ومئة أخرى مكسورا.

خرجت هُدى كسيرة الخاطر وعادت إلى البيت والدمع متحجر في عينيها، فالمُدرّسة لا ترغبُ في سماع أيّ تفسير منها ولا تتوانى عن نعتها بالغبية أمام زملائها، وهي بالرغم من ذلك تحاول قدر المستطاع أن تخفي كلّ هذا عن والدتها حتى لا تثقل كاهلها بهمّ وعبء زائد، يكفيها ما تحمله هي ووالدُها من أحزان ضنك العيش وقسوته، لكن المُدرسة لم تتركْ لها مجالا كي تستمر في التستر على ما يحدث لها داخل الفصل فغدا عليها أن تصحب والدتها معها مهما كلف الأمر. حارت هُدى في أمر هذه المشكلة وظلت تفكر فيها إلى أن هداها قلبها الطفولي إلى الاعتقاد في أن أحسن حلّ هو البوح لأمها بكل شيء، وذاك ما قامت به بمجرد عودة هذه الأخيرة من عملها:

- حسنا ولماذا لا تقومين بما تأمرك به مُدرّستك يا صغيرتي. صحيح أنني امرأة لا تعرف القراءة والكتابة وأقضي ساعات طوال في معمل تصبير السمك أنا وباقي نساء الحيّ كي نكسب قوت يومنا، لكن هذا لا يمنع من أنني أعتقد أنه من

الأفضل للتلميذ أن يطيع مُدرّسه أو أستاذه، أنت اكسري الاسم وانصبيه كما قالت لك وتجنّبي جنونها، وإلا فإنها سوف لن تتركك لحال سبيلك وستمطرك بلائحة أخرى من العقوبات، ومن يدري ربما تقول لك بعد غد أن تكتبي ذات الاسم ألف مرة. لا عليك الآن يا حبيبتي سأذهب معك غدا عندها، ولا تكتبي أيّ شيء من العقوبة التي كلفتك بها فأنا سأتحدث معها بهدوء وأحاول أن أصل وإياها إلى حل.

انشرحت أسارير الطفلة لسماع حديث والدتها وقفزت من مكانها كي تقبلها وتُعانقها بحرارة ثم ذهبت إلى غرفتها طلبا للنوم، لكنها حينما استلقت على سريرها الصغير بدأ ذاك الاسم يراود فكرها بشكل ملحّ إلى أن بدأت تراه بعين قلبها ناريّ اللون ولا علامة فوقه سوى علامة الضمّ. كان هذا هو السبب وراء إصرار الصغيرة على رفع الإسم وعدم نصبه أو جره. فهي هكذا تراه بل هي هكذا تسمعه في كل ليلة يقول لها: [أنا الرّافعُ أنا المُعِزُّ، أنا العليُّ المتعال، العَظِيمُ المُتَعَظِّمُ، الكَبِيرُ الْمُتَكَبِّرُ، الشدِيْدُ المِحَالِ]. وكانت الصغيرة في كل مرّة تسمع هذا الكلام تقوم من سريرها وتأخذ طبشورتها الزرقاء وتكتبُ بها فوق جدران غرفتها اسم الله وعلامة الضمّ فوقه ولا شيء غيرها، بالضّبط كما كان يتجلّى لها.

مرّ الليل طويلا على الصغيرة وهي تناجي اسم الله وحركة الضم فوقه وحينما حلّ الصباح ذهبت إلى المدرسة ووالدتها معها.

- إن ابنتك عنيدة وغبية، أظنها على الأقل شرحت لك سبب دعوتي لك هنا؟

قالت المدرسة بغطرسة وتعجرف.

- نعم يا سيدتي وأنا قد بسّطت لها الأمر وثقي بأنها من الآن فصاعدا لن تقوم إلا بما تأمرينها به.
- لا يمكنك أن تتخيلي درجة جنونها. إنها تريد أن تُغيّر قواعد النحو العربي. أقول لها إنّ اسم الله يمكن كسرُه ويمكن نصبُه فترفض ذلك ولا تكتبه إلا مرفوعا. وأقول لها اكتبي (إن اللهَ غفور رحيم) فتكتبُ (إن اللهُ) وأقول لها اكتبي (للهِ ما في

السماوات والأرض) فتكتب (لله)، ما الذي يجب أن أقوم به؟ لا أعرف. لقد قلّتْ حيلتي معها ونفد صبري.

قالت المُدرسة آمرة هدى بأن تدخل إلى الفصل، وذهبت الأمّ إلى عملها ولسان حالها يقول:[عسى الله أن يُخلّص تلاميذك منك ومن غطرستك وكلامك الغامض الذي لم أفهم منه شيئا].

دخلت المُدرّسة الفصل واتجهت نحو هُدى:

- هيا اكتبي اسم الجلالة بكلّ حركاته النحوية.

لكن هُدى عادت من جديد لتكتب اسم الله مرفوعا لا غير. صرخت المدرسة بكلّ ما أوتيت من قوة وطردت الصغيرة من الفصل وأمرتها بألا تعود إليه مجددا حتى تنظر في أمرها. خرجت الطفلة من جديد وقصدت البيت مباشرة. لم يكن به أحد فوالدتها في العمل وأبوها خرج منذ الصباح الباكر كي يجوب الأحياء بعربته الصغيرة الممتلئة بالنعناع يبيعه للبيوت مقابل ريالات لا تغني ولا تسمن من جوع. ارتمت فوق سريرها حزينة وأجهشت في بكاء طويل، ثم قامت وأخذت من حقيبتها أقلامها الملونة وبدأت تخطّ بجنون اسم الله في كل مكان إلى أن أصابها الإعياء فخلدت إلى النوم. عادتِ الأمُّ من العمل ووجدت الصغيرة نائمة والجدران ملآى بخربشات لم تستوعب منها شيئا. اتّجهت صوب المطبخ، أعدّت وجبة الغداء ثم عادت مرة أخرى إلى غرفة الصغيرة توقظها من أجل تناول الطعام، لكن هيهات هيهات، الصغيرة كانت تنام بعمق عجيب مُخلدة روحها البريئة إلى صاحب الاسم المرفوع المضموم. بدأت الأمّ تصرخ بألم وحرقة شديدين إلى أن دخلت مدار رفع الحجاب فرأت ابنتها تجري ضاحكة في جنان فسيحة وعلى يمينها موكب من حركات الضمّ يحملُ شموعا من فضّة، وعلى يسارها موكبٌ آخر من حركات الكسر والنصب بجلابيب سودٍ يبكي بدل الدموع دما على ما سبّبته مُدرّسة الشؤم من أحزان وآلام جرحت بها قلب الصغيرة ومشاعرها المرهفة البيضاء.

(٥)

أسئلة بين الليل والفجر

كنت هناك رفقة مخلوق آخر من مخلوقات السماء التي لا تعدّ ولا تحصى. الكثير من أهل الأرض يسمّوننا بالحفظة، أما العارفين منهم فيميزون بين الحفظة منا وبين المتعاقبين: رفيقي وأنا، كنا من المتعاقبين، أنا مكلّف بالطفلة صفاء، وصديقي يحرسُ أمّها لمياء. صفاء هذه، طفلة لها من النباهة والذكاء ما يفوق الوصف، ولها أيضا من حلاوة الطبع وخفّة الدم ما كان يجعل كل من يراها من الخلق يحبّها وتتعلقُ شغافُ قلبه بها.

لم تكن صفاء تفارق والدتها ولو للحظة واحدة، بل كانت تنام معها في السرير ذاته كلما ذهب والدها إلى العمل ليلا في أحد مستشفيات المدينة التي كانت تقيم بها الأسرة كاملة.

هما الآن معا، تمشطان شعرهما قبل الخلود إلى النوم، إلا أن بال صفاء التي لم تتجاوز بعد سنواتها السّبع مشغول جدا الليلة، وفي ذهنها تدور آلاف الأسئلة والأسئلة حول تلك االسجّادة الملقاة على أحد كراسي غرفة النّوم لدرجة دفعتها إلى جمع خصلاتها بسرعة والفرار من بين يدي أمّها وهي تقول بصوت طفولي:

- عجيب يا أمي أمر هذه السجادة وهذه البقعة الباهتة بالجزء العلويّ منها، إنها تشبه كثيرا تلك العلامة التي أراها فوق جبين خالي، علامة لم تمحها الأيام. أصحيح كما قال لي خالي إن هذه العلامة هي من أثر السجود؟ وماذا يعني هذا؟ أبي أيضا يصلّي ولكن لم تظهر على جبهته أيّة علامة، أرُبّما لسواد لون بشرته؟ ألا تعتقدين ذلك يا أمّي؟ ثم أنك أنت أيضا تصلين، بل تصلين أكثر من خالي ومن والدي ولم يظهر على جبينك أي شيء بالرغم من أن بشرتك لونها أبيض مثل لون بشرة خالي؟ أتظهر علامة السجود هذه يا أماه فقط فوق جباه الرجال؟ أنا لم أرها فوق جبين أيّة امرأة من حولي، لا أنت ولا جدتي ولا خالتي ولا معلمتي بالمدرسة ولا حتى فوق جباه نساء الجيران، ترى لماذا يا أمي؟

فاجئتنا جميعا هذه الطفلة العجيبة بأسئلتها المدهشة، ووجدتني أغيّر المكان الذي كنتُ واقفا فيه وأجلس مباشرة بجانبها، أمّا رفيقي فنزل من الفضاء العلوي للغرفة كي يجلس إلى جانب الأمّ لمياء وكلّنا اهتمام وانتباه لما سيدور بين الأم وابنتها من حديث.

مازالت لمياء تحت وقع المفاجأة وما زالت تلملم أطراف الحديث وتفكّر كيف ستجيب عن هذه الأسئلة التي لم تضعها في حسبانها يوما، ولم تفكّر أبدا بأنه سيأتي يوم تجد فيه نفسها بموقف كهذا؟

وفجأة اقترب الكاتبين الحافظين من الطفلة ووالدتها بل كادا يلتصقان بجسديهما وفتح الملاك الحافظ الخاصّ بالأمّ سجلّه واستعدّ لكتابة ما ستقوله، وبدأت لمياء في الكلام وهي تمرّرُ يديها على ركبتها مرات ومرات:

- حبيبتي ونور حياتي ابنتي صفاء، تعالي هنا بين أحضاني وإن شاء الله وبعون وبإلهام منه سأجيب عن كل أسئلتك وليسامحني الخالق إذا ما أخطأت جوابا أو قصّرت في إيضاح:

أولا علامة السجود هذه لم يخصّ الله بها عباده المسلمين فقط ولكنها علامة كانت تظهر على جباه العديد من خلقه حتى قبل ظهور الإسلام، إذ كان له عباد يحبونه ويصلون له في بقاع عديدة من الأرض وتحت ديانات جاء بها العديد من أنبياء الرحمة، ومن هؤلاء الناس من كان معروفا أو من صار من رجال الله الصالحين ومنهم من ظلّ في طيّ السّتر لا يعرف عنهم أحد شيئا.

وجاء الإسلام واستمر الناس في الصلاة والعبادة، وبعضهم من كثرة السجود كانت تظهر على جباههم هذه العلامة إمّا لرهافة بشرة الوجه وإمّا مبالغة من المصلي نفسه في الاحتكاك بالأرض أو السجّادة كي تظهر عليه هذه العلامة وتمكّنه بالتالي من التباهي بها أمام غيره من الخلق، وهي على جباه بعض الناس علامة للصلاح وعلى البعض الآخر علامة لفساد النفس والرياء، وكثير هم خلق الله الصالحون من لا تحمل جباههم أيّة علامة من علامة السجود أو غيرها وكونها يا أميرتي لا تظهر

على جباه النساء، ليس من تفضيل الإله للرجال على النساء أو تخصيصه بظهورها على جباههم فقط ولكن لعناية الخالق بهن وحفظا لمحياهن من أيّة بقع دائمة قد تشوه جمالهن وصفاءهن، وكون جسد المرأة مكرّم منذ الأزل بأمر رباني فإنّ هذا جعل منه جسدا ليس في حاجة لعلامات تجعل من صاحبته امرأة فاضلة أو لا، وإن كان الله قد خصّ الرجل بعلامة سجود واحدة قد تكون كبيرة منتشرة وعريضة وقد تكون أيضا صغيرة، فإن الله خصّ المرأة بعلامتين وربما بأربع علامات.

- أربع علامات سجود؟!

ردّدنا جميعنا: الطفلة والحافظين ورفيقي وأنا.

- أجل قد تصل العلامات لدى المرأة إلى أربع علامات سجود تختلف حسب طريقة سجود كلّ منهن. ولكني لن أخبرك بها الآن يا صفاء، ستكتشفينها أنت أيضا عندما تكبرين وإذا ما استمريت في صلاتك وفق ما ربّيتك عليه.

أضافت لمياء بحزم وهي تُمرّرُ يديها على ركبتيها مرارا وتكرارا، ثم حضنت ابنتها من جديد وحصّنت نفسها وطفلتها ببعض من السور القرآنية كعادتها في كلّ ليلة، ثم أطفأت نور الغرفة وظللنا نحرسهما في نومهما ونقرأ من أجلهما أرقى كلمات الحفظ والستر والاستغفار إلى أن قدم الملاكان المتعاقبان الآخران كي يستلما دور الحراسة بدلا مني ومن رفيقي عند بزوغ أولى خيوط فجر اليوم الآخر. ولم أشأ أن أذهب هكذا دون أن أودع الأمّ وابنتها فطبعتُ قبلة إجلال على رأس الوالدة وقبلة أخرى بين يدي صفاء التي كانت تستعدُّ للاستيقاظ مع والدتها كي تصلّي أول صلاة فجر لها ثم طرتُ إلى الأعالي وبقلبي يتردد صدى كلمات صفاء بصوتها الطفولي البريء:

- ستكون هذه أول صلاة فجر لي معك يا والدتي، لأنني أريد أن أكتشف كيف أن النساء لهن علامات سجود تفوق تلك التي خصّ بها اللهُ الرّجالَ.

ابتسمت لمياء وهي تنظر بحنان فائق إلى فلذة كبدها وهي تكبر وتكبر أمام عينيها، ثم قالت وهي تمرر يديها على ركبتيها:

- إن شاء الله سترينها وستُعلّمين لحفيداتي ما ستكتشفينه غدا بنفسك.

(٦)

دمى زوجتي

كنت أنظر إليها بعمق ويدي الحزينة فوق جبينها البارد جدّاً وكأنه قطعة من رخام. أنظر إلى جدائلها التي تساقطت معظمها من أثر العلاج الكيميائي الذي مارسه عليها الأطباء قبل وفاتها، علّها تشفى من ذاك السرطان الخبيث الذي هاجم جسدها الوديع على حين غرة. بدا لي ثغرها باسما وبدت لي وكأنها حورية شفيفة، فتمنّيتُ اللّحاق بها! كنتُ أحاول أن أحبس الدّمع في مقلتي ولكن عبثا، ولكي أجففه حاولت أن أخرج منديلي من جيبي وإذا بي أخرج منديلا آخر كانت زوجتي قد خاطته وطرزته قبل وفاتها. ابتسمت في حزن وشقاء وتذكرت كلماتها الأخيرة لي حينما أشارت بإصبعها طالبة مني أن أحمل لها ذاك الصندوق الذي كان قد وُضع منذ سنين مضت فوق خزانة ملابسنا والذي لم أعرْه يوما اهتماما نظرا لقدمه وإهمال الجميع له.

- أرجوك هابيل، أعطني ذاك الصندوق البني. قالت بصوت خفيض.
- أيّ صندوق؟
- ذاك الذي فوق الخزانة.
- ولمَاذا؟ ماالّذي يوجد بداخله؟
- أعطني إياه وسأخبرك. لا تتعبني. عمري كله قضيته وأنا أنتظر هذا اليوم كي أقدّم لك ما به.

حملتُ الصندوق مستغربا ثم جلست إلى جانبها أراقب حركاتها. فَتَحَتْه وإذا بها تُخرج منه ثلاث دمى في غاية الروعة والجمال ومنديلا طرّزت فوقه الحروف الأولى من اِسمَيْنَا، ووردتين جميلتين.

قلت لها دهشا:

- وهذه الدّمى؟ منذُ متى وأنت تحبّين الدمى يا آسية؟
- منذ أن تزوجنا، منذ خمس وعشرين سنة يا حبيبي.
- خمس وعشرون سنة. كل هذا العمر وأنا لا أعلم شيئا عن هوايتك المفضلة!

- لم تكن هوايتي يا هابيل، ولكنها كانت وصية جدتي ليلة زفافي إليك. أجل يا حبيبي مازلت أذكر ابتسامتها وهي تمرر أناملها الدافئة على شعري الأشقر الغزير آنذاك وتقول لي هامسة:
- (أوصيك يا حفيدتي الحبيبة كل خير بزوجك حتى وإن أغضبك).

نظرت إليها في استغراب وأنا أكرر الجزء الأخير من جملتها:

- (حتى وإن أغضبني! كيف يا جدتي؟)
- (هم هكذا الرجال، يغضبون من لا شيء ولكل شيء، إنهم كإبريق من الحليب يفيض ثم يعود إلى حالة هدوئه وصفائه وبياضه، إذا ما عرفت المرأة طبعا كيف تحافظ على هذا التوازن وكيف تدرس نفسية زوجها وأولا وقبل كل شيء كيف تتقي الله فيه).
- (وإن لم يكن هو من المتقين لله يا جدتي؟ ما الذي سأفعله أنا؟)
- (كوني أنت من المتقيات وسيجعل لك الله مخرجا من حيث لا تحتسبين).

ثم مدت لي بعد كلماتها هذه، هذا الصندوق الذي تراه الآن وبه ثلاث دمى وقالت لي: (كلما شعرت بغضب شديد من زوجك، بحسرة أو بألم وكلما أحسست يا قرة عيني بأن المناقشة والحديث معه لن يأتيا بنفع، فاذهبي إلى أحد الأركان المفضلة لديك بالبيت وقومي بخياطة دمى كهذه).

نظرت إليها والدموع تملأ عينيّ ثم سألتها:

- (إنها الدمى التي كنت أراك تخيطين في صمت وبكل حبّ عندما كنت طفلة، ولكني يا جدتي لا أفهم، ما عساي أفعله بهذه الدمى؟).
- (نفّسي بها عن غضبك، ألا تحبين الدمى مثلي يا آسية، أم أنك نسيت عشقك لكل الدمى التي كنت أخيط ولا ترغبين في اللعب بسواها؟!).
- (سآخذها يا جدتي، ولكني لا أعتقد أنني سأحتاجها يوما، أو سأحتاج أن أخيط مثلها لأنني على يقين بأن عمري مع هابيل سيكون كله حبّ ونعيم، نحن تزوجنا بعد قصة حب رائعة وشديدة الرومانسية ياجدتي).

استمعت إلى قصة هذه الدمى بشغف وما إن أنهت آسية حكايتها عن جدتها حتى بادرتها بالسؤال:

- هي إذن دمى الجدّة فاطمة؟
- لا يا حبيبي، دمى جدتي كنت قد أهديتها لبناتنا الثلاث، لعبن بها واشتريت لهن دمى أخرى غيرها كثيرة. هذه الدّمى من صنعي يا هابيل.

ابتسمتُ في ارتياح ورضا وقلت في نفسي، الحمد لله أنهن ثلاث دمى، هذا يعني أنني لم أغضب زوجتي ولم أقهر نفسها سوى ثلاث مرات طيلة كل هذه الخمس وعشرين سنة، وبينما كنت هكذا في تفكيري إذا بي أراها تمدّ إلي كيسا صغيرا من ثوب ناعم فسألتها:

- وما أمر هذا الكيس يا ترى؟
- إنه كان مع الدمى، افتحه وستعرف ما بداخله.

فتحته وإذا به مليء بأوراق نقدية كثيرة.

- عدّها يا هابيل. قالت في صبر وهدوء.
- إنها عشرون ألف درهم يا آسية.
- أجل، عشرون ألف درهم، أتعرف ما هذه النقود يا هابيل؟

إنها ثمن كل الدمى التي بعت خلال سنوات زواجنا.

نزلت عليّ كلماتها كالصاعقة وإذا بذاك الكمال والشعور الجميل بالراحة الذي انتابني قبل قليل يتحول إلى نقصان وندم لم أفق منهما إلا على كلماتها وهي تضيف قائلة:

- إنها كلها لك يا حبيبي، كنت دائما أحلم بأن أصرفها في القيام معك برحلة شهر عسل ثانية إلى أرض لا ضجيج فيها ولا تكنولوجيا ولا سياسة ولا أيّ شيء من هذه التفاهات التي تشغل بال الناس اليوم، ولكن لم يكن ليخلد ببالي يوما بأن الله كان قد اختارني في غيبه كي يمتحن حبي له وتقواي بهذا المرض الذي قادني الآن إلى هذه اللحظات العصيبة من الاحتضار بين يديه. لا تهتمّ للدمى حبيبي. أنا كنت أصنعها ليس فقط كي أنفّس عن لحظات غضبي منك، ولكن كنت

بالأساس أتعلم من خلالها كيف أحوّل الغضب إلى حبّ وكيف أتفهّمك، وأشاركك لحظات مخاض الحياة خارج البيت، في العمل وفي الشارع، لذا، فإني سأكون سعيدة إذا ما استعملت هذه النقود في أعمال خيرية أو في مشروع بسيط يصل روحك بروحي وأنا هناك.

بكيتُ كثيرا ولم أشأ النهوض من جانبها وقررتُ أن أنام قربها الليلة حتى أخزّن لحظاتها الأخيرة معي بكل تفاصيلها وذاك ما كان بالفعل. نمت بجانبها حتى الصباح، استيقظتُ أنا ولم تستيقظ هي. كان نومها أبديا.

رفعتُ يديّ من على جبينها ثم خرجتُ بعد ذلك وراء النعش وقد رافقنا حشد غفير من الناس والأهل. مرّت أيّام عصيبة عليّ بعدها لم أفق منها حتى نفّذت وصية زوجتي الحبيبة: فتحتُ بنقود الدمى ناديا لهاويات ومحبات خياطة الدمى التقليدية وأسميته "الوجود، إبرة تخيط" وهو ما زال مفتوحا حتى اليوم وتزوره نساء من كل الأعمار، والجديد فيه أن محبيه هم في تزايد كل يوم وليسوا نساء فقط بل فيهم أيضا الرجال: أولئك الذين يحبون أن يتعلموا كيف أن الصبر في الحياة فن ومهارة سامية وراقية. وليس كل هذا فحسب، فقد فتحتُ له مؤخرا موقعا على الشبكة وأسميته "دمى زوجتي دوت كوم"، يمكن لكل من يحبّ تعلم فن الحياة أن يتصفحه ويتصل من خلاله بنا.

(٧)

أنا رع

هي الصبية التي لا تنام من الليل إلا قليلا. هي القبس الذي أشرق فوق فوهة بركان نائم ونطق كالزهرة البرية بين الصخر والعشب فافتتنت به الرياح والرمال وجدائل الشمس. بل هي الغصن المتعبّد الذي خرج إلى الوجود ولم يجد يدا بشرية حنونة تربت عليه ولا عينا تغدق عليه بنظرات المحبة والرحمة والأمان. هي الرضيعة التي وجدها أهل القرية وحيدة فوق الجبل وسط قماط من ثوب أخضر فأخذوها إلى السفح حيث كبيرهم كي يستشيروه فيما هم صانعوه بها. قال لهم: «سمّوها سلاف. ألم تقولوا إنكم وجدتم الدّم سائلا من سرّتها والدمع من مقلتيها الصغيرتين؟ فلتكن سلاف إذن وأوكلوا أمرها إلى أمينة الأعمال ببيتي، علّها حينما تكبر تساعدها في أشغالها وأمور حياتها».

وكبرت سلاف مع دجانة، المرأة التي أذاقتها من القسوة والقهر أشكالا وألوانا، إذ لم يكن من عمل شاق على جسدها الصغير إلا وأمرتها بالقيام به، ولم تكن الطفلة تتحرر من بين براثنها إلا حينما كان الليل يرخي بسدوله على القرية. نعم، هو وحده الليل الذي كانت تحبه سلاف الصغيرة، هو وحده الليل الذي كانت تستطيع فيه أن تلتقى وتنفرد بحبيبها ذي الصوت الرّنّان والحُسن الفتّان والرفقة الشجية. أجل فسلاف كان لها صديق يزورها كل ليلة في غرفتها المظلمة والفقيرة والخالية من كل أسباب الترف والراحة، صديق كان يقول لها إنه يأتيها بأمر من الخالق الذي أعزها بالميلاد فوق قمة جبل، وأذلّ بها أهل القرية حينما أنزلوها لتعيش بين ظهرانيهم في السفح حيث مرارة الظلم والاستعباد.

الصواع، هو حبيب ورفيق سلاف الذي كان يأتيها في كل ليلة بقصة وحكمة ولحن ولون. وفي كل ليلة بعد صلاة العشاء مباشرة كان يبدأ في مسامرتها حتى قرب طلوع الفجر. وفي كل ليلة كان يأتيها بشكل وبلون وبلباس مغاير ومخالف عن الليالي السابقة، فتارة يأتيها ذهبيا برّاقا مرصّعا بالزمرد واللؤلؤ والمرجان والياقوت، وتارة فضيا

مزينا بالنقوش والزخارف، وتارة حديديا خاليا من أيّة بهرجة وزينة، وتارة خشبيا أو زجاجيا لا شيء فيه . لكنه كان يطربها دائما بصوته الرنّان ويقول لها معلنا في كل مرة عن قدومه:

- رّنْ تكْ رّنْ تك رّنْ....أُمْ أمْ أمْ... رّنْ تكْ رّنْ تك رّنْ

ويفرح كل طفل نفخ البارئ فيه الروح كانت سلاف تجيب بصوت ملائكي:

- من الطارق؟ من الرنان؟
- أنا حبيبك ياسلاف، أنا رع، أنيس ليلك ووحشتك ووحدتك. أنا شمسك الحمراء وصواع مَلك الملوك، رهن يدك وإشارتك.
- كم أنت جميل الليلة ياصواع ملك الملوك! وما كل هذا الذهب وهذه الجواهر المرصوصة فوق حواشيك؟
- كلها لك بل كلّي لك يا صغيرتي، وقد لبستُ الليلة وتزينت بكل هذا كي أنسج معك بخيوط هذا الليل الأزرق قصة تبقى خالدة ما دارات الأيام والسنون.
- وأنا معك يا صديقي الرنّان، هيا اسمعني ودعنا نمتع كل من سيسمعنا ظاهرا وكامنا.

ثم بدأ الصواع في الرنين والرقص وقال:

- أعلم يا صغيرتي، أنك كبرت في كنف الرحيم الودود الحبيب، وأنه علّمك من أدبه وحكمته الكثير والكثير، فلتخبريني الآن يا زهرتي البرية عن ذاك الشيء الذي يُجنُّ من أجله البشر ويقضي العمر كلّه باحثا عنه؟
- المال.
- نعم لكن ثمة شيء آخر يسعى إليه غير هذا؟
- البنون والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة.
- ثم ماذا؟
- ربما اشتهاء النساء، أو ربما السلطة وامتلاك الأرض والعباد.

- شيء آخر يا سلاف أهمّ من كل هذا؟ قولي لي، لمَاذا يسعى الإنسان إلى كل هذا، ما الذي يبغي تحقيقه؟
- ذاته وغروره وتفوقه وربما جنونه.
- أنت تقتربين من الجواب...هيا فكري جيدا.
- كي يكون سعيدا.

ثم جُنّ الصواع من الفرح وسقط أرضا وهو يرنّ بكل قوة وابتهاج:

- رّنْ تكْ رّنْ تك رّنْ....أْمْ أمْ أمْ... رّنْ تكْ رّنْ تك رّنْ

أجل، إنها السعادة. الإنسان كل همّه أن يجد السعادة، ثمة من يعتقد أنها في المال فيقضي عمره في جمعه بكل الوسائل والطرق، وثمة من يعتقد أنه بهذه الأموال يمكنه أن يصل إلى كل شيء: إلى الجاه والسلطة والذرية وشراء قلوب النساء وأجسادهن، فهل تعتقدين أنت يا سلاف أنّ المال هو الطريق المؤدية إلى السعادة؟

- لا.
- لماذا؟
- لأن الإنسان يبحث عنها في الاتجاه الخاطئ.
- وهل تعلمين أنت الاتجاه الصحيح؟
- نعم.

توقف الصواع عن الرنين والرقص ثم قال في حزم:

- أين يا سلاف؟
- أعلم فقط أين توجد سعادتي. إنها في القرب منك.
- ثم ماذا؟
- أقصد في القرب ممّن يرسلك إلي.
- وهل تعرفين أين يقيم من يرسلني إليك.
- في السماء.
- وهل تعرفين أين توجد السماء؟

ثم رفعت يدها الصغيرة وأشارت نحو النافذة:

- إنها هناك في الأعالي.
- وهل تعرفين أين توجد سماؤك وأعاليك وسماء الناس وأعاليهم يا سلاف؟
- لا.
- إذن تعالي بقربي وانظري بداخلي وقولي ما ترين؟
- أرى دما وطينا، وأرى قلبا حيّا نابضا ثم ياقوتة حمراء متوهجة.
- إنها سرُّ الإله الذي أحمله إليك الليلة يا سلاف، إنها السعادة التي يُجنّ من أجلها كل البشر، هيّا خذيها بين يديك واقترحي عليّ مكانا نخبؤه فيها، على أن يكون مكانا لا يخطر على بال جن ولا بشر، حتى لا يتم العثور عليها بسهولة.

لمعت عينا سلاف وبدأت في التفكير وبيديها الصغيرتين حاولت أن تمسح عن جبينها ما علق به من تراب النهار وغبار العمل والإجهاد ثم قالت:

- لندفنها في السّماء أو في البحر أو تحت الأرض.
- سيخترع الإنسان ما لا يخطر على بال أحد من الوسائل حتى يصل إليها سواء أوضعنا الياقوتة في الجو أو تحت التراب أو المياه. وسيجدها وسيتجبّر بها يوما بعد يوم ويسحق بقوتها كل من حوله.
- أين إذن، لا أعرف مكانا آخر غير ما ذكرته لك؟
- هيا اقتربي مني مرة أخرى وجدّدي النظر بداخلي وقولي ماذا ترين؟
- أرى دما وطينا، وأرى قلبا حيا نابضا.
- حيث الدم والطين ونبض القلب سندفن سرّ الله ومعه الجزء الطاهر النقي من كل إنسان.

حيث الدم والطين ونبض القلب ستقيم سعادة البشر ياسلاف، السعادة التي سيبحث عنها الإنسان في كل مكان بالأرض وبالسماء، وفي أعماق البحار، وفي الجبال والصحاري وسيسخّر من أجلها العلم والمال والقوة والجيوش الجرارة والسلطة غافلا البحث عنها في المكان الوحيد الأقرب إليه: قلبه، حيث يسكن نفخ

الله. وكلّ سعادة لا تنطلق ولا تصب من وإلى دواخل كل إنسان فهي عبث وهباء يا سلاف. هيّا خذي الياقوتة وادفنيها في قلب البشرية جمعاء بين الدم والطين، يا صغيرتي ويا ليلكة كل زمان ومكان.

قال في جدّ ونفض عنه الدم والطين وأخذ القلب الحيّ النابض ثم أعطاه لسلاف وقال:

- هذا قلبك يا سلاف، حافظي عليه جيدا ولا تدعيه يبرد أبدا. وغدا لنا لقاء آخر بإذن الله. هيّا نامي وارتاحي الآن فلم يبق على صلاة الفجر إلا سويعات قليلات علّها تكفيك للتخلص من تعب نهارك وعنائه.

سطعت شمس يوم آخر واتجهت سلاف مسرعة إلى حقول كبير القرية، فهناك لديها من أعمال الجني والحصاد وجلب الماء ما يجعلها تبقى مقوسة الظهر طيلة اليوم. وقرُبَ المساء وبدأت الشمس تُمشّط خصلاتها الذهبية معلنة ساعة رحليها، وأرسل الليل ابنه البدر الأحمر المكتمل ليشرق على الأرض بنوره الفضي، وعاد الصواع إلى غرفة سلاف وبدأ في الرنين معلنا قدومه وبداية سهره وسمره معها:

- رّنْ تكْ رّنْ تك رّنْ....أُمْ أمْ أمْ... رّنْ تكْ رّنْ تك رّنْ
- من الطارق؟ من الرنان؟
- أنا حبيبك ياسلاف، أنا رع، الطائر الذي يحمل في جيب صدره الزاد لكل الناس، أنا البجع الذي يمزق قلبه بمنقاره كي يموت هو ويعيش غيره. أنا ريشك، أنا جناحك، أنا أنت يا سلاف.
- قضيتُ اليوم كله في الحقول أفكر فيك يا حبيبي، أفكر في ياقوتة السعادة وأفكر في ماستحمله لي الليلة من جديد، لكن مهلا يا بجعة روحي، أراك اليوم صواعا كبيرا من زجاج شفاف خزاميّ اللون، ما عساك تريد أن تقوله لي بمنظرك الجديد هذا؟
- الكثير الكثير. هيّا اقتربي مني ودعينا نجلس فوق هذا الحصير واغمضي عينيك للحظات، لأن لك بجيبي هدايا ثمينة.

مرت لحظات قصيرة من الصمت ونبضات قلب سلاف تتسارع من شدة الفرح.

- هيا، يا صغيرتي افتحي عينيك الآن.
- يا الله ما كلّ هذا؟ طبق من تين أسود وصحن من عنب أبيض وطبق آخر من طحين نواة التمر، وكأس من عسل مصفى. أكلّ هذا لي يا حبيبي؟
- أجل، كُلي من كلّ طبق ما يحلو لك. وبعدها انتبهي إلى ما أنا فاعله:

وبينما هي منهمكة في لعق العسل العالق بسبابتها، إذا بها ترى الصواع يأخذ ما بقي من حبات التين الأسود ويضعها بداخله:

- لماذا وضعتَ التين بداخلك يا طائري الناري؟
- لكي تقولي لي هل امتلأتُ أم لا؟
- نعم، لقد امتلأت وهذا يظهر جليا عبر زجاجك الخزامي الشفاف.
- وهل أتّسع للمزيد؟
- لا، فقد امتلأت عن آخرك.
- لا، ما زال بداخلي متسع للكثير، هيّا خذي حبات العنب وضعيها بداخلي.
- هاهي الحبات بداخلك.
- هل امتلأتُ؟
- نعم، ولا أظن ثمة مكان لأيّ شيء آخر
- جرّبي ولن تخسري شيئا يا سلاف، ضعي طبق طحين نواة التمر بداخلي.
- ها هو الطحين بداخلك.
- هل امتلأتُ؟
- هذه المرة بشكل نهائي.
- لا يا سلاف، أضيفي كأس العسل.
- إنه شيء مستحيل سيفيض منك كل شيء.
- طاوعيني وجرّبي.
- وهاهو سائل العسل الأبيض بداخلك أيضا.

- أرأيتِ أن بداخلي مُتّسع لكل شيء! لكن ماذا لو كنتُ وضعت من البداية طبق طحين نواة التمر ثم سائل العسل ثم حبات العنب ثم التين. من المؤكد أن ذلك كان سيكون من رابع المستحيلات، لأنه لن يكون بداخلي مكان لأيّ شيء بعدَ أن يكون طحين نواة التمر قد ملأ أزيد من نصف سعتي، أليس كذلك؟
- طبعا هذا أكيد.
- هيا اقتربي الآن من ساقي واقرئي ما نقش فوقها.
- وما خلقتُ الجنّ والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون.

نظر الصواع بتعمق وتأمل إلى الصغيرة مستمعا في عشق إلى طريقتها الفصيحة وإلى صوتها الدافئ الذي قرأ عليه هذه الأحرف الخالدات ثم قال لها وقد شاب نبرات صوته شيء من الحزن واللوعة:

- أنا يا صغيرتي وعاء الكون الرباني، والأحرف المنقوشة على ساقي هي عماد هذا الكون، إذا حُذفت أو ألغيت يفقد الكون توازنه. هي الأساس إذن، وبعدها تأتي الأشياء الأخرى بالتدريج، البالغة الأهمية أولا، ثم المهمة، ثم الأقل أهمية وهكذا دواليك. عليك أن تحفظي هذا جيدا يا سلاف، فالحياة أولويات لا تنتهي. هناك مثلا منِ الأسرةُ هي أهمّ أولوياته ويمكن تشبيهها في هذا الصدد بحبات التين الأسود، بعد ذلك تأتي شواغل الحياة الأخرى من عمل ودرس وتحصيل ويمكن تشبيهها هنا بحبات العنب وطحين نواة التمر.
- ماذا عن سائل العسل إذن؟
- إنه يمثل شواغل من درجات أخرى، كمثلا الذهاب إلى فسحة قرب نهر، أو الذهاب إلى لقاء قريب أو صديق.

قال الصواع بصوت متشنج وقد تحول إلى طائر بجع كبير فزعت منه سلاف.

- لا تخافي يا صغيرتي، هيا اقتربي مني، فأنا نفسه صواعك وطائر بجعك، لا تفزعي.

قال وقبّلها بمنقاره الكبير فوق جبينها وحضنها تحت جناحيه الدافئين ثم أكمل:

- إنها ليلة الفراق يا سلاف، لن أزورك بعد الليلة يا صغيرتي. أجل، الآن وقد علّمتك كل شيء، يمكنك أن تعيشي حياتك وكلك قوة وطاقة وصلابة وقدرة على مواجهة أمواج هذا البحر الهائج الذي هو الدنيا، وكوني على يقين أنك لست وحدك ولن تكوني وحدك إلى أبد الآبدين وإلى أن يشاء لك الله لقاءك بأمّكِ.

رفعت سلاف عينيها الدامعتين وسألت في استغراب:

- وهل تعرف أينها أمي؟
- طبعا، إنها هناك في الجهة الأخرى من الجبل، حيث توجد قرية يحكمها سفيه فاسق، رأى أمّك فتولّه بها، وقام بكل شيء كي يأخذها غصبا من دفء أبيك. الأب المسكين الذي لم يكن له من ذنب في هذه الحياة سوى فقره وحاجته وقلة حيلته، الأب المسكين الذي خشي عليك من أن يُرسل الحاكم الفاسق من يخطفك أنت أيضا كي يسترضي قلب أمّك المكلوم، ففرّ هاربا بك إلى الجهة الأخرى من هذا الجبل الكبير ووضعك قرب فوهة البركان داعيا من الله أن يتكفلك ويحسن مثواك ثم عاد كي يعيش في نفس القرية على أمل أن يأتي يوم يستعيد فيه زوجته وحبيبة روحه.
- ومتى سألقى والديّ إذن؟
- حينما يعود لبركان الجبل هديره وغضبه، وحينما تصيرين أنت أيضا طائر بجع كبير مثلي.

قال طائر البجع وغرس منقاره في عنقه مخرجا زمرّدة خضراء وضعها في جوف سلاف قائلا لها:

- هذه أنا بداخلك، لن تشعري ببعدي عنك ولا ببعدك عن والديك. هيا اذهبي الآن إلى النوم وارتاحي قليلا فلم يبق على صلاة الفجر إلا سويعات علّها تكفيك للتخلص من تعب نهارك وعنائه.

قال البجع ثم طار عبر النافذة حيث الأعالي البعيدة الغارقة في الأمل والزرقة.

الفصل الخامس
ذكرياتُ قنطور

(١)

كل عام وأنت بخير يا صديقي المغربي

أراه جالسا إلى جانبي، هُو؛ فوق أريكة خضراء اللون، وأنا؛ في مهدي الطفولي الخشبي البنّيّ اللون. وفي الصالون نفسه أرى والدَيّ وأصدقاءَهُما الذين أتوا من أجل الاحتفال معهُما بقرب انتهاء آخر يوم من السنة الماضية وحلول سنة أخرى جديدة من عمرهم وعمر الإنسانية جمعاء. وأنا مثلهم وإن كنت لمْ أودّع رحم أمي إلّا منذ ثلاثة أشهر مضت، إلّا أنني كنتُ معهم في هذا الصالون، أنتظرُ قدومَ العام الجديد دون أن تغفل عيني عن هذا الرجل الجالس إلى جانبي.

لقد أثار الكثيرَ من فضولي بشكله الغريب وملابسه الأغرب، فأنا لمْ أر مثله قبل اليومِ أبدا في بيتنا، ولا في حيّنا ولا وسط الناس والأهل الذين كانوا يأتون سابقا لزيارة أمّي وتقديم تهاني خروجي إلى الوجود. وكما كنتُ أنظر إليه في دهشة واستغراب كانَ هو أيضا يبادلني النظرات والابتسامات نفسها، وظللتُ هكذا أطيلُ إليه النظرَ وظلّ هو أيضا يبادلُني كلامَ الأعين ومعاني الابتسامات إلى أن تجاوزنا حواجز اللغة والهويّات ودخلنا إلى مدارات كلام الأرواح والقلوب، فإذا به يعرفُني وإذا بي أعرفُه. فطال الكلام ودار بيننا حديث ذو شجون.

قال لي إنه تعّرف عليّ بقلبه، وقلتُ له إنني أيضا عرفته أخاً لي في الإنسانية وإنني استند في كلامي معه على حواسّي التي علّمَها الله منذ الأزل ما لم يعّلمهُ لغيرها من المخلوقات من أشياء مازالت مزروعة في صلب كل ذرية آدم. أجل، هذا ما قلته له، فوجدتّه يتجاوب معي بكل أريحية وطلاقة ويسألني عن اسمي وعمّا أفعله في هذه الساعة من الليل هنا، فقلت له بكل بساطة لغة الصمت:

- والدتي أسْمتني «ليوناردو» وأنا من بلدة إيطالية صغيرة اسمها «لاريني»، وأتواجدُ هنا لأنني مثلَ بعض الرّضع في العالم أنام نهارا ولا يطرف لي جفن بالليل. وأنت مااسمُكَ وما الذي تفعله هنا في بيتنا؟

- أنا اسمي عبد القادر، فقيه أدرّسُ القرآن والحديث في إحدى أكبر مدارس قريتي التي توجد على بُعد بضعة كيلومترات من مدينة فاس؟
- فاس؟ وأين توجد؟
- في دولة كبيرة، عريقة التاريخ والأصل اسمها المغرب، وهذا يعني أنني مغربي، وأنك يا صغيري إيطالي.
- إذن فهذا الذي ترتديه من الثوب الغريب، يمكنني أن أقول عنه إنه لباس مغربي؟ كم هو جميل حقا بزخارفه ونقوشه يا سيدي عبد القادر!
- ما رأيك أن تناديني بالحاجّ يا صغيري "ليوناردو"؟
- وهل هذا يعني أنّ الحاجّ هو اسم آخر؟
- لا يا صغيري ولكن الأمر يتعلق بلقب يعطى لأيّ شخص ذهب لزيارة بيت الله الحرام، حيث مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام .
- أتتحدث عن إبراهيم الخليل؟ فأنا أعرفه، أعرفه جيدا، إنه أب التوحيد والوحدانية.
- هل تؤمن أنت أيضا مثلي باللّه الواحد الأوحد الأحد حتى وإن كنت إيطاليا؟
- وهل ثمة في رأيك إله للإيطاليين وآخر للمغاربة وآخر للفرنسيين وآخر لأبناء السّند والهند؟ ألا تعلم أننا من خلْق إله واحد وأننا جميعا شئنا أم أبينا، نؤمن بالله الأحد الصمد وإن تعددت الأشكال والأفكار والعقائد؟ أما زلتَ لمْ تفقه بعد أنّ من جعلني أتكلّمُ معكَ عبر لغة الصمت وإن كنتُ رضيعاً هو نفسُه الذي جعلك تفهمني وتتحدثُ معي وإن كنتَ من بلد آخر؟
- سامح غفلتي يا صديقي «ليوناردو»، لعلّها أسئلتك حول لباسي هي التي أنستني التركيز على كثير من الأشياء والنقط.
- نعم يا حاج، لقد أنسيتني أنتَ أيضا أنْ أسألكَ عنْ تفاصيلِ لباسِكَ، حدثني عنهُ شيئا ما يا صديقي؟

- هذا يا صديقي، اسمه الجلباب المغربي وهو عادة ما يكون حسب فصول السنة إمّا من الصوف أو من ثوب «المُلْفْ» الناعم، أو من القطن الخالص وتختلف أشكاله حسب مناطق المغرب، وأجود أنواع الجلباب هو الذي يصنع بالطريقة اليدوية، والفاسي يعدّ من أفخره، أما الجلباب «البزيوي» فهو بلا شك من أشهره، أمّا هذا الذي يوجد بالداخل فاسمه القفطان وله عنق بحاشية مطرّزة بتطريزات مغربية عتيقة، وهذا السروال الفضفاض الذي ترى فاسمه «القندريسي» وهو عريضٌ من الأعلى وضيق عند الركبة أو الكاحل ولهُ جيوب جانبية عريضة هي الأخرى، وتحت الجلباب مباشرة توجد «الشكارة» وهي حقيبة تقليدية يعلّقها الرجال على الكتف ويأخذ حزامها مكانه بشكل جانبي على الخصر وغالبا ما تكون مزوّدة بزخارف ونقوش تقليدية جميلة جدّا، وتستخدم عموما لتخزين المال والوثائق وغيرها، أمّا هذا الثوب الرفيع اللامع الأصفر اللون الذي تراه فوق رأسي فهو عمامة وهذه التي بقدمي بَلْغة أو نعل من الجلد الخالص، وكل هذه الأشياء التي حدثتُك عنها مع هذا السلهام الصوفي الذي يغطي الكلّ هي بمثابة بطاقة تعريف بالمواطن المغربي وبلباسه التقليدي الذي كان في يوم من الأيام لباس كلّ المغاربة، والذي مازال يستعمل اليوم في المناسبات التقليدية والدينية والوطنية.
- أعتقدُ أنّ الشيءَ نفسه يا صديقي الحاج حدثَ أيضا في إيطاليا، مع فارق بسيط، أن الناس الذين بلغوا الثمانين من العمر مثلك لا يتمسّكون باللباس التقليدي كما تفعل أنت والدليل على هذا ذاك الشخص المسنّ الذي يجلس هناك على ذاك الكرسي وهو جَدِّي، فكما تراه يلبس سروال جينز، وحذاء رياضيا، ثمّ قميصا صوفيا ومعطفا.
- طبعا طبعا يا عزيزي، إلا أنني مختلف تمام الاختلاف عنه فأنا فقيه وهو لا، والفقهاء في بلدي يرتدون هذا النوع من اللباس وإن كان في رأيك تقليديا.

- وما الذي يعنيه هذا؟ هل الفقيه بلباسه، أم بقلبه وفكره وعقله؟ أنا أيضا جدّي فقيه إذا شئت استعمال لغتك وتعبيرك، أي أنه رجل دين، وأقصدُ الدّين المسيحي.
- الدين الذي أتى به السيد المسيح عليه أفضل صلاة وسلام، سيدنا عيسى؟
- أجل سيدنا عيسى، ألم تكن قبل قليل تنظر إلى التمثال الذي بجانبك وتلمسه بأصابعك بين الحين والآخر وتنظر باستغراب شديد إلى التمثال الآخر الذي يمثّل السيدة العذراء؟
- أتريد أن تقول لي إن هذين التمثالين هما للسيدة العذراء وللسيد المسيح؟ أتمزح يا صديقي، أم أنك أنت أيضا صدّقتَ حُمق والدَيْكَ واقتناءهما لهاتين الدُميتين الحجريتين واعتبارهما لهما السيد المسيح وأمّه العذراء؟ إنها لعمري قمة الغباء، من قال إن السّيد المسيح كانت له عينان زرقاوان وشعر أشقر مثل عيني وشعر هذه اللّعبة الحجرية؟ ومن قال إن هذه الدمية ذات الأظافر الملوّنة بالطلاء الأحمر الفاقع كانت تمثل السيدة مريم عليها ألف صلاة وسلام؟ إنّها دمى، مجرد دمى!
- إنها اعتقادات الناس البسطاء يا صديقي الحاج، إنها أفكار الناس عن الله وعن العالم الآخر. لا تحاكمهم يا صديقي بعقل ابن آدم وبقلبه المحدوديْن، ولكن انظر إليهم بعين الله وقلبه اللامحدودين، لا تحاكمهم يا صديقي الحاج بمنطق عدالة الأرض وأهلها ولكن حاكمهم بمنطق الله وعدالة أهل السماء وخُدّامها.
- هل هذا يعني أنه أنا أيضا كان عليّ أن أصنع دمى كبيرة من خشب وأُلبسَها لباسا عريضا بأجنحة زرقاء كبيرة تسَعُ السماء وأعتبرها إلها لأنني هكذا كنتُ أتصور الله وأعتقده عندما كنت طفلا؟ فأنت كما ترى يا صديقي لم أفعل شيئا من هذا، ولم أحدّ الله يوما في ثوب أو قماش، أو في خشب أو حجر، لأنه لايُحدُّ ولا يُمثّل.

- لا تغترّ يا صديقي الحاج، واحمد الله الذي هداك إلى هذا ولم يجعلك ممّن لم يهتدوا إلى ما يخالفه، فالناس هنا يا صديقي تُمثّل الله وترمز إليه في الحجر والخشب والمعادن، لأنها تنطلق من فكرة دينها عن الله، وفكرة المؤسسة الراعية لهذا الدين عنه وعن مريم وعن الملائكة وغيرها من أهل السماء.
- الذي أعرفه أنّ المسيح للجميع وليس حكرا على أحد، انظر إلى أبيك كيف يحتفل بالمسيح؟ انظر إليه كيف يشرب ويأكل ويسكر ويضحك ويرقص مع ضيوفه، بل انظر هناك إلى تلك السيدة العجوز إحدى ضيفات والدتك كيف اختارت لنفسها أن تحتفل بالمسيح في هذه الليلة وقد عرّت جسمها المترهّل كله وحشرت ثدييها في قميص ضيق لا يغطي منها شيئا، وفخذيها في قطعة ثوب أسود لا يغطي من ساقيها شبرا، وانظر إلى عمّتك في الطرف الآخر من الصالون كيف تّدخّن بشراهة وقد التصقت بالتلفاز وتغيّر قنواته بين الثانية والأخرى، وانظر إلى ابنتي التي أتيتُ هنا برفقتها وزوجها الإيطالي وقد سكرت حتى الثمالة وهي المسلمة! وانظر ثم انظر ثم انظر، ألهذا جاء المسيح، أهكذا يُحتفل بميلاده في كل الأرض، أبالخمر وبالرقص وبالفحشاء والمنكر وهلع وفجع البطون والعقول؟
- أتريد أن تقول لي إن عائشة زوجة «إنريكو» هي ابنتك؟
- أجل يا صغيري، أنا هنا، لأنها لم تشأ أن تتركني لوحدي في البيت، أنا الذي جئتُ لزيارتها والاطلاع على أحوالها في بلد الغربة وليتني ما جئت وما تركت المغرب، وجدتها تسكر وتدخن وتعربد وزوجها بالليل والنهار بدون خجل ولا حياء، إنّها صارت مثل الناس الذين تعيش معهم، تبنّت أفكارهم وطريقة عيشهم، وما زلتُ حتى الآن ياصديقي لا أجرؤ على الحديث معها بأيّ شكل من الأشكال عن كلّ ما رأيته منها. احترق قلبي وشُلّ عقلي ولا شيء، لا شيء أستطيعه لها وهي المرأة والأمّ لأربعة أطفال، أكبرهم يبلغ من العمر عشرين سنة. وقعت الفأس في الرأس يا صغيري ولا شيء أمامي أقوم به

سوى أن أنتظر أن تمضي هذه الليلة الملعونة كي أعود بعد غد إلى بلدي وأنسى أن لي ابنة ربّيتها في يوم من الأيام على العفة والخلق الحسن.

- ادع للناس بالهداية يا حاجّ، ربما تصير ابنتكَ في يوم من الأيام أحسن مني ومنكَ، ومن يدري ربما أطهر منك ياشيخ، إنها الحياة ياصديقي، لها مقامات تتحول ومدارات تتحرك ونهايات تستقر إلى الأبد على الصلاح والفلاح.
- أعلم ياصغيري وأعلم أنك أنت أيضا، يا من تخاطبني هذه اللحظة بروح البيان وبراءة القلب وطفولة المعرفة، ستصبح في يوم من الأيام من أكبر منظّري الإلحاد والعلمانية، بالرّغم من أن روحك كروح أيّ شخص وأيّة ذرة في هذا الكون تحمل كل آيات الولاء والطاعة لبارئها وإن كانت المادة من أجساد عديدة تعلنُ العصيان والتمرد على صفاء الروح والمبدأ.
- سعدتُ بمعرفتك ياصديقي المغربي عبد القادر، حاول أن تعتدل في جلستك ولا تطل كثيرا النظر إلى سريري الخشبي وإلّا انتبه إليك الجميع على الرغم من سكرهم وعربدتهم، ساير الناس يا سيدي وابتسم فبعد ثوان ستدقّ الساعة معلنة الثانية عشر ليلا وسيحلّ العام الجديد، وكل سنة وأنت بألف خير، ولا تنس طبعا أن تحمل عند عودتك، تهاني هذا الرضيع الإيطالي الصغير، إلى جميع أهلك وأبناء بلدك المغرب الحبيب الذي سيكون له فيه عند كبره أصدقاء من كبار رجال الفكر والسياسة، وليَطب يومك يا صديقي وكلّ أيام عمرك.

(٢)

الناسك الأزرق

(أ)

أرض الحلم

يا أرض الحُلم ومرتع الصبا، يا حضن الدفء والأمومة، يا ترابا قدسيّا علّمني أنْ أحبَّ وأحترقَ وأذوب، وعلّمَنِي كيف تنصهرُ بدواخلي الزرقة بالحُمرة، وكيف ينبلجُ البياض من سواد الأرواح وظلالها. لا أحد استطاع أن يفعل بي هذا سواك، يا"مغرب" البهاء، وأرض الشّمس والقمر، فهل تتذكّرُنِي؟ هل تتذكَّرُ ذاك الطّفلَ الذي جاءَكَ بقلب تقف على أغصانه طيور تخرجُ من مناقيرها أشعار "دَانتِيَّة" وألحان "فيرْدِيّة" وتزيّنُ ريشَها ألوانٌ "دافينْشيَّة"، كي تشهدَ بهذا كلّه على ذاك التّراب الذي منهُ خرجتُ، وقد امتزجتْ فيّ الخضرةُ بالماء والنارُ بالهواء؟

أجل، أعرف أنّكَ تتذكّرُ هذا الطّفلَ الإيطالي الأصل والجذور الذي شبّ وترعرع بين جبالك وسهولكَ، وشربَ منْ مياهكَ وتشبّعَ بملوحة بحارك، فلتفتحي لي ذراعيْكِ يا أمّاً معطاءة، ولتحتضني قلباً ينبضُ بالمحبّة والشّوقِ إليكِ، ولتدفئي هذا الصبي الّذي صار اليوم كهلا وعادَ إليكِ بعد ثلاث وثلاثين عاماً من الغياب وقد اشتعل رأسُه شيبا وحفر الزمن بوجههِ أخاديد رفيعة تشهد على ثقلِ سنواته الستين التي عاشَهَا بعيداً عنكِ.

آه، ما أحلى العود إليك! وأحلى منه الرّجوع إلى أماكن الأحبّة والأصدقاء، فأنا مازلتُ أذكرهم جميعاً وأتذكّر بالذات ذاك الناسك الأزرق، أتتذكرينه أنتِ أيضاً؟ ذاك الابن الذي أخبرتني عنهُ ذات فجر أنّه من أقرب الأبناءِ إلى روحك: إسماعيل، فتى الصحراء الذي كنتُ أذهب للقائه بخيمته الغارقة في لهب الرمال وسكينة الليل.

كان هذا الرجل، أولَّ من تعرّفتُ إليهِ في تلك الفترة البعيدة من حياتي، كنتُ ساعتها طفلا لم يتجاوز الثانية عشر عاما من عمره، لا أعرف من اللغة العربية شيئا ولا من الدّارجة المغربية حرفا، ولا من لهجة الحسّانيّين نُطقا، فكلّ شيء بكِ يا صحراء

المغرب كان آنذاك جديدا وغريبا بالنسبة إلي ولأبي تومّازو الذي قدم إليك رفقة والدتي إليونورا من أعماق مياه مدينة البندقية ليكمل دراسته وأبحاثه التاريخية والحفرية كعالم جيولوجي بين كتبانك وبناياتك الأثرية المغرقة في القدم. ومازلتُ أذكر أيضا ذاك اليوم الذي كنتُ قد رافقتُ فيه والدي أثناء إحدى رحلاته الصحراوية، حينما استطعتُ وفي غفلة منه أن أبتعد وأمّي عن المكان الذي كان منهمكاً في دراسته كي نجد أنفسنا أمامَ خيمةٍ زرقاء اللّون وبجانبها قد وقفَتْ شامخة أشجار نخيلٍ حبلتْ عراجينها بتمر لمْ أذُقْ في حياتي كلّها ألذّ ولا أطعم منهُ. أذكرُ أنني وقفتُ منبهراً بالمكان وبتلك السكينة التي كانت تلفّهُ والتي لم أفق منها إلا على صوت والدتي وهي تقول:

* Andiamo via da qui Giacomo, sembra che non ci sia nessuno. La tenda è vuota!

[هيّا جاكومو لنرحل من هنا، يبدو أن المكان خال، ولا أحد يوجد بالخيمة!]

*No, mamma, aspettiamo un altro poco, potrebbe venire la persona che abita qui, vorrei chiederle di donarci un po' di questi datteri neri giganti e deliziosi.

[أرجوك يا أمّي، لنبق قليلا، من يدري ربّما يأتي الشخص الذي يسكن الخيمة وهكذا نطلب منه بعضا من هذا التمر الأسود الكبير الحجم واللذيذ].

لم تصغ أمّي لكلماتي، وبدت كأنّها توجّست من المكان خيفة فعادت بي مسرعة إلى حيث أبي وفريق عمله. وحينما وصلنا إلى بيتنا تناولتُ وجبة العشاء وذهبت مسرعا إلى غرفتي الصغيرة طالبا للنوم، متحجّجا بالتعب والإرهاق، ومخفيا رغبتي في الاختلاء بنفسي والتفكير في تلك الخيمة التي سحرتني بلونها وبالرمال المحيطة بها وبالتمر المتساقط من نخيلها وكأنه بيض أسود كبير يتحوّل داخل الفم إلى عسل أبيض بمجرد أن يلامس اللّعاب جوانبه.

(ب)
إبريق الشاي

أشرقت شمس الغد دافئة وحنونة وخرجتُ إلى حديقة البيت أتناول وجبة الإفطار مع والدَيَّ، إلا أنني على غير عادتي وبعد أن ذهب الجميع، بقيتُ متسمّرا في مقعدي أراقب في خلسة أشعة الشمس الذهبية وهي ترسم فوق طاولة الأكل حروفا لم ينتبه لها أحد غيري، كانت أحرفا صغيرة تبرق على إبريق الشاي الفضيّ وتقول لي بالإيطالية:

*Mi hai davvero onorato con la tua visita d'ieri. Puoi tornare come e quando vuoi e puoi mangiare senza alcuna esitazione dall'uovo nero. La prossima volta ti lascerò anche un po' del latte delle mie caprette, che puoi tranquillamente bere anche se non mi dovessi trovare dentro la tenda blu.

[لقد شرّفتني حقّا بزيارتك لي يوم أمس، يمكنك أن تعود متى تريد ذلك، بل يمكنك أيضا أن تأكل من هذا البيض الأسود بدون أدنى تردّد، وفي المرّة القادمة سأترك لك أيضا بعضا من حليب ماعزي والذي يمكنك أن تشرب منه حتى وإن لم تجدني في الخيمة الزرقاء].

لا شيء كان منَ المُمْكِنِ أن يوقف في تلك اللحظة دقات قلبي المتسارعة من شدة الفرح، كنت أعلم أن حبّي لذاك المكان لم يأت من فراغ، لذا، كنت حريصاً على ألّا أثير انتباه أيّ أحد، وخاصة أمي المغالية في العقلانية والمنطقية والخوف من عوالم الصحراء وما تخفيه من مخلوقات تذكّرني بفرسان المياه الذين كانوا يأتون للعب معي وباقي أصدقاء حيّنا القديم هناك بمدينة البندقية. أجل، مياه نهر البرينتا المحيطة بكل البيوت والتي تعج بأسرار لا يعرف كنهها إلا بعض من أطفال تلك الأرض الذين كانوا يجرون لاهثين وراء نداء القلب والماء، ونداء العشب والغاب، ونداء الشمس والقمر، وأنا كنت واحدا منهم.

وشاء الله وقرّرَ أبي بعد أسبوع مرّ على تلك الحروف الذهبية المنعكسة على الإبريق أن يأخذني معه إلى مكان عمله. كان اليوم عيدا بالنسبة إلي، فأخيرا سأذهب إلى حيث الخيمة والنخيل والتمر الأسود، ومن يدري ربّما تشاء الأقدار وأفهم سرّ تلك الأحرف وهوية من أرسلها إليّ.

وذاك ما كان، ما إن وصلنا حتّى استأذنتُ والدي الذي أصرّ أن آخذ معي الكلب نيرون ناصحا إيّاي بعدم الابتعاد كثيرا، إلّا أنّني طمأنته وأخبرته بقصة الخيمة فقال لي إنّه يعرفها ويعرف صاحبها؛ رجل في الأربعين من عمره وطيب جدا، يرعى قطيعا من الماعز ويعيش وحيدا في هذا المكان. فرحتُ أيّما فرح وتركتُ والدي وذهبت متلهفا للتعرف على هذا الرجل ذي الخيمة الزرقاء. وحينما وصلتُ وجدتُه هناك وكأنّه كان ينتظرني: طويل القامة، نحيف البنية ولكن في قوة عظم، حادّ البصر والبصيرة. اتكأت على جذع أقرب نخلة ووقفت أنظر إليه في دهشة وأسجّلُ في قلبي كل حرف من تفاصيله، بدءا من عمامته البيضاء وجبّته الزرقاء المطرّزة بخيوط فضّية اللون، حتى نعله المصنوعة من ألياف الجلد الخالص. وبينما أنا مأخوذ به وبالصّمت المحيط بهذا المكان، فرّ نيرون من بين يدي وذهب يلاعبه وكأنه يعرفه منذ زمن! ضحك الرجل الأزرق وقال بلغتي الإيطالية:

- جميل كلبك الأسود هذا، هل جئت به من إيطاليا يا جاكومو؟
- أجل، إنه هدية من جدّي ألبيرتو واسمه نيرون.
- وكيف وجدت المكان هنا؟
- جميل جدا، يعجبني فيه صمته وسكينته ونخيله وشمسه وماعزه وأشجاره الشوكية.
- ثم ماذا؟
- ومخلوقاته العجيبة وسماؤه المتلألئة ليلا بكل نجوم الكون.
- وهل تعرّفت في سماء هذا المكان على نجمتك يا جاكومو؟

- لا، ليس بعد ولكنّي ما زلت أبحث عنها. أرى أنّك تعرف اسمي، من أخبرك بذلك؟
- ألم تقرأ رسالتي إليك منذ أسبوع فوق إبريق الشاي؟
- إذن كنتَ أنت، هذا يعني أنني كنتُ محقّا، حينما فكّرتُ فيك لحظتها!
- أجل يا صغيري، ما هي أخبار أكواريتا، ومارينا، وكواراتو؟
- أتقصد أصدقائي، فرسان مياه نهر البرينتا، أتعرفهم؟
- أجل، هم من أخبروني عن وجودك هنا وأوصوني بالاعتناء بك، وهم من أخبروني باسمك أيضا.
- وكيف للماء أن يلتقي بالصحراء يا سيدي...
- إسماعيل، اِسمي إسماعيل
- وكيف للماء أن يلتقي بالرمال، وللّهب أن يتزوج بالبرَد يا سيدي إسماعيل؟
- من جعل من البحر ماء يتفجّرُ من بين حبات رمل، ومن البراكين فوهات تنفجرُ وسط الثلج والموج، قادر على أن يزاوج بين كل المتضادّات في الكون يا صغيري. ثم أمعنِ النظر في نفسك يا جاكومو، ألمْ يخرجْ طينُك من ماء أمّك وأبيك؟ هذا يعني أن التراب يخرج أيضا من الماء، وأن الماء يكمن صامتا وسط الطين، أليس كذلك؟

كم أنا سعيد بلقائك يا جاكومو، فأنت من بين أولئك الأطفال الذين وهبهم الله من العلم الكثير، كلامك قليل وصمتك طويل، وحزن قلبك على رغم صغر سنّك عميق. خذ هذا التمر يا حبيبي وعند وصولك إلى البيت اعصره بين يديك وسترى كيف من السواد يخرج البياض، وكيف يصير التمر عسلا أبيض فيه شفاء من كل داء ومرض. أعطه لوالدتك، أما هذا الحليب الصافي فلك ولوالدك واشكره بالنيابة عنّي كونه سمح لك بالمجيء للقائي.

- سأحاول أن أزورك في المرّة المقبلة يا سيدي إسماعيل فذاك يسعدني حقا ويثلج صدري.
- إن شاء الله يا صغيري، إلى اللقاء إذن.

(ت)

دائرة العسل

عدتُ إلى البيت رفقة أبي وهناك وأثناء تناول وجبة العشاء حدَّثْتُ والداي عن السيد إسماعيل وعن لطفه وكرمه. سعد أبي لذلك وشرب الحليب الذي بعثه له الناسك قبل النوم، أما والدتي فعلى غير عادتها في الاعتقاد بالأشياء الغرائبية، طلبت منّي أن أجلب لها المزيد من هذا التمر في الأسبوع القادم. غمرني تفهّم والديّ للأمر بسعاة غريبة، خاصة وأن أبي أكّد لأمّي مدى طيبوبة هذا الرجل وجمال قلبه وحسن كرمه وضيافته.

ومرّ الأسبوع وذهبت مرّة أخرى للقاء السيد إسماعيل، الذي وجدته في انتظاري وهو في كامل زينته. كان يرتدي ذرّاعة سوداء اللون، واسعة مفتوحة من الجوانب ومصنوعة من ثوب بلمان وقد زُخرفت بنقوش عربية صفراء اللون وتحتها سروال فضفاض يتدلى منه حزام يسمّى بالكشاط، مصنوع من الجلد النّاعم به حلقة حديدية غريبة فضية اللون، وفوق رأسه ثوب أبيض زاد من عينيه اللتين كحّلهما بكحل أزرق داكن جمالا على جمال، جعلني أنتبه ولأول مرّة إلى خضرة لوني حدقتيهما، الشيء الذي دفعني إلى سؤاله قائلا:

- يالله ما أجملك في هذه الأثواب السحرية، وبلون عينيكَ الفاتن! لم أنتبه في المرّة السابقة إلى هذا الجمال السّاحر الذي وهبك إياه الله يا سيدي إسماعيل تبدو كأنك أميرة خرجت من حكايات الرمال وأساطيرها المخبوءة في العدم!
- أهلا وسهلاً بك يا جاكومو، كان عندي ضيوف ذهبوا لتوّهم، لذلك وجدتني في أحسن زينتي، كي أكون لائقا بمقامهم. من المؤكد أنّك تعرفهم.
- وكيف يا سيدي وأنا لم يمض على وجودي في هذا البلد إلّا بضعة سنين؟
- إنّهم فرسان الماء، أصدقاء طفولتك التي قضيتها في إيطاليا.
- وماذا قالوا لك عنّي؟

- لقد كنتَ محور حديثنا وكل ما قالوه لي عنك، إنك طفل تستحق كل اهتمام، وإنه لا ضير عليك إن كلّمتك عن نفسي، وعن تجربتي وقصّتي كدرس تدّخره في قلبك لما هو آت من سنوات عمرك.
- غريب أمرك يا سيدي ويا أميرة الصحراء.
- الأغرب هو أمرك يا ملاك الرّمال وفارسا من فرسان المياه. لمَاذا تناديني بالأميرة وليس بالأمير؟
- لأنّك شديد الحسن وفيك الكثير من الجمال الأنثوي، كِبرُ عينيك، وهذا الحور البديع بهما مثلا، شفتاك الكرزيّتي اللون، وشعرك النّاعم على غير عادة رجال الصحراء هنا، ورفاعة جسمك وطوله، ورقّة يديك ونعومة ملمسهما التي تثير استغرابي في كل مرّة أصافحك فيها. كلّ هذا يا سيدي فكّرتُ فيه طيلة الأسبوع الماضي، دون أن أخبر به أحدا.
- وهل يثير الحسن والجمال حفيظة أحد يا جاكومو؟
- نعم ياسيدي، حينما يكون جمالا أنثويا مختزنا في جسد رجل فإنه يثير الاستغراب، لأنه يعدُّ خارجا عمّا اعتاده الناس وعمّا ألفته حواسّهم وأفكارهم.
- صدقتَ، وللسبب ذاته أنا أقيم في هذا المكان البعيد عن البشر، أنا يا جاكومو امرأة ولدت في جسد رجل، وهو سرّ لم أبح به لأحد في هذا المكان إلّا لك، كونك أنت الوحيد الذي انتبه إلى هذه التفاصيل على الرغم من كوني أبذل قصارى جهدي كي أخفيها عن الجميع. ولكن يبدو أنّك لم ترها بعينك المجرّدة ولكن بعين قلبك الشفافة، لم تنتبه إلى اللّحية النابتة فوق ذقني ولا إلى وجهي الذي اخشوشنت بشرته من كثرة تعرّضها إلى الشمس، ولكنّك قرأت بي ما لم يقرأه أحد سواك في حياتي، حتى والدتي لم تنتبه يوما بأنّ رضيعها كان أنثى وليس ذكرا.
- أتريد أن تقول لي إنّك امرأة في جسد رجل؟ وكيف عرفتِ ذلك يا سيدتي، ولمَاذا كلّ هذا التخفّي، وإذا كنتِ أنثى فلمَاذا تعيشين حياة كهذه؟

- إنها قصة طويلة جدا، ربما أحكيها لك في الأسبوع القادم.
- لا يا سيدتي، أقصد يا سيدي، أريد أن أعرفها الآن، فوالدي يعرف بوجودي معك، وقد قال لي إنه عندما سينتهي من عمله فإنه سيأتي لزيارتك وشكرك على الحليب والتمر الذي أرسلته له ولأمّي.
- حسنا يا جاكومو، إذن فلتصخ السمع جيدا: أنا يا صغيري، ولدتُ بمدينة بحرية من أُمّ فيتنامية وأب مغربي، أثناء السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية، نشأتُ كباقي أقراني من أبناء الجنود المغاربة الذين عادوا من حرب الفيتنام في جو تملأه السكينة والفرحة بانتصارات أشبال المغرب، عائلتي كانت محافظة وكنت أنا الابن الأكبر الذي حظي بعناية والده وكامل اهتمامه، ولم أفارقهم يوما سوى عندما حان موعد دراستي بجامعة القرويين العتيقة الموجودة بمدينة فاس أو المدينة التي اكتشفتُ فيها هويتي، حينما تعلّق قلبي بفتى في غاية الحسن والجمال كان يسكن في الحيّ المحاذي للجامعة. فقط ساعتها بدأتُ أتساءل عن نفسي وعمّن أكون حقيقة. وبدأت أعيش لحظات من الألم والعذاب، وكذا الحيرة والخوف من أن يكتشف أحد من الناس قصة حبّي وعشقي المهووس بذاك الفتى، ولمْ أتوصّل إلى جواب شاف إلّا في اليومِ الذي فاتحت فيه أقرب الشيوخ والمدرسين إلى قلبي، وحسنا فعلتُ فقد هداني إلى الجواب الشافي وقال لي بأن أراقب مجرى التبول بجهازي التناسلي، فوجدتني على غير باقي الناس، أتبوّل من فتحة أخرى غير تلك التي من المفترض أن يتبوّل منها أيّ رجل غيري، هناك تأكدتُ وتأكدَ شيخي رحمه الله وأدخله فسيح جنّاته بأنني خنثى ونصحني بالتكتّم على المسألة إلى أن ينظر الله في أمري ويرأف بحالي وحال قلبي المتيم.
- هل تعني أنك كرجل أحببت رجلا آخر غيرك؟ وهل من الممكن أن يحدث هذا؟

- لا، لا يمكن أن يحدث هذا، فأنا كما قلت لك لست رجلا، ولكني خنثى تغلب عليها الصفات الأنثوية، تعالَ اقترب مني هنا، واحملْ معك تلك السلة من التمر الأسود. هيّا، حاولْ أن ترسمَ بحبّات التمر دائرة فوق الرّمل وأنا سأملأُها بقنينة العسل الأبيض هذا، هيّا تعال وقل لّي ماذا ترى؟
- أرى بحرا.
- وماذا أيضا؟
- أرى جنة من الخضرة والأشجار، والأزهار والورود والطيور.
- ثم ماذا؟
- أرى سمكا وأرى رجالا وأناسا كثيرين.
- هذا ما خلقه الله تعالى من أسراره في بحاره من حيتان وأسماك وعلى أرضه من ذرية آدم.
- ياالله كم هي جميلة هذه الألوان وكم هي متنوعة لغة البشر!
- نعم يا فارس الماء البندقي، لقد خلق الله تعالى جسم آدم (ع)، من دون ذكر وأنثى، وخلق جسم حواء (ع)، من ذكر دون أنثى، وخلق أجسام ذريتهما من ذكر وأنثى وخلق جسد سيدنا عيسى (ع) من أنثى بدون ذكر.
- أتقصد سيدنا عيسى روح الله؟
- أجل، هو بذاته، المخلوق الذي تجسّد في صورته البشرية بالنفخ الروحي، أو الجسد الذي خُلق في اللحظة ذاتها التي نُفخت فيه روحه وبفعل واحد، لذا، فإن روحه هذه هي عين ذاته، وحياته ذاتية لجسده وهو ما يجعل منه أقرب إلى الجسدية من الجسمانية، أي أنه روح تجسّدت، لا جسم نُفخت فيه الرّوح، أو بمعنى آخر فهو الجسد الذي يحمل الحياة، ينفخُها بإذن الله في كلّ شيء يشاء، وهذا ما يُفسر معجزاته في إحياء الموتى وشفاء العلل وإبراء الأسقام.

- هذا يعني أن الله في خلقه شؤون وتدابير لا يعلمها غيره، وهو كما فعَلَ مع أبينا آدم وسيدنا عيسى، قادر على أن يصنع ويُنوّع في خلقه كيف يشاء، كما حدث أيضا معك أليس كذلك؟
- أجل وأنا متأكد أنه على الأرض يوجد رجال ونساء يعانون من نفس ما عانيته في السابق من اختلاف في الهوية والجسمانية البشرية.
- لماذا تقول في السابق؟ أتعني أنك اليوم لا تعاني من نفس مشكل الأمس؟ أو أنك تزوّجت بذاك الرجل الذي أحببته فيما مضى؟
- إن الله لا يحبّ يا ابني أن تشيع الفاحشة بين عباده، وحبّي لذاك الرجل لم يكن فاحشة أبدا ولكنّي، لو كنت فكّرت في الزواج به، فإن ذلك سيكون فاحشة وكبيرة لا تُغتفر. لأنني كنتُ بذاك الفعل سأخلق بين الناس الفتنة والبلبلة، والله حرّم الفتنة واعتبرها أشدّ من القتل لما تسببُه من دمار للعنصر البشري وحضارته وفكره ونقائه.
- هل هذا يعني أنّك ضحّيتِ يا أميرتي بحبيب قلبك، وجئتِ إلى هنا كي تحجبي نفسك عن الجميع؟
- اخترت النقاء والصفاء يا ابني جاكومو، ومن الأشياء التي علّمتني إياها هذه الرمال الملتهبة، هو أن الحبّ يصبح ساميا كلّما ابتعدت به عن حاجات الجسم، واقتربت به من حاجات الجسد الأثيري والروح، عند ذاك فقط يمكن لحبّك الأرضي أن يصلكَ بالحب الإلهي والسماوي الأكبر. انظر مثلا إلى آية أخرى من آيات الخلق الإلهي في عالم الأسماك، انظر هنا فوق شاشة العسل هذه وقل لي ماترى؟
- أرى سمك قرش.
- إنها إناث سمك قرش، إنّ هذا النوع من السمك يا ابني قادر على أن يلقّحَ نفسه بنفسه وإنتاج صغار قرش أخرى دون أيّة حاجة إلى ذكر.
- أمّا هنا فأرى سمكا آخر وأعتقده سمك الشّص.

- أحسنتَ يا جاكومو، إنّه أنثى سمك الشّصّ، وهي قادرة على اجتذاب الذكر برائحتها الغريبة بشكل يجعله يلتصق بها طيلة حياته، وثمّة أنواع أخرى من السمك كفرس البحر الذّكر الذي يجمع في حويصلته بيض الأنثى ويرعاه إلى أن يصبح سميكات صغيرة يلدها عندما يحين الميعاد، ونوع آخر يسمى البطريق يحضن بيض إناثه إلى أن يحين وقت التفقيس، ولا يخون أبدا شريكة حياته ولا يستبدلها بأنثى أخرى. فقلْ معي يا ابني سبحان الحيّ الخالق البديع الذي لا يموت، الأزلي الأبدي السرمدي في علاه.
- أجل يا سيّدي إسماعيل، إنها تشبه تلك الأشياء التي كان يحكيها لي فرسان المياه بمدينة البندقية، كانوا غالبا ما يطلعونني فوق مرآة أنهار مدينتي وبحيراتها الصغيرة على أسرار الأسماك وعوالمها، أما ما حكيته لي عنك وعن الخلق البشري، فذاك مالم يحدّثني به أحد!
- هل ستعود لزيارتي في الأسبوع القادم يا جاكومو؟
- إن شاء الرّحمن، نعم.
- خذْ إذن معك طحين لقاح النخل وبعضا من هذه الشماريخ وأعطها لوالدك، فهو سيعرف كيفية استعمالها جيدا، إذ قال لي في مرات سابقة كان يأتي فيها للقائي بأن لديه هناك في بيت والده العتيق نخلة أنثى كبيرة كانت في يوم من الأيام تلقي رطبا جميلا، قل له إنّ هذا الطحين وهذه الشماريخ قادرة على إحياء نخلة أبيه بإذن الله.
- لك عميق شكري يا سيدي إسماعيل على حسن ضيافتك وعلى ما تفضلت به عليّ من معرفة وعلم.
- إلى اللقاء إذن، واقتربْ منّي كي أحتضنك فمن يدري ربّما يكون هذا آخر لقاء بيننا.

عانقته وأحسست بالأرض تدور من تحتي وشممتُ في صدره رائحة والداي ورائحة البندقية والصحراء ورائحة البحار والرمال، وسمعت في أنفاسه أصوات كل أهل

الأرض بمختلف لهجاتهم ولغاتهم، وجاء والدي لاصطحابي وقلبي مفعمٌ بأحاسيس غريبة وبدموع تحجّرت في مقلتاي ولم تخرج إلا وأنا على أرض أخرى غير هذه الصحراء البعيدة، أرض مدينة ساحلية قصدها أبي بعد خمسة أيام من لقائي بالناسك الأزرق، كي يقضي فيها بقية أيام العشر سنين التي قضاها في البحث والدراسة في بلدي ووطني الثاني، مغربي الحبيب، الذي لم أنسَه أبدا والذي قضيتُ فيه قبل العودة إلى إيطاليا أجمل سنوات عمري، الأرض التي أحببت فيها وتزوّجت منها وقابلتُ فيها من الناس خيرتهم ومن الأهل أشدهم خلقا وورعا وحكمة ومقاومة لكل أشكال الظلم والحيف والطغيان.

(ث)

خبير في كتابة الجندر

والآن وقد مرّت ثلاث وثلاثون سنة عُدتُ إلى المغرب كأديب وصحفي مختصّ وخبير في كتابة الجندر واختلاف النوع الإنساني كي أحكي للعالم أجمع وبكل اللغات عبر إصداري الجديد قصة السيد إسماعيل الذي شرب من معين المعرفة وتنسك وهو في سنواته الأربعين واختار حياة النقاء ولم ينغمس في وحل السقوط. ولم يفتني أن تكون زيارتي لهذا السّيّد النّاسك ضمن برنامج رحلتي علّني أحظى منه بلقاء يُحيي بقلبي ما عشتُه في مراهقتي معه من ذكريات خالدة، إلا أنني لم أجد في المكان إلا نخيلَه الهشوش البشوش المرحاب، وماعزه الحلوب، وحينما رسمتُ بالتمر دائرة صغيرة وملأتها بالعسل كما علّمني قديما سيدي إسماعيل، إذا بي أراه بين يدي الخالق وهو يصلّي بوجه يشعُ منه النور وتملأه التجاعيد وبظهر تقوسّت فقراته من شدة الكبر وشفتاه تردد من الدعاء أحلاه وأشده تأثيرا على القلب والأذن:

«ها قد كبر الصبيّ

وجاء ليزورني

وابتهجت الخيمة

ورقصت النّخلة

فيا ربّي

وربّ الفلا وما حبل
وربّ الليل وما ستر
لا تبقه هكذا بعيدا عنكَ
فهو بدونك هشّ كندفة ثلج
كسير كحمامة جريحة
وحزين كشجرة ميموزا
بدون ربيع
فلا تتركه بدون بوصلة
واجعل نورك يصل إلى روحه
وشراع قاربكَ يجد وجههُ
حرر قلبه من حطام الأرض
فأنا لا أريد أن أرى
دموعهُ بعينيك
وجراحهُ فوق جسدك
حرره يا سيّدي من أثقال الأحبة
ولا تترك القدر يطفئ شمعتهُ
أنت يا نجم الوجود
يا فالق الحب والنوى
يا من يخرج الميت من الحي
والحي من الميت
لا تختفي عنهُ كحفنة ملح
رُميت بنهر
فالحياة بدونك متاع الغرور،
هوة بدون قرار
وجه بدون ابتسامة
وطفل بدون طفولة».

(٣)

ساحرُ الحجر

أنا ساحر الحجر وكاهنه، أناملي تلمس الصخر والرمل والخشب فتجعلُ منه تماثيل لأجساد بشرية تحار العين في كمالها ودقتها وتفاصيلها المطلقة. أنا العارف ببذرة الماء والنار في الحجر الأصم، أخلقُ الكمال كي أعوّض به عن الشّوه الذي تغرق فيه حياتي وحياة الناس من حولي. هكذا كنت مُذ رأيتُ النور في قرية البلّوط. كان أبي فلاحا بسيطا، ووالدتي ربّة بيت تقضي صباحها في المنزل وظهيرتها بين الحقول، أما أنا، فكنتُ حتّى سنوات الصبا الأولى الطفلَ الراعي لقطعان خرفان الأُسَرِ الغنية بقريتي، وتحت فيء البلوط الشامخ كنت كثيراً ما أجلس وقد جمعتُ بعضاً من أغصان الزيتون والعرعار لأضعها بين أناملي الصغيرة وأتركَها تخلقُ منها ما تشاء من أدوات وتماثيل خشبية صغيرة. ومّرت السنون بي سريعة وعندما كبُرت هجرتُ القرية والخرفان وأغصانَ البلوط والعرعار والزيتون، ثُم قصدت المدينة وهناك صرتُ نحّاتا عارفا بخبايا الحجر والطين واللون، ورسّاما تتسابق على أعماله كُبريات الكنائس والمعابد وكبار رجال المال والسلطة.

هكذا عشتُ حياتي، مقتنعاً بألوهيتي وقدرتي على الخلق، إلى أن التقيتها ذات يوم في رؤيا فجريّة، عابدةً وهبت حياتها لزرقة النور وبرودته، حدثتني بعين باكية عن الله، نعم عن الله، أنا، ذاك الذي لم يؤمن يوما بوجوده!

قلتُ لها إن الله خرافة من صنع البشر، إلّا أنّها أجابتي بأنني أنا الخرافة التي لم تحدُثْ في تاريخ بشر، خرافة تصنع الجمال بقُدرة الخالق البديع الأكبر، وقبل أن تختفي وسط نور كثيف خاطف وعنيف، عانقتني ونحتت لي في الفضاء تماثيل من زجاج أزرق شفاف!

استيقظتُ وصورتها عالقة بذهني، قصدتُّ بعد ذلك مَنْحَتِي علّني أجد فيه ما أُروّح به عن نفسي، إلّا أنني ما إن دخلتُه حتى ساورني إحساس غريب بِالمَلل واليأس ممّا كنتُ أعيش وما أزال بداخله من ألوان قاتمة، هكذا وبدون سابق إنذار اكتشفتُ

أنني كنت لا أنحت سوى لون الخشب البنّي بكلّ تدرجاته، والحجر الأصفر الباهت، وهالني كيف أنّني رضيتُ في حياتي بكلّ هذا البرود، وهذه الصفرة! وظننتُ لبرهة أنني ربّما أستطيع تغيير كل هذا عبر إعادة تلوين الكلّ بالأزرق، إلا أنني لم أفلح أبدا. وهيهات هيهات أنْ أصلَ إلى كمال مُلهمتي وزُرقتها وصفائها. لاغرو أنّ وراء بهائها هذا، شيء أكبر من كلّ طاقة وتخيّل، شيءٌ ما زلت لمْ أدْرِكْ كنههُ بعد، أو شيء مازلتُ أقاوم بقوة رغبةَ الوقوف على سرّه.

آه كم يؤلمني هذا الصقيع بداخلي، وكم يحيّرني هذا الجمود الذي أصاب أصابعي مذ رأيتك يا ملهمتي الزرقاء. لقد توقفتُ عن النحت والرسم ولم يعُدْ يكبُر فيّ سوى أناي، ذاك التمثال الكلسي العنيد العصيّ. ابيضّ شعري وسقطتْ أسناني وتقوّسَ ظهري واختفيتِ أنت عن ناظري، فلماذا كلّ هذا الجحود والعصيان يا مُلهمتي؟ أينكِ وأين أيّامك وسماؤك وضياؤك الأزرق؟

- أنا هنا، أقيم بين أصابعكَ وفوق جلدكَ وعلى شفتيك وفوق لسانك، ومنذ الآن سترى كيف أنهم جميعا سيُصَلّون ويعبدون خالقهم في كل آن وحين ولن تستطيع لهم إيقافا!
- مابكِ يا أصابعي؟ وما بكِ يابشرتي ترتعشينَ هكذا عند حلول وقت كلّ صلاة؟ وما بكَ يا لساني تلهج بِاسم الرّحمن في كل حين وآن؟ وما بكَ يا قلبي تصلّي بدون انقطاع؟ ألا تعلمين ياجوارحي أنني لا أومن بالله؟ فلمن تصلّون وبِاسم من تلهجون؟

مالذي أصابكم؟ ومابكُم لا تتركونني أنام أو حتى أغفو؟ هل عليّ أن أقوم معكم، أن أصلّي كما تصلّون وأسبّح كما تسبّحون؟ لا أريد، نفسي ترفض كلّ هذا ولا تفهمه، أنا الذي كبرتُ في بيت لا يؤمن فيه أهله إلا بالطبيعة وقدرتها، وبالدهر وجبروته، فما بي أراكم تخذلونني، ثم ما بي أراني لا أستطيع لكم إيقافا؟

- وهل تراك ياصاحب الجسد الذي نقيم فيه، تعتقد أنه ثمة شيء في الوجود لا يخضع ولا يسجد لله العزيز الحكيم؟ أنسيتَ أننا سنكونُ على البشر شهداء؟ نعم، نحن الأصابع والأرجل والأيدي والأفواه والأعين وكلّ شيء في جسدكَ يا ابن آدم. فقد تكفرُ نفسُك، وقد تلحد نعم، إلّا جسدَك ومايحوي من جوارح، هي هكذا، لا تستطيع ذلك وإن أجبرتها على ارتكاب المعاصي، لأنها وإن فعلتْ ذلك، فإنها لا تقوم به إلّا لتكون عليكَ من الشّاهدين وليس لأنها توافقك المعاصي والذنوب.
- من أنتَ؟ من أنتَ يا من تسجدُ وتسبّحُ له الأيادي والأرجل والألسنة وكلّ شيء؟ ماذا حدث؟ لمَاذا تصمتين يا تماثيلي ويا منحوتاتي ولوحاتي؟ فلا أنا اليوم صاحب صحّة وجاه، ولا أنا قادر على نحت المزيد منك، فأنت لاتكترثين لي، ولا تمنحينني زرقة الوجود وصفاء الرّوح. ماأنتِ إلّا أحجار صمّاء وأخشاب مسنّدة نحتُّها في يوم ما بكل دقّة وفنّ ونقص ظننتُه كمالا، وهذه أصابعي العابدة اليوم، تريدني على غير العادة أن أنحت أشياء أخرى، أصابعي هذه وجوارحي التي تصلّي ليلا ونهارا، لإله لا أعرف عنه شيئا.

أنا أخاف في قبر الأشباح هذا. ما هذا البرود وما هذه الوحشة، كم عليّ أن أنتظر؟ لماذا تظلّين هكذا واقفة يا تماثيلي، ألا ترين كيف أن الأصابع التي نحتتكِ تنهض فجرا كيْ تصلّي، وتسبّح وأنا لاأستطيع لها شيئا، لم لا تصلّين أنت أيضا يا منحوتاتي، لم لا تركعين؟

منْ تراك تكونُ حقا حتى تعبُدَك أصابعي وتسجُد لك جلدتي وتبكي لك عيناي بالليل وبالسحر؟ من تكونُ يامنْ يبكي لهُ كلّ هذا الجسد ولا تبكي لهُ نفسي؟ فمن أنتَ؟

آه، كم أشتاق إليك يا إلهي، يبدو أنّك تليق بالربوبية، فمتى أحظى بالقرب منك؟ لا بدّ أنّك فائق الجمال، حتّى أضحت أصابعي تأبى نحت صفرة الحجر وسواد الخشب، لا بُدّ أنكَ بديع لدرجة أنّك أرسلتَ إليّ مُلهمةً تنحتُ الجمال الغارق في الزرقة البهية، الزرقة التي هزمتْ براعتي وفنّي وغروري.

لا بُدّ أنك أنت البديع الظاهر والباطن، والفنّان الأول والآخر، ذو الألوان البهية والتعابير الخلابة والخلاّقة. فأيننني منكَ يا خالقي، يا معبودي ويامعشوقي. وأيننني منكِ يا مُلهمتي الزرقاء ومن طيور جنانك البهية. لا أطيقك بعد اليوم يا تماثيلَ الماضي الأصمّ، سأكسِّرُكِ وأكسّر البرودةَ فيك وسأشعلُ لهبا أزرق صافيا بهذا القلب وبهذه النفس التي عادت إليها الحياة، ومن اليوم وإلى ماشاء الله، سأسجدُ كما سجدت أصابعي وسأسبحُّ كما سبّح لساني في الأزل، وسأرسمُ زرقة الأرواح الشفافة وأنحتُ أجمل آيات التجلي فوق البرَد والزجاج الأزرق. فلتباركني ياربّي ولتبارك الحياة التي تفجرت اليوم بدواخلي، ولتأتيني يا مُلهمتي في كل يوم وساعة فوق بُراق من الألوان والأنوار.

(٤)

سجدة

كان هناك كعادته بين المصلين في أحد بيوت الله الكبرى، يصلي بين الناس ويتحين الفرصة كي يمدّ يده إلى جيب أحدهم ويسرق منه محفظة نقوده أو هاتفه الجوال دونما أن يشعر به أحد. كان يعلم أنه من المستحيل أن يشكّ به شخص وهو ببيت الله، حيث التقوى والخشوع والوقوف بين يدي العزيز الجبار. انتهت الصلاة وغادر المكان بعد أن تبادل السلام وعذب الحديث مع بعض من معارفه المصلين وسكان حيّه. كان كلّ من يعرفهُ هناك يشهد بدماثة خُلقه وطيبوبته ومدى حرصه على الصلاة في أوقاتها. لم يسرق شيئا هذه المرة وقرر أن يحاول في فرصة أخرى: [ربما غدا أثناء صلاة الجمعة] ـ قال في قرارة نفسه ـ [سيكون المسجد مكتظا وسيحج إليه الناس من كل فج عميق]. ذاك ما كان بالفعل، استيقظ عبد الله من نومه واغتسل ثم تعطّر ولبس أحسن ما لديه واتجه ليصلي صلاة الجمعة بمسجد الحي الكبير، دخل كعادته وحيّا من يعرف من الناس، ثم بدأ في الصلاة معهم وقد التصقت الأكتاف بالأكتاف، وبدا الجميع وكأنهم بنيان مرصوص، سجد الإمام وسجد خلفه الناس جميعا وبينما عبد الله ساجداً، إذا به يدير عينيه كي يعاين جيبَ من بجانبه، فلمح هاتفا جوالا، لمعت عيناه وقرر أن يمدّ يده إلى الجيب ، إلّا أنه لوهلة قصيرة جدّا تراجع عن قراره الأول، وأرجأه إلى السجدة الثانية. وذاك ما كان، ما إن سجد مرّة أخرى حتى كان بيده الهاتف المحمول للرّجل المُصلّي الذي كان على يمينه، وبينما هو يتحسس الهاتف بأنامله وقبل أن يرفع رأسه من السجدة قبض ملك الموت روحَه وتركه هناك ساجدا والهاتف بين يديه، ردّد الجميع تحية التشهد، وحينما سلّموا منهين بذلك صلاتهم إذا بالشّخص الذي سُرِق هاتفه النقال، يسحب الهاتف من يد عبد الله ويُرجعه بسرعة البرق إلى مكانه ليهتف صارخا: «إنا لله وإنا إليه راجعون، إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد مات اليوم عبد من عباد الله وهو ساجد بجانبي!».

انتبه الجميع إلى صوته والتفوا حول جثة عبد الله ومنهم الباكون والمحوقلون والمسترجعون ومن خرج مسرعا كي يخبر أهل بيته، وعلا الضجيج والصخب داخل المسجد واشتدّت حركة الناس، إلّا محمدا، الرّجُل الذي سُرق منه الهاتف، انزوى في ركن بعيد وبقي في صمت يراقبُ كيف ستجري الأحداث، وكيف أن الناس سيجعلون من هذا السارق رجلا مباركا لأنه مات بين يدَيْ ربه وهو ساجد. لمْ يحتمل هولَ الموقف وقوّته فخرج لا يلوي على شيء، وبينما هو في طريقه إلى بيته إذا بشخص طويل القامة جوهري الصوت يناديه من الخلف: «آ محمد، لِماذا لمْ تخبرِ الناس بما رأيت؟ لِماذا لمْ تقل لهم إنه مات وبين أنامله هاتفك المحمول؟».

التفت محمد إلى الشخص الذي كان خلفه ثم سأله: «من أنت يا سيدي؟ كيف عرفت اسمي، وبقصة السّجدة وسرقة الهاتف؟»

- لن أجيبك يا محمد حتى تقول لماذا فعلتَ ذلك؟

أجاب محمد والدّمع يهطلُ من عينيه ساخنا: رأيتُ لله في هذا العبد العاصي رهبة فخشيتُ يوم لقياه، عرفتُ أنه هو الحق، ولكنّي قبل هذا وذاك عرفتُ أنه هو الحليم الستار، فأحببتُ أن أستُرَ على عبده وأجعل الناس بعد موته يذكرونه بالخير، وكذا من قد يكونون أبناءه –إذا كان إنسانا متزوجا– لا يشْقَوْنَ به وهُمْ بعْدُ على عتبة الحياة، لأجل كل هذا لم أخْبِرْ أحدا بأمره.

ابتسم صاحب الصوت الجوهري وقال: «أمّا أنا فعبد من عباد الستّار. بعثني ربي كي أُسْدِلَ عليك غطاء السّتر الكامل، يحميك من هذه اللحظة ويحمي ذريتك إلى أن توافيك المنية».

(٥)

ذكريات قنطور

أنا العابد العاشق الساجد المحترق، الذائب الأحمر القاني، اللهب الأزرق الصافي. أنا الليل والضياء، الأرض والسماء، النار والماء. أنتَ أنا، ابن الجذوة الخضراء، وأنا أنت يا ابن آدم وحواء. أقيم حيث تقيم، وقد رأيت من ذريتك خلقا كثيرا، نساء ورجالا، صغارا وكبارا، إلا انني لم أر قط في حياتي مثلها، ولا هي في حياتها مثلي، كانت طفلة صغيرة وكنت شيخا كبيرا

لقاؤنا الأول كان غريبا، فجائيا، لم يدم بضع الثانية أو ربما أقل، لقاءٌ أضاءَته بابتسامة من شفتيها الكرزيتن البريئتين، وبإشارة من يدها الطفولية الصغيرة. لم يكن هناك غيري من المخلوقات في ذاك المكان، والطفلة رأتني أنا دونا عن غيري، وابتسمت لي أنا لا لغيري، وهذا يعني لي الشيء الكثير ويؤكّد أنها الآدمية الوحيدة التي استطاعت طيلة سنواتي الألفين من الوحدة أن تراني.

معها وفي لحظة هلول طيفها المفاجئ علي، أحسست بأنني أخيرا وبعد كل هذه السنين من التعبد والزهد رأيت قبسا من نور جسّدته ابتسامتها والوهج المنبعث من عينيها. لن أُضيّعها بعد اليوم، فأنا أعرف أين تقيم، ولو أنّي أخشى ألا تتمكن من رؤيتي مرة أخرى. فلا تحرمني يا إلهي منها بعد أن وهبتني فرحة العثور عليها، سأكون لها الجدّ والأخ والمرشد في كل حين أزلي وديمومي.

لقاؤنا الثاني كان في بيت أسرتها، تعيش مع أخ وأخت منحهما الله لها من أمّ ثانية تزوجها أبوها بعد وفاة والدتها. أدخلُ غرفتَها، وأجدها غارقة في نومها الملائكي، أحيّي حفظتها الكرام، وأجلسُ إلى جانب سريرها أراقبُ نومها وأسمعُ أنفاسها. الساعة تشير إلى الرابعة صباحا، أفاقت على غير ما توقعته، فكلّ من في البيت مازال غاطّا في نومه، توضّأتْ ثم عادتْ إلى غرفتها كي تصلّي الفجر. بحركة غريبة من يديها أشارتْ إلي بالتنحي عن القبلة، وبسرعة البرق لبّيتُ الأمر ووقفتُ في الناحية الأخرى من الغرفة وشرعتُ أنا أيضا في صلاتي. بعد التحية والسلام قفزتْ بسرعة النور

وجلستْ فوق سريرها وبين يديها مصيحف قرأتْ منه ما تيسر من سورة المُلك ثم عادت للنوم.

استغربُ كثيرا طبعَها، فهي إذن تراني ولا تخافُني، سأجرّب في المرة القادمة أن أكلّمَها. أجل هذا ما سأقوم به، لن أبارحَ هذا المكان حتى أتأكدّ من أنّها أنا فعلا من تراني ومن تبتسم له .

- صباح الخير، أحبّك، نعم أحبّك، يا ثناء، قلتُ بتردد وخوف وخجل ورعب من الرفض.

رفعتْ رأسها إلى أعلى، اقتربتْ بوجهها الوضّاء ثم قالت:

- أنا اليوم لا أستطيعُ رؤيتك ولكنّي أسمعُك وأعرفُ أنّك أنت نفسُه من رأيته منذ أسبوع مضى ونفسُه المخلوق الذي كان حاضرا عند صلاة فجر الأمس. فهل تسمعني؟ هل تفهمني؟

قالتْ ودون أن أتمكن من الجواب عن سؤالها، رُفعتْ عن ناظري وأصبحتُ مثلها أسمعُها ولا أراها وهي تسمعُني ولا تراني، بل لسبب ما زلت أجهله، نصحني حفظتُها الكرام بألّا أحاول الحديث معها مرة أخرى.

سأظل هكذا صابرا ومكتفيا بالإقامة في بيت أسرتك يا ثناء علّ ما حدث في الماضي البعيد يتكرر مرّة أخرى، أي علّني أنعم بابتسامة منك، ونظرة من لحظك الخارق.

لا شيء مما تمنّيتُه حدث وعُدْتُ إلى سنين وحدتي وذكرياتي الأليمة والصور المريعة التي خزّنتُها في قلبي مما كانت وما تزال تقترفه يدُك يا ابن آدم، كمْ حضرتُ لك من الجرائم والحروب، كم من الأرواح أزهقتَ وكم من الأطفال قتلتَ وكم من الأعراض استبحت وما زلتَ يا ابن آدم تُذبّح وتقتّل، تحرقُ أجسادا وتئدُ أخرى. لم يكن لي من مفر منك سوى الخلود في خالقي واللجوء إليه علّه يحجبُ عنّي ما كانت تراه عيني من خفايا ما ترتكب.

- من أنت يا شامخة، يا ذات الولاء والبهاء، ياصاحبة الجاه والنقاء، يا سيدتي وتاجا فوق رؤوس النساء؟ قبلك كان القلب مسكنا للهباء، تزمجر بداخله رياح

الذكريات الأليمة، وتتكسر فوق صخوره حمرة أمواج الألم والوحشة والغربة، فأينك يا سيدتي الزرقاء، يا يمامتي البيضاء، هل كبرت، هل أحببتِ، هل تزوجت؟ هل وهل وهل. يا خالق الأرض والسماء ارحمني من الهل والآه والسؤال وأخبرني أينها ثناء؟

- أنا هنا يا قنطوري، كم حكيت للناس عنك وإن كانوا لا يصدّقون، سألوني عنك، عن شكلك، عن اسمك وعن سنّك؟ وكنت أجيب وكأني أحكي عن حلم رأيته ذات صبا، بأن لك قرنان وخفّان ونصف آدمي وآخر حيواني. كانوا يرتعبون، وبعضهم كان ينعتني بالجنون. لا أحد يا جدّي في هذا الزمن يعلم بأننا كلّنا قناطير، كلّنا لنا نصف حيواني وآخر آدمي. لا أحد يعرف بأنك أنت ومن يماثلك في الشكل والقلب وصفاء العقل واللهب الأزرق تفوقُ في البهاء كثيرا من ذرية بني آدم. فَهُمْ أبدا يستغربون، وفكرة كونهم قناطير معكوسين يرفضون. أجل قناطير هُم ولكن بنصف علوي حيواني وآخر سفلي آدمي، وهُمْ حينما كنتم أنتم تبحثون عن الرقي والسمو الروحي، كانوا ومايزالون بالسقوط منشغولون.

تُرى كم عمرك اليوم يا قنطوري؟ بالأمس كان قد تجعّد وجهك واشتعل شعر رأسك شيبا، وتقوّس ظهرك وتباطئت خطاك. فكيفك اليوم، أما زلت تنتظرني؟ أما زلت تذكرني، أما زلت تبحث عنّي؟ أنا لم أعدْ تلك الطفلة الصغيرة ولم أعُدْ أسكن ذاك البيت القديم الذي رأيتك فيه أول مرة، تركته ورحلت إلى بيت آخر وإلى أرض أخرى، غير تلك التي رأيت فيها النور. ومثلك رأيت الكثير والكثير مما تشيب له رؤوس الولدان، وتذهل له المرضعات، إلا أنني لم أفقد الأمل في رؤيتك مرّة أخرى، وثق بي يا قنطوري عندما سيتحقق ذلك وأراك سأعرف بأن قلبي مازال هو هو، قلب تلك الطفلة الطاهرة التي استطاعت في زمن مضى أن ترى أجمل تجلّ لما كان ومازال يعتبره غيري من البشر عالم الخوف والخفاء.

أنا هنا يا قنطوري، ثناء العاشقة لحمرة النار وضجيج النور وبلبلة الألف والياء وشقشقة السين والشين. المُحبّة لخرير المياه وهدير الحمام وعواء الذئاب. أنا ثناء التي تصهل بداخلها أحصنة السلام وترفرف فوق رأسها أعلام صفر يتوجها تنين أحمر كبير.

أنا القادمة من زمن المستقبل، زمن العشق والحلم، زمن الموت والاحتراق والنار والحياة. فمن أنت يا قنطوري، وأينها أراضيك؟

- زرقائيل هنا يا أميرتي، ينتظرُك بأرض المد والجزر، بأرض يسكنها المسيح، وتنتظر بها الدّابة والمهدي وينبُش أسوارها يأجوج ومأجوج.
- قادمة إليك يا زرقائيل، وفوق وجناء ذات سنمين سأسابق الرياح السّهوج، كي أصل إلى أرضك قبل أن تصل إليها أعلام الغرباء ونوق تهيّجها شياطين دواسم، فأعد العدّة يا زرقائيل، وأيقظ كلّ تنين نائم في أقاصي الشرق البعيد القادم من مستقبل قري

*****

انتهى

وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

- **الدكتورة أسماء غريب:**

ناقدة، ومترجمة، وشاعرة مغربيّة، مقيمة في إيطاليا

- **مستشارة في هيئة التحرير لدى مجلة السّلام الصادرة من السويد (ستوكهولم)، والتي يرأس تحريرها الأديب السوري صبري يوسف؛**
- **مديرة الفرع الإيطالي للبيت الثقافي العربي في الهند؛**
- **عضو رابطة الأدباء العرب؛**
- **حصلت سنة ٢٠٠٦ في إيطاليا على لقب أوّل امرأة عربية تتخرّج بمرتبة الشرف الأولى من جامعة الدراسات الشرقية الإسلامية. وقد كانت أطروحة إجازتها باللّغة الإيطالية حول "أسرار الحروف النورانية بالقرآن الكريم"؛**
- **حصلت سنة ٢٠٠٨ ومن الجامعة ذاتها، على شهادة الماجستير الدولية للدراسات العليا بمرتبة الشرف الأولى، تخصّص: دراسات حول البلدان العربية والإفريقية. وكانت أطروحة الماجستير حول "إسراء ومعراج الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام"؛**
- **في بدايات سنة ٢٠١٢ حصلت بروما على دبلوم في التحرير الأدبي والصحفي من "ستيلوس" مؤسسة علوم التحرير الأدبي والصحفي باللغة الإيطالية؛**
- **نالت في يومه الخميس ٨ شعبان ١٤٣٣ الموافق لـ ٢٨ حزيران ٢٠١٢، بروما بجامعة [La Sapienza] قسم الدراسات الشرقية: تخصّص (حضارات وثقافات دول إفريقيا وآسيا) شهادة الدكتوراه بدرجة امتياز وبمرتبة الشرف الأولى عن أطروحتها الموسومة بـــ (الحداثة في المغرب، من التاريخ إلى الأدب: محمد بنيس أنموذجا للدراسة والتحليل)؛**
- **شاركت في العديد من الأنشطة الثقافية الخاصّة بحوار الأديان بأهمّ المؤسسات التعليمية بمدينة إقامتها؛**

- نالت جائزة الشعر العالمي بجزيرة سردينيا الإيطالية عن قصيدتها "السلطعون الناسك" عام ٢٠٠٩، وذلك في إطار فعاليات مهرجان أكتوبر للشعر العالمي بمدينة "ساسّري".

إصدارات:

- "خرجَ ولمْ يعُد" (مجموعة قصصية)، ط١، مطبعة الحقّ، آسفي ــ المغرب، ٢٠٠٦/ ط٢، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٦؛
- "بدونك" (ديوان شعري) باللغتين العربية والإيطالية، كليبسيدرا، إيطاليا، ٢٠٠٩؛
- "أربعون قصيدة عن الحرف"، ترجمة لديوان شعري من اللغة العربية إلى الإيطالية للشاعر أديب كمال الدين، دار نووفا إيبسا إيديتوره، إيطاليا، ٢٠١١؛
- "مقام الخمس عشرة سجدة" (ديوان شعري) باللّغتين العربية والإيطالية، ط١، دار نووفا إيبسا إيديتوره، إيطاليا، ٢٠١٣ / ط٢، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٦؛
- "تجليّات الجمال والعشق عند أديب كمال الدين"، كتاب نقدي، منشورات ضفاف، لبنان، بيروت، ٢٠١٣؛
- "فجر العصافير الطليقة"، ترجمة لمجموعة قصصية من اللغة العربية إلى اللغة الإيطالية للكاتب الفلسطيني نضال حمد، منشورات الصفصاف، بولندا، ٢٠١٤؛
- "تانغو ولا غير"، ديوان مشترك (أسماء غريب وسعد الشلاه)، وقد ترجمته من العربية إلى اللغة الإيطالية، منشورات آريانا، إيطاليا، آذار ٢٠١٤؛
- "٩٩ قصيدةً عنْكَ"، ط١ وط٢، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٥/٢٠١٦؛

- الترجمة الإيطالية لـ"من مذكّرات طفل الحرب"، ديوان الشاعرة العراقية د. وفاء عبد الرزاق، منشورات أريانا، إيطاليا، ٢٠١٦؛
- الترجمة الإيطالية لـ "نشيد المقبرة" ديوان الشاعر المغربي أنس الفيلالي، منشورات (إيديليفر)، باريس، ٢٠١٦؛
- ما لمْ تبُحْ بهِ مريمُ لأحدٍ، ويليهِ متون سيّدة، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٦؛
- الأمانةُ العظمى في الدّفاع عن تراث وتاريخ الأمم: المُحقِّقُ علي عبد الرضا أنموذجا، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق ٢٠١٦.

- **مشاركات في إصدارات وأنطولوجيات:**

- "صقلّيات" للكاتبة الإيطالية "مارينلاّ فيومه"، وهو معجم خاص بسير ذاتية لـــ ٣٣٣ امرأة من أهم نساء صقلية وقد ساهمت فيه أسماء غريب بدراستها باللغة الإيطالية حول الأديبة الصقلية الراحلة "آنيي ميسّينا" والتي كانت تُقيم بمصر وتُصدر قصصها فيها باسم "جميلة غالي". صدر هذا المعجم عن دار النشر الإيطالية، إيمانويله روميو سنة ٢٠٠٥؛
- "حكايات الهواء، التراب، الماء والنار"، للكاتبتين الإيطاليّتين "سيلفانا فيرناندس" و"إيليونوراه كيافيتّا"، دار روبّتّينو، إيطاليا، ٢٠٠٧ (وهو الكتاب الّذي ساهمت فيه الأديبة بترجمة الجزء الخاص بالمساهمات العربية لأديبات من مناطق مختلفة من العالم العربي)؛
- "رؤى نقدية في شعر حسن حجازي"، دار أنهار، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٣، وقد شاركت فيه أسماء غريب بدراسة نقدية تحت عنوان: شموع وأبيات تضيء مسيرة الشاعر حسن حجازي؛
- "شمعدان النجم"، قصيدة شاركت بها في أنطولوجيا الشعر العربي، التي أعدّها الشاعر والروائي منير مزيد؛

- "وجهان وامرأة واحدة"، نصّ قصصي شاركت به في أنطولوجيا القصة المغربية القصيرة وكانت من إعداد الكاتب والقاص سعيد بوكرامي؛
- "نساء حكيمات"، دار أريانا للنشر والتوزيع، إيطاليا، آذار ٢٠١٥.

- **ترجمات إلى اللغة الإيطالية والعربيّة**

- "السلام أعمق من البحار"، للأديب السوري صبري يوسف؛
- "مدائن يسكنها البحر" (ديوان شعري) للشاعر والدكتور المغربي محمد نجيب زغلول؛
- "الضفة المعاكسة" للشاعر الإيطالي فابيانو ألبورغيتّي (ديوان شعري يتحدث عن تجربة وويلات ومحن الهجرة السرية إلى إيطاليا)؛
- "العودة حق: من شباب فلسطين إلى شباب العالم"، والكتاب هو عبارة عن مجموعة من القصص الفائزة في مسابقة القصة القصيرة لعام ٢٠١١ التي أقامتها "جمعية القلم الخيرية" بالمخيمات الفلسطينية في سوريا؛
- "سيرة الطائر الوحشي" (ديوان شعري) للشاعر العراقي خالد خشان؛
- "همسات من البحر الآخر"، وهي ترجمة لـــ ١٤ نص شعري لنخبة مختارة من شعراء مجلة نوستالجيا؛
- "طينجيتانوس" للفنان والكاتب المسرحي المغربي الزبير بن بوشتى؛
- "تحت سماء دافئة"، (مجموعة قصصية)، للكاتب والمترجم التونسي: إبراهيم درغوثي؛
- "أقدام بيضاء"، (عمل مسرحي) للكاتب المسرحي المغربي الزبير بن بوشتى؛
- "مدارات الكلمة"، مريم نجمة، سوريا/ هولندا.

- **دراسات نقدية ومقالات متفرّقة:**

- جدليةُ الحاءِ في سرديات وفاء عبد الرزاق "رقصةُ الجديلة والنهر" و"حاموت" كأنموذجيْن للدراسة والبحث؛

- الرجلُ ـ الشمس في رواية (رسائل زمن العاصفة) للروائي المغربي د. عبد النور مزّين؛
- شجرة السّتر النّورانية في ديوان (النجمة والدرويش) للشاعر العراقي سعد الشلاه؛
- إنسانُ السَّلام: مَنْ هُوَ وكيفَ يَتكوّن؟ / تجربة صبري يوسف الإبداعيّة أنموذجاً؛
- حملة العرش في الصحيفة السجادية، الدعاء الثالث نموذجا للبحث والدراسة؛
- العمل وتجليلته اليعقوبية في سرديات سعد الشلاه؛
- إشكالية التحوّل والتطوّر، ونظرية القرارِ المكين في (سبع عيون)، قصيدة سعد الشلاه الجديدة؛
- البناء الزمكاني والهمّ الاجتماعي والسياسي في (أيام غير أليفة): من النظرية إلى التطبيق ((دراسة نقدية في مجموعة نوال هادي الجبوري القصصية الجديدة))؛
- من مذكرات طفل الحرب بين مطرقة الترجمة وسندان النقد:
((دراسة نقدية خاصة بديوان ((من مذكرات طفل الحرب)) للمبدعة العراقية د. وفاء عبد الرزاق، ط ١، دار نعمان للثقافة، لبنان،٢٠٠٨/ ط ٢ وط ٣، دار كلمة، مصر، ٢٠٠٩/ ٢٠١٠))؛
- شجرة الماءِ بيْن ومْضةِ الشّعْرِ وسُؤالِ التّيهِ في ديوان "أغنية الشتاء" لأحمد محمد رمضان؛
- يُوسفيّاتُ سَعْد الشَّلَاه بينَ الأدَبِ والأنثرُوبُولوجْيا؛ قراءة نقدية لديوان الشاعر سعد الشلاه، (كفّ أمّي)، المركز الثقافي للطباعة والنشر، بابل، طبعة أولى، ٢٠١٤؛

- إشكالية النص القرآني بين المناهج النقدية ومعايير التفسير والتأويل، قراءة في كتاب أسامة غالي الموسوم (النص القرآني بين معيارية الموروث ومناهج النقد المعاصر)؛
- ذكرى حرب أكتوبر في مسابقة مهد الحضارات، مقاربة تاريخية ونقدية؛
- مرآة الحرف بين سريالية النوم وفجأة اليقظة، كاسل جورنال، عدد ١٣ أكتوبر ٢٠١٤؛
- مسابقة مهد الحضارات وذكرى حرب ٠٦ أكتوبر ١٩٧٣بين مطرقة التدقيق التاريخي وسنديان التحليل والمقاربة النقدية؛
- "العبودية والرّق بين الماضي والحاضر"، عن جامعة الدّراسات والأبحاث، فرع كلّية العلوم السياسية/ قسم الدراسات التاريخية باللغة الإيطالية؛
- "قمر الفرجار وقواربه" (مقاربة نقدية) حول ديوان "قمر أم حبّة إسبرين"، للشاعر الفلسطيني محمّد حلمي الرّيشة، نُشرت بجريدة الأيام الجزائرية، الأربعاء ٢٧ نيسان ٢٠١١؛
- قراءة في ديوان "للأزهار رائحة الحزن" للشاعر المغربي إبراهيم القهوايجي؛
- ثنائيّة الغربة والوجد في ديوان خريف طفلة للشّاعرة عواطف عبد اللطيف: د. أسماء غريب؛
- "النّوتي المبحر نحو ثدي الكون"، دراسة عن ديوان "لا أدري إلى أين يأخذني هذا الأفق؟" للشاعر الإيراني حمزة كوتي؛
- "الإمبراطورة والشاعر"، دراسة خاصّة بديوان الشاعر أديب كمال الدين "أربعون قصيدة عن الحرف"؛
- إشارات الألوان: قراءة في ديوان "الحرف والغراب" لأديب كمال الدين؛
- الرّوح القدس أو اليد العالمة في أشعار أديب كمال الدين؛
- عندما ينتصر الشعر قراءة في ديوان "التي في خاطري" للشاعر المصري حسن حجازي؛

- أبروتسو قلب إيطالي ينبض بالفن والفكر والجمال؛
- غوص في بحار الجسد والرّوح؛
- الواقعيّة في الأدب الإيطالي؛
- أبناء الشمس والصّفصاف بين التاريخ والأدب: لمحات من الأدب الكردي.

- **كتابات ومقالات نقدية عنها**

- نزار بهاء الدين الزين، عودي إليّ ياحنين، رواية من ثلاثة أجزاء للأديبة المغربية أسماء غريب، جريدة الرأي، عدد ٢٠٠٦/١٠/١٧؛
- فاطمة ناعوت، قصص للمغربية أسماء غريب، أولئك الذين لا يعودون من خيبة أحلامهم، جريدة الحياة، ٢٠٠٨، عدد ١٦٤٣٤؛
- صالح الطائي، الدكتورة أسماء غريب وتجليات أديب كمال الدين، [قراءة في كتاب (تجلّيات الجمال والعشق عند أديب كمال الدين) تأليف الدكتورة أسماء غريب، دار ضفاف للنشر، بيروت، ٢٠١٣]، مجلة سطور، عدد ٣٠ تمّوز، ٢٠١٣؛
- إسماعيل إبراهيم عبد، قراءة في كتاب: تجلّيات الجمال والعشق عند أديب كمال الدين للدكتورة أسماء غريب، جمال العشق وتجليلتُه الصوفية، جريدة آي ثقافة، عدد ١٧ كانون الأول ٢٠١٣؛
- أسامة غالي، سيميولوجية العنوان ومعاقد النص في شعر أسماء غريب، قراءة أولى، جريدة دنيا الرأي، عدد، ٢٠١٣/١٠/٢٨؛
- د. فاضل عبود التميمي، الحضور الصوفيّ في (مقام الخمس عشرة سجدة) للشاعرة أسماء غريب، جريدة العالم البغدادية، عدد ٢٠١٣/١٢/٣١؛
- أسامة غالي، سفر الذات في شعر أديب كمال الدين وتداعيات البحث عن المعنى الجمالي، صحيفة المثقف، العدد: ٢٨٩٦ الاحد ١٠ – ٠٨ – ٢٠١٣؛

- صباح الأنباري، قراءة في قصيدة الشاعرة د. أسماء غريب (إليكَ شمسي في عيد العشاق)، جريدة بصرياثا، عدد ٢٥ شباط ٢٠١٤؛
- د. عبد الناصر عيسوي، ((ضرورة الحياة الروحية للإنسان المعاصر/ أسماء غريب في مقام الخمس عشرة سجدة)، مجلة "الإذاعة والتلفزيون" عدد السبت ٣ أيار ٢٠١٤/ ركن إبداعات؛
- حيدر علي سلامة، نحو مادية شعرية في قصيدة (ليالي زفافنا السّبْع) للدكتورة أسماء غريب في طقوس الجسد المقدس/ وشعرية النص المُتخَيّل؛ مجلة بصرياثا، عدد ٠١ نيسان ٢٠١٤؛
- علوان السّلمان، سيميائية الألوان في (سبع قبل) للشاعرة د. أسماء غريب، مجلة معارج الفكر، ٢١ أيّار ٢٠١٤؛
- غسان العبيدي، البعد البؤري، قراءة في قصيدة (السمكة والصياد) للدكتورة أسماء غريب، صحيفة الديار اللندنية،٢٧ حزيران، ٢٠١٥؛
- نوال هادي حسن، المرأة ومحاكمة التأريخ بعين الروح في قصيدة (نفرآتون) للشاعرة الناقدة د. أسماء غريب؛
- د. عواد الغزي، اللغة الثملة والفلسفة المقدسة في قصيدة (حانة العشاق) للشاعرة أسماء غريب؛
- د. عواد الغزي، السوسيولوجيا العقائدية ومركزية الصوت في قصيدة (جرس) للدكتورة أسماء غريب.
- كاظم اللامي، قراءة في كتاب (ميثم السعدي وثنائية العرض المسرحي) تأليف الأديبة د. أسماء غريب.

- **حوارات واستطلاعات صحفية**

- بن رحمون عبد الحق، أسماء غريب تتحدث للزمان عن منابع المعرفة، جريدة الزمان الدولية، عدد ٣٣٤٩ / ٢٠٠٩/٠٧/١٨؛

- ندى ضمرة، حوار مع الشاعرة المغربية أسماء غريب، العرب اليوم، ٢٠١٠؛
- محمد الكلاف، حوار المبدعات، مجلة روافد عدد ٢٠١١/٢٠؛
- بن رحمون عبد الحق، لا ندم في طريق القصائد، جريدة الزمان الدولية، عدد ٢٩ أيلول ٢٠١٢؛
- منى ظاهر وأوس داوود يعقوب، الحصاد الثقافي ٢٠١٣: أين توارى الكاتب العربي في عاصفة التحولات؟ جريدة العرب، عدد ٩٤٢٥، ٢٠١٣/١٢/٣١؛
- القلب، أرض الإنسان وبيته الحق، حاورها الأديب المسرحي ميثم السعدي، مجلة نسائم الأسترالية، (آب ٢٠١٤)؛
- حصريا على كاسل جورنال، حوار مع الأديبة المغربية الدكتورة أسماء غريب بمناسبة اختيارها حكما ضمن لجنة التحكيم في مسابقة مهد الحضارات للقصة القصيرة والقصة الومضة، جريدة كاسل جورنال، الولايات المتحدة الأمريكية (أيلول ٢٠١٤)؛
- الدكتورة أسماء غريب: الأديبة المغربية التي تغنت شعراً بحب الحسين (ع)/ إنسانة أبدعت فتعددت مواهبها (خاص بوكالة عشتار الإخبارية/ العراق/ حاورها رئيس التحرير فرج الخزاعي)؛
- الدكتورة أسماء غريب في حوار عن الشعر والنقد والتصوف والترجمة، حاورها من الجزائر وليد شموري، (مجلة الشاهد / عدد ٢٢ تشرين الثاني ٢٠١٤)؛
- عن السلام العالمي، حوار مع الأديبة د. أسماء غريب، حاورها رئيس تحرير مجلة السلام المبدع والفنان التشكيلي صبري يوسف (سوريا/ ستوكهولم)، (مجلة السلام/ العدد الثاني ٢٠١٤)؛

- عن الأدب والحداثة في المغرب، حوار مع د. أسماء غريب، (جريدة لوسفويّتّينو)، ٢٠١٥.

/https://asmaaegherib.wordpress.com

https://asmagheribblog.wordpress.com/

http://ishtartammuz.wordpress.com

http://www.youtube.com/channel/UCHtad٥pA٦GyNR٠EkV٩Ty٤sA

دار الفرات للثقافة والإعلام - العراق - بابل

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٥٢٣) لسنة ٢٠١٦م

Al-Furat House for Education and Information

Iraq – Babylon